الاحتيال الكبير

إدوارد فيلبيس أوبنهايم

ترجمة أسماء عزب

الاحتيال الكبير

تأليف
إدوارد فيليبس أوبنهايم

ترجمة
أسماء عزب

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

الاحتيال الكبير

إدوارد فيليبس أوبنهايم

The Great Impersonation

E. Phillips Oppenheim

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٥ ٢٤٥٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١٥
الفصل الثالث	٢٣
الفصل الرابع	٢٩
الفصل الخامس	٣٩
الفصل السادس	٤٧
الفصل السابع	٥٩
الفصل الثامن	٦٩
الفصل التاسع	٧٧
الفصل العاشر	٨٣
الفصل الحادي عشر	٩١
الفصل الثاني عشر	٩٧
الفصل الثالث عشر	١٠٣
الفصل الرابع عشر	١١١
الفصل الخامس عشر	١١٧
الفصل السادس عشر	١٢٧
الفصل السابع عشر	١٣٥
الفصل الثامن عشر	١٤٣
الفصل التاسع عشر	١٤٩
الفصل العشرون	١٥٧

الفصل الحادي والعشرون ١٦٣
الفصل الثاني والعشرون ١٦٩
الفصل الثالث والعشرون ١٧٧
الفصل الرابع والعشرون ١٨٧
الفصل الخامس والعشرون ١٩٣
الفصل السادس والعشرون ١٩٩
الفصل السابع والعشرون ٢٠٩
الفصل الثامن والعشرون ٢١٥
الفصل التاسع والعشرون ٢٢٥

الفصل الأول

بدأتِ الواقعة التي كانت ستنتج عنها أحداثٌ عظيمة عندما استحثَّ إيفرارد دوميني — الذي كان قد أخذ يشق طريقه عبر الشجيرات طيلةَ الساعة إلا الربع الأخيرة نحوَ تلك الخيوط الرفيعة الحلزونية من الدخَان — مُهرَه على بذلِ محاولةٍ يائسةٍ أخيرة، واصطدم بشجيرة الدِّفْلى الكبيرة ليسقط على رأسه في الجزء الصغير الخالي من الأشجار. تطوَّر الأمر في صباح اليوم التالي، عندما وجد نفسَه لأول مرة منذ عدة أشهر على سريرٍ مدولب، مغطًّى بملاءات من الكتان، وسقفٍ رائع مجدول بأشجار الخيزران يفصل بينه وبين الشمس القاسية. رفع نفْسَه قليلًا في الفِراش.

تساءل: «أين أنا بحقِّ الجحيم؟»

وقف صبيٌّ أسود، كان جالسًا القُرفُصاءَ في مدخل المنزل المصنوع من القش، وتمتم بشيءٍ ما واختفى. بعد لحظات قليلة، انحنى شخصٌ أوروبي نحيف وطويل، يرتدي ملابسَ ركوب خيل ناصعة البياض، أتى إلى جانب دوميني.

استفسر بأدب: «هل تشعر بتحسُّن؟»

أجاب بفظاظة إلى حدٍّ ما: «نعم.» وتابع قائلًا: «أين أنا بحق الجحيم، ومَن أنت؟»

أصبح أسلوبُ الوافد الجديد صارمًا. كان شخصًا ذا هيئة موقَّرة، وانطوت نبرةُ صوته على قدرٍ من التوبيخ.

أجاب: «أنت على بُعد نصف ميل من نهر آيريواري، إذا كنتَ تعرف ذلك المكان، على بُعد نحو اثنين وسبعين ميلًا جنوبَ شرق مستوطنة داراواجا.»

«اللعنة! إذن أنا في شرق أفريقيا الألمانية؟»

«دون أدنى شك.»

«وأنت ألماني؟»

«بكلِّ فخر.»

أصدر دوميني صفيرًا منخفضًا.

وقال: «آسفٌ بشدة على التطفُّل. لقد غادرت مارلينشتاين منذ شهرين ونصف، مع عشرين صبيًّا والكثير من المؤن. كنا نقوم برحلةٍ كبيرة وراء الأُسود. وأخذت بعض العساكر الأفارقة الجدد وأثاروا المتاعب؛ نهبوا المؤنَ ذاتَ ليلة وكانت العواقبُ وخيمة. اضطُرِرت إلى إطلاق النار على واحدٍ أو اثنين، وفرَّ الباقون. أخذوا بوصلتي، عليهم اللعنة، وأنا على بُعد مائة ميل تقريبًا من موقعي. هل يمكنك إعطائي شرابًا؟»

كانت الإجابة مهذَّبة: «بكل سرور، إذا وافق الطبيب.» وقال: «تعالَ يا جان!»

ظهر الصبيُّ فجأة، واستمع إلى كلمةٍ أو كلمتين من الأوامر الموجزة بلغتِه، واختفى في العُشب المعلَّق الذي كان يؤدِّي إلى كوخٍ آخر. تبادل الرجلان نظراتٍ تحملُ ما هو أكثرُ من مجردِّ اهتمامٍ عاديٍّ. ثم ضحك دوميني.

وقال: «أعرف ما يدور بخَلَدك.» وتابع: «لقد اندهشت جدًّا عندما دخلْتَ. فنحن متشابهان للغاية، أليس كذلك؟»

أقرَّ الآخر: «ثَمة شبهٌ كبير جدًّا بيننا.»

أسند دوميني رأسه على يده وتفحَّص مضيفه. كان التشابه واضحًا بدرجةٍ كافية، على الرغم من أن الأفضلية كانت كلُّها تعود لصالح الرجل الذي وقف بجانب سرير المخيَّم بذراعين مضمومتين. عاش إيفرارد دوميني، طوال الستة والعشرين عامًا الأولى من حياته، مثل أيِّ شاب إنجليزي عادي في مكانته؛ التحق بمدرسة إيتون، في أكسفورد، ثم قضى بضعَ سنوات في الجيش، وبِضع سنوات حول المدينة فَشِل خلالها فشلًا ذريعًا في إدارة ممتلكاته المرهونةِ بالفعل، وبضعة أشهُر مفجعة، ثم حياةً فارغة. بعد ذلك، ولمدة عشر سنوات، مكث في البداية في المدن، ثم في الأماكن المظلمة في أفريقيا؛ سنواتٍ لم يعرف عنها أيُّ شخص أيَّ شيء. كان إيفرارد دوميني قبل عشر سنوات، بلا شك، حسَنَ المظهر. وبقيت الملامحُ الوسيمة، لكنَّ عينَيه فقدَتا بريقهما، وفقدَ جسدُه مرونته، وفمُه حزْمَه. كان يبدو كأنه فقَد قبل الأوان جاذبيتَه، التي ضاعت بسبب الأمراض وتبديد الأموال. على النقيض كان رفيقه الحالي. فقد كانت ملامحه وسيمةً مثله، مصبوبةً في قالَبٍ أقوى وإن كان مشابهًا. كانت عيناه لامعتَين ومفعَمتين بالحماس، وكان فمه وذقنه يَشِيان بحزمٍ ينمُّ عن رجلِ أفعال لا أقوال، واتَّسم جسده الفارع بالرشاقة والمرونة. كان يتمتَّع بصحةٍ ممتازة، وفي حالة عقلية

وجسدية مثالية؛ فهو رجلٌ عاش حياة كريمة وقدرًا من الرضا، على الرغم من الجدِّية البسيطة التي كانت تبدو على تعابير وجهه.

تمتم الإنجليزي: «نعم، لا شك في الشبه، على الرغم من أنني أفترضُ أنني كنتُ سأبدو أكثرَ شبهًا بك لو كنتُ قد اعتنيتُ بنفسي. لكني لم أفعل. وهذا أسوأ ما في الأمر. فقد فعلتُ العكس؛ وحاولت أن أضيع حياتي وكِدت أن أنجح في ذلك أيضًا.»

دُفعَت الأعشاب الجافة على جانبٍ واحد، ودخل الطبيب، الذي كان رجلًا بدينًا قصيرًا، يرتدي هو الآخر ملابسَ ناصعة البياض، ولديه شعرٌ أصفرُ ذهبي ونظارات سميكة. أشار مواطنه نحو السرير.

«هل يُمكنك أن تفحص مريضَنا أيها الطبيب، وتصفَ له ما يلزم؟ لقد طلب شرابًا. فدَعْه يحصلْ على النبيذ أو أيِّ شيء مفيد له. وإذا تحسنَت صحَّته بما فيه الكفاية، فسينضم إلى وجبتنا المسائية. فلتعذرني. لديَّ تقرير لأكتبه.»

أدار دوميني الجالس على الأريكة رأسَه وراقب الشخصَ المغادرَ وفي عينيه مَسحةٌ من الحسد.

وسأل الطبيبَ: «ما اسم الرجلِ الذي أنقذ حياتي؟»

بدا على الأخير كما لو أن سؤاله لا يتَّسم بالاحترام.

«إنه معالي الميجور-جنرال البارون ليوبولد فون راجاشتين.»

تمتم دوميني: «كل هذا!» وتابع قائلًا: «هل هو الحاكم، أو شيءٌ من هذا القبيل؟»

أجاب الطبيب: «إنه القائد العسكريُّ للمستعمرة. ولديه أيضًا مهمة خاصة هنا.»

علَّق دوميني بوقاحةٍ دون تفكير: «يا له من رجل حَسن المظهر مقارنةً بكونه ألمانيًّا.»

لم يُبالِ الطبيب بما قاله. كان يقيس نبض مريضه. وأنهى فحصه بعد بِضع دقائق.

وسأل: «لقد شربتَ الكثير من الويسكي مؤخرًا، أليس كذلك؟»

ردَّ باقتضاب: «لا أعرف بحقِّ الشيطان ما علاقةُ ذلك بك، لكنني أشرب الويسكي كلما استطعتُ الحصول عليه. مَن منَّا لا يفعل ذلك في هذا المناخ الوبائي!»

هزَّ الطبيب رأسه.

وصرَّح: «المناخ جيد مع مَن يتعامل معه جيدًا.» وتابع: «معاليه لا يشرب سوى النبيذِ الخفيف والمياه الغازية. لقد أمضى هنا خمسَ سنوات، ليس فقط هنا ولكن في المستنقعات، ولم يمرض يومًا واحدًا.»

ردَّ الإنجليزي ببعض التهوُّر: «حسنًا، لقد كنتُ على شفا الموت عشر مرات، ولا أهتمُّ كثيرًا بمتى تحينُ ساعتي، ولكن إلى أن يحينَ ذلك الوقتُ سأشرب الويسكي كلما استطعت الحصول عليه.»

أعلن الطبيب: «الطاهي يُعِدُّ لك بعض الغذاء، وسيفيدك أن تأكل. لا يمكنني إعطاؤك ويسكي في هذه اللحظة، ولكن يمكنك الحصول على بعض النبيذ الألماني الأبيض والمياه الغازية مع أوراق الغار.»

كان الردُّ الحماسي: «أرسِل في طلبها.» وتابع: «فأنا أمتلك بِنْية قوية، أيها الطبيب! ورائحة ذلك الطهي في الخارج تجعلني جائعًا جدًّا.»

كان التأكيد المطمْئِنُ: «لن تظلَّ بِنيتك سليمة إذا لم تحترمها.»

استفسر دوميني: «هل سمعت أيَّ شيء عن بقية مجموعتي؟»

أخبره الطبيب: «جرفَت المياهُ بعضَ جثث العساكر الأفارقة من النهر، وأكلت الأسودُ اثنين من خيولك. أستميحك عذرًا. لديَّ جروح عليَّ أن أعالجها لأحد السكان الأصليين، الذي عضَّه نَمرٌ مرقَّط الليلةَ الماضية.»

استلقى المسافر، بعد أن تُرك وحدَه، دون حركةٍ في الكوخ، وطافت أفكارُه في الماضي. نظر إلى المنطقة الجرداء المغطَّاة بالشجيرات القصيرة التي أُخلِيَت من أجل هذا المعسكر حتى مجموعة الأجمات والشجيرات المزهِرة وراءها، التي كانت غامضة ولا يمكن اختراقُها باستثناء مسار الفيَلَة الوعر الذي كان قد سافر على امتداده؛ إلى النهر الواسع، الأزرقِ مثل السماء أعلاه، وإلى الجبال التي تتلاشى في الضباب وراءها. كان وجهُ مضيفه قد أعاده إلى الماضي. وأثارت ذكرياتٌ حائرة شريطَ الذاكرة. ولم يتذكَّر إلا لاحقًا في وقت العشاء، عندما جلس ثلاثتُهم، هو والقائد والطبيب، على طاولةٍ صغيرة وُضِعَت خارج الكوخ، حتى يتمكَّنوا من الاستمتاع بالنَّسمات الرقيقة القادمة من الجبال، معلنةً حلولَ الظلام سريعًا. أخذ الخَدَم من السكان الأصليين يعملون على تهويتهم بمراوحَ من خشب الخيزران لإبعاد الحشرات، وكان الهواء خانقًا إلى حدِّ الإضرار بالصحة، مع عطر بعض الشجيرات الغريبة الباعثة على الغثيان.

هتف فجأةً: «يا إلهي، أنت ديفينتر! سيجيسموند ديفينتر! كنتَ معي في إيتون — منزل هوروك — نصف نهائي لعبة مضرب التنس.»

«ومجدلين بعد ذلك، رقم خمسة في القارب.»

«ولماذا، بحق الشيطان، أخبرَني الطبيب هنا أن اسمك هو فون راجاشتين؟»

كان الردُّ الموزون إلى حدٍّ ما: «لأن هذه هي الحقيقة.» وأضاف: «ديفينتر هو اسم عائلتي، وهو الاسم الذي عُرِفتُ به عندما كنتُ في إنجلترا. ومع ذلك، عندما ورثتُ البارونية والممتلكات عند وفاة عمي، اضطُررت أيضًا إلى الحصول على اللقب.»

هتف دوميني: «حسنًا، إنه عالم صغير!» وتابع يسأل: «ما الذي أتى بك إلى هنا حقًّا؛ الأسُود أم الأفيال؟»

«لا هذا ولا ذاك.»

«هل تقصد أن تقول إنك قد امتهنتَ هذا النوع من العمل السياسي لذاته وليس من أجل الصيد؟»

«هكذا تمامًا. فأنا لا أستخدم بندقيةَ صيدٍ مرةً كل شهر، إلا للضرورة. فقد جئتُ إلى أفريقيا لأسباب مختلفة.»

تجرَّع دوميني جرعةً كبيرة من نبيذه الألماني الأبيض والمياه الغازية ومال بظهره إلى الوراء، وأخذ يُراقب اليَراعات وهي ترتفع فوق العُشب الطويل، فوق مجموعات من الشجيرات القصيرة المكتظَّة، وتتدلَّى مثل نجومٍ صغيرة في الهواء البنفسَجيِّ الصافي.

ناجى نفسَه: «يا له من عالم!» وتابع: «سيجي ديفينتر، البارون فون راجاشتين هنا يَستعبد ويُدرِّب الزنوج، لسببٍ لا يعلمه إلا الرب؛ لمحاربة كِيانٍ سياسي، على ما أفترض، لا يعلمه إلا الرب، وسيكون الحاكمَ العامَّ المستقبلي لأفريقيا الألمانية، أليس كذلك؟ كنتَ دائمًا فخورًا ببلدك، يا ديفينتر.»

كان الردُّ الرصين: «بلدي بلدٌ يُفتخَرُ به.»

تابع دوميني: «حسنًا، أنت جاد، على أي حال، جادٌّ بشأن شيءٍ ما. وأنا ... حسنًا، لقد انتهى أمري. كان من الممكن أن ينتهيَ كلُّ شيء الليلةَ الماضية لو لم أرَ الدخان المنبعث من نيرانكم، ولا يُهمني كثيرًا؛ هذه هي المشكلة. فأنا مستمرٌّ في ارتكاب الحماقات. أفترض أن النهاية ستأتي بطريقةٍ ما، في وقتٍ ما؛ هل يمكنني الحصول على بعض الرَّم أو الويسكي، يا ديفينتر؛ أعني يا فون راجاشتين، معاليك، أو أيًّا كان ما يتعينُ عليَّ قولُه؟ أترى حلقات الضباب تلك على ضفاف النهر؟ ستُمثِّل ملاريا لي ما لم أحصل على شراب كحولي.»

أجاب فون راجاشتين: «لدي شيء أفضل من كلٍّ منهما.» وأضاف: «ويجب أن تُعطيني رأيك فيه.»

تلقَّى الخادم الذي كان يقف خلف مقعد سيده أمرًا هامسًا، واختفى في كوخ المؤن، وعاد على الفور بزجاجةٍ شهق الرجلُ الإنجليزي عند رؤيتها.

هتف: «نابليون!»

أوضح مضيفه: «بضع زجاجات فقط كنتُ قد أَرْسَلْتُها لنفسي.» وأضاف: «ويسعدني أن أقدِّمَها لشخصٍ سيُقدِّرها.»

قال دوميني، وهو يَسكب منها الشراب في كأسه: «بحقِّ الرب، لا خطأ في ذلك!» وتابع: «يا له من عالم! لم أكن قد أكلتُ منذ ثلاثين ساعةً عندما وصلت إلى هنا الليلة الماضية، ولم أشرب شيئًا عدا الماء القذر لعدة أيام. والليلة، أتناول يخني الدجاج، والخبزَ الأبيض، ونبيذًا ألمانيًّا أبيضَ فاخرًا، وبراندي نابليون. وغدًا أيضًا ... حسنًا، مَن يدري؟ متى ستُتابع مسيرك، يا فون راجاشتين؟»

«ليس قبل عدة أيام.»

سأل ضيفه بفضول: «بحق الجحيم ما الذي يمكنك أن تفعله بعيدًا عن المركز الرئيسي، إذا لم تُطلق النار على الأُسود أو الأفيال؟»

أجاب فون راجاشتين: «إذا كنتَ ترغب حقًّا في أن تعرف، أزعجُ عملاءكم السياسيِّين كثيرًا بالانتقال من مكانٍ إلى آخر؛ لأجمعَ السكان الأصليِّين من أجل التدريب العسكري.»

استمرَّ دوميني: «ولكن ما الذي تريد أن تدرِّبهم عسكريًّا من أجله؟» أضاف: «سمعت منذ مدةٍ أن عدد السكان الأصليين المستعدِّين للقتال لديك يبلغُ أربعةَ أضعافِ العددِ لدينا. أنت لا تريد جيشًا هنا. من غير المحتمل أن تُحاربنا أو تحارب البرتغاليين.»

صرَّح فون راجاشتين بأسلوبٍ تلقينيٍّ قليلًا: «من عادتنا، في ألمانيا وفي أيِّ مكان نذهب إليه نحن الألمانَ، أن نكون مستعدِّين ليس فقط لما هو من المرجَّح أن يحدث وإنما لما يُحتمَل أن يحدث.»

قال دوميني مستغرقًا في التفكير: «ربما لو كنتُ شاركتُ في حربٍ في أيام شبابي، عندما كنتُ في الجيش، ربما كانت ستجعل مني رجلًا.»

«هل كان لديك حقًّا فرصةٌ هنا؟»

هزَّ دوميني رأسه.

وقال: «لم تُغادر كتيبتي البلادَ قط. كنا محتجَزِين في أيرلندا طوال الوقت. كان ذلك هو سببَ تركي للجيش عندما كنت حقًّا مجردَ صبي.»

في وقتٍ لاحق سحبا مقاعدهما بعيدًا أكثرَ قليلًا في الظلام، ودخَّنا السيجار وشربا بعضَ القهوة الرائعة. كان الطبيب قد انصرف لرؤية مريض، وكان فون راجاشتين غارقًا

في أفكاره. على الناحية الأخرى، استمر ضيفُهم في التنقُّل من موضوع لآخر مستعيدًا الذكريات.

وعلَّق، وهو يمدُّ يده بتكاسلٍ ليأخذ كأسه: «من شأن لقائنا أن يكون مثيرًا للاهتمام البالغ من قِبَل الطبِّ النفسي. ها نحن أولاء، جمَعتْنا صدفةٌ إعجازية لقضاء ليلة واحدة من حياتنا في غابة أفريقية، اثنان من البشر من نفس العمر نشَآ معًا على بُعد آلاف الأميال، يهرُبان نحو الظلام الأبدي على طول خطوطٍ متباعدة بقدرِ ما يمكن للعقل أن يتصوَّر.»

غمغم فون راجاشتين: «عيناك ثابتتان على ذلك الظلامِ الذي ستُشرق من خلفِه الشمسُ عند الفجر. ستراها تَبزُغ من وراء الجبال في تلك البقعةِ بالتحديد، مثل عالمٍ جديد ومتوهِّج.»

اعترض رفيقه بفظاظة: «لا تَصرِف انتباهي بالاستعارات.» وأردف: «فالظلام الأبدي موجودٌ بالفعل، حتى لو كان تعبيري المجازيُّ خاطئًا. وأنا أميل إلى أن أكون فلسفيًّا. فاسمحْ لي أن أكمل ثرثرتي. ها أنا ذا، كسولٌ في طفولتي، باحثٌ عن المتعة، غيرُ مؤذٍ في شبابي إلى أن واجهتُ مأساةً، ومنذ ذلك الحين، أصبحتُ متسكِّعًا، متسكِّعًا ذا رذيلة تنمو ببطء، يسترخي في الحياة دون هدفٍ محدَّد، دون أمل أو أمنية محدَدين، ما عدا»، وتابع وهو ينعَس قليلًا، «أنني أظن أني أودُّ أن أُدفَن في مكانٍ ما بالقرب من سَفْح تلك الجبال، على الجانب الآخر من النهر، الذي تُشرق من ورائه الشمس كما تقول كلَّ صباح مثل عالم متوهِّج.»

احتجَّ فون راجاشتين: «أنت تتحدَّث بحماقة.» وأضاف: «إن كانت ثمة مأساةٌ في حياتك، فلديك الوقت لتتجاوزها. أنت لم تبلغ الأربعين من العُمُر بعد.»

تابع دوميني متجاهلًا تمامًا ملاحظةَ صديقه: «ثم ألتفتُ وأتأمَّل حالك.» وتابع: «أنت في مثلِ عمري، وتبدو أصغرَ بعشر سنوات. عضلاتك قوية، وعيناك تلمعان كما كانتا في أيام المدرسة. أنت تتصرَّف مثل رجلٍ لديه هدف. أخبرَني الطبيب أنك تستيقظ الساعة الخامسة كلَّ صباح، وتعود إلى هنا، منهَكًا، عند الغسَق. أنت تُمضي كلَّ لحظة من وقتك في تدريب أولئك الزنوج القذرين. وعندما لا تفعل ذلك، تستكشف الأراضيَ، وتُشرف على التقارير المرسَلة إلى الوطن، محاولًا تحقيقَ أقصى استفادة من بضعة ملايين من الأفدنة من المستنقعات القذرة المسبِّبة للحُمى. والطبيب معجبٌ بك جدًّا، ولكن مَن يدري؟ لماذا تفعل هذا يا صديقي؟»

كان الرد الهادئ: «لأنه واجبي.»

«واجبك! ولكن لماذا لا يمكنك تأدية واجبك في بلدك، وتَسعد بحياتك، وتُدرِّب رجالًا بِيضًا، وتتعرَّف على نساء بيضاوات؟»

أجاب فون راجاشتين: «أذهب إلى حيث يكون وطني في أمسِّ الحاجة إليَّ.» وأضاف: «أنا لا أستمتع بتدريب السكان الأصليِّين، ولا أستمتع بمرور السنوات وأنا منبوذٌ من مَسرَّات الحياة البشرية العادية. لكني أتبع قدَري.»

ضحِك دوميني ساخرًا: «وأنا أتبع السراب.» وأردف: «كل شيء واضحٌ جدًّا. قد تكون متبلدَ الحس — فقد كنتَ دائمًا جادًّا — لكنك رجلٌ صاحب مبدأ. وأنا رجل كسول.»

أبدى فون راجاشتين رأيه قائلًا: «الفرق بيننا هو شيء غُرِسَ في شباب بلدِنا ولم يُغْرَس في شبابكم. في إنجلترا، بقليل من المال، وقليلٍ من النَّسَب، يتوقَّع الشبابُ لديك أن يجدوا العالَم ملعبًا للتسلية، وحديقةً للأحبَّاء. أعظم نبيل ألماني عاش على الإطلاق لديه عمل يؤدِّيه. فالعمل هو ما يصنع الهيكل الأساسي الذي يُعطي التوازن للحياة.»

تنهَّد دوميني. كان سيجاره باردًا بين إصبَعيه، مع أنه كان ذا قيمة كبيرة للغاية. في تلك الظُّلمة العطرة، التي لم يكن يُضيئُها سوى الضوء الخافت للمصباح المظلَّل في الخلف، بدا وجهه فجأةً شاحبًا ومسنًّا. انحنى مضيفه تجاهه وتحدَّث لأول مرة بنبرات شبابهما اللطيفة.

«لقد ألمحتَ إلى مأساةٍ يا صديقي. أنت لستَ وحدك. فالمأساة دخلتْ حياتي أيضًا. ربما لو سارت الأمور على خلاف ذلك، لوجدتُ عملًا في أماكنَ أكثر بهجة، لكن الحزن حلَّ بي، وها أنا ذا هنا.»

أضاءت ومضةُ تعاطف سريعة وجهَ دوميني.

تأوَّه قائلًا: «لقد واجهنا ابتلاءاتٍ بطريقة مختلفة.»

الفصل الثاني

نام دوميني حتى وقتٍ متأخر من صباح اليوم التالي، وعندما استيقظ أخيرًا من سُباتٍ طويل بلا أحلام، شعر بهدوءٍ يُثير الفضولَ في المخيَّم. وفسَّر الطبيبُ، الذي جاء لرؤيته، ذلك فورًا بعد تحيته الصباحية.

وأعلن: «لقد تلقَّى معاليه تقاريرَ مهمة من الوطن. وذهب للقاء مبعوثٍ من دار السلام. وسيغيب لمدة ثلاثة أيام. وأراد أن تبقى ضيفَه حتى عودته.»

غمغم دوميني: «هذا لطفٌ كبير منه.» وأردف يسأل: «هل توجد أيُّ أخبار من أوروبا؟»

كان الرد متبلدَّ الحس: «لا أعرف. طلب مني معاليه أن أبلغك أنه إذا كنتَ ترغب في الخروج في رحلة قصيرة على ضفاف النهر، جنوبًا، فإنه يوجد عشرات الصِّبيان الباقين وبعض الخيول. يوجد الكثير من الأُسود، وربما تُقابل وحيد القرن في مكان أو مكانين يعرفهما السكان الأصليون.»

اغتسل دوميني وارتدى ملابسه، وارتشف قهوته الممتازة، وتجوَّل بتكاسل في المكان شاعرًا بالحيرة. أفضى بهمومه للطبيب بينما كانا يشربان الشايَ معًا في وقت متأخر بعد الظهر.

اعترف: «أنا لستُ مولعًا بالصيد على الإطلاق، وأشعر بأنني متطفِّل مروِّع، لكن على الرغم من ذلك، لديَّ شعور غريب بأنني أرغب في رؤية فون راجاشتين مرةً أخرى. أنا بالأحرى مفتون برئيسك الصامت، أيها الطبيب. إنه رجل. لديه شيء فقدته.»

أعلن الطبيب بحماس: «إنه رجل عظيم. يُنفِّذ ما يُخطِّط لفعله.»

تنهَّد دوميني: «أفترض أنني كنت سأكون هكذا لو كان لديَّ حافز. هل لاحظت الشبهَ بيننا أيها الطبيب؟»

أومأ الأخير برأسه إيجابًا.

أقر: «لاحظته منذ اللحظة الأولى لوصولك.» وأردف: «بينكما شبهٌ كبير للغاية، ولكنكما مختلفان جدًّا. لا بد أن التشابه كان أبرز في شبابكما. لقد تعامل الزمن مع ملامحك وفقًا لأفعالك.»

احتجَّ دوميني بانفعال: «حسنًا، لستُ بحاجة إلى أن تزيدَ الطين بِلَّة.»

أجاب الطبيب بهدوء تام: «أنا لا أزيد شيئًا.» وأردف: «إنني أقول الحقيقة. لو كنتَ تمتلك العزيمةَ الأخلاقية نفسَها التي يتمتَّع بها معاليه، لربما حافظتَ على صحتك والأشياء المهمة. ولربما أصبحت مفيدًا لبلدك كما هو مفيد لبلده.»

«أفترض أنني ضعيف جدًّا، أليس كذلك؟»

«لقد أسأتَ معاملةَ جسدك. ومع ذلك، لا يزال لديك الكثير من الحيوية. إذا اهتممتَ بممارسة ضبط النفس لبضعة أشهر، فستصبح رجلًا مختلفًا. بعد إذنك. لديَّ عمل.»

أمضى دوميني ثلاثة أيام مضطربة. حتى مشهدُ قطيعٍ من الأفيال في النهر وتلك الأصواتُ الليلية الغريبة الرهيبة، لَمَّا كانت الوحوش تتسلل بلا ضوضاء حول المخيَّم، فشلت في التأثير فيه. في الوقت الحالي، بدا حبُّه للصيد، وهو آخر ما كان يتمسَّك به في عالم الأشياء الحقيقية، هامدًا. ما الفائدةُ التي ستُجنى، بطريقةٍ أو بأخرى، من وراء قتلِ حيوان؟ كان عقله مركِّزًا بقلق على الماضي، باحثًا دائمًا عن شيءٍ فشل في اكتشافه. عند الفجر، راقب ميلاد اليوم الجديد المتحوِّل الرائع بغرابة، وفي الليل جلس خارج المنزل المصنوع من القش، منتظرًا حتى فقدت الجبال على الجانب الآخر من النهر شكلَها وتلاشت في الظلام البنفسجي. كانت محادثته مع فون راجاشتين قد أزعجته. ودون أن يعرف السببَ بالتحديد، أراد عودته مرةً أخرى. الذكريات التي كانت قد توقَّفت منذ مدة طويلة عن تعذيبه كانت تجد طريقها مرةً أخرى إلى دماغه. في اليوم الأول سعى جاهدًا للتخلُّص منها بالطريقة المعتادة.

سأل: «أيها الطبيب، لديك بعض الويسكي، أليس كذلك؟»

أومأ الطبيب برأسه.

واعترف قائلًا: «هناك حقيبةٌ في مكانٍ ما.» وأضاف: «قال لي سيادته ألا أرفض لك طلبًا، لكنه ينصحك بشرْب النبيذ الأبيض فقط حتى عودته.»

«هل ترك تلك الرسالةَ حقًّا؟»

«بالضبط كما سلَّمتها.»

تلاشت الرغبةُ في الويسكي، وعادت مرةً أخرى، لكنه كبَحها، وعادت في الليل حتى إنه جلس منتصبًا والعَرقُ يتصبَّب على وجهه ولسانه جافٌّ. وشرب مياهًا معدِنيةً بدلًا منه. في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهيرة اليوم الثالث، دخل فون راجاشتين إلى المخيم على حِصانه. كانت ملابسه ممزَّقة ومبلَّلة بطين المستنقعات الأسود، وكان وجهه ملطَّخًا بالغبار والأوساخ. وكاد حصانه أن ينهار وهو يقفز من عليه. ومع ذلك، توقَّف لتحية ضيفه بلطفٍ شديد، كان ثَمة بريقٌ من الرضا الحقيقي في عينيه عندما تصافح الرجلان.

قال بحرارة: «أنا سعيد لأنك ما زلت هنا.» وتابع: «فلتعذرني حتى أغتسل وأغيِّر ملابسي. سوف نتناول العشاء في وقتٍ أبكرَ بقليل. فحتى الآن لم أتناولْ شيئًا اليوم.»

سأل دوميني بفضول: «هل كانت رحلة طويلة؟»

كان الرد الهادئ: «لقد سافرتُ بعيدًا.»

في وقت العشاء، عاد فون راجاشتين لطبيعته مرةً أخرى، مرتديًا ملابسَ بيضاء، من الكتان النظيف، حليق الذقن، ولم يتبقَّ على محيَّاه سوى قدرٍ قليل من التعب. ولكن كان ثمة شيءٌ مختلِف في أسلوبه؛ بعض التغيير الذي حيَّر دوميني. كان على الفور أكثرَ اهتمامًا بضيفه، لكنه كان أكثرَ انعزالًا عنه من حيث الروحُ والتعاطف. واصل التحدُّث بإصرارٍ فضولي عن أحداث أيام مدرستهما وكليَّتهما، وعن موضوع أصدقاء دوميني وعلاقاته، والوقائع اللاحقة في حياته. شعر دوميني طَوال الوقت بتشجيعٍ نابع من نفسه على التحدُّث عن حياته السابقة، وطوال الوقت كان يُدرك أن مضيفه، لسببٍ ما أو لآخر، كان يولي أقصى وأكبرَ اهتمام بأتفهِ كلمة يقولها. قُدِّمَت الشمبانيا بلا حدٍّ، وكان دوميني يتحدَّث بحماسٍ دون تحفُّظ، دون أن يقترب من ذلك السر الذي كان يودُّ إخفاءه. بعد انتهاء الوجبة، سحبا كرسيَّيهما كالسابق إلى الخلاء. قدَّم الخادمُ الصامت سيجارًا أكبرَ، ووجد دوميني كأسه ممتلئة مرةً أخرى بالبراندي الرائع. كان الطبيب قد تركهما لزيارة المخيم الأصلي على بُعد ربع ميل تقريبًا، وكان الخادم مشغولًا بالداخل، يُنظف الطاولة. بالكاد كان يمكن رؤية الخَدم وهم يحرِّكون مراوحهم — وفوقهم كانت النجوم المتلألئة. كانا وحدهما.

قال دوميني: «لقد تحدثتُ كثيرًا عن حماقاتي.» وأردف يسأل: «هلَّا أخبرتني قليلًا عن حياتك المهنية الآن، وحياتِك في ألمانيا قبل مجيئك إلى هنا؟»

لم يردَّ فون راجاشتين على الفور، وسرى بين الرجلين صمتٌ غريب. بين الحين والآخر كان نجمٌ يعبُر السماء. ارتفعت الحافة الحمراء للقمر إلى أعلى قليلًا من خلف الجبال. بدا

وكأنَّ سكون الأدغال، الذي كان دائمًا أكثرَ حالات الصمت غموضًا، أصبح مشحونًا تدريجيًّا بشغفٍ صامت. سرعان ما بدأت الحيوانات في إطلاق صيحاتها من حولهما، زاحفة مقتربة شيئًا فشيئًا من النار التي اشتعلت عند نهاية المنطقة المكشوفة.

أخيرًا، قال فون راجاشتين متحدِّثًا بأسلوبِ رجلٍ قضى الكثير من الوقت في التفكُّر: «صديقي، تُحدِّثني عن ألمانيا، عن وطني. ربما خمَّنتَ أنه ليس الواجبُ وحدَه هو الذي أوصلني إلى هذه الأماكنِ البرِّية. أنا أيضًا خَلَّفتُ ورائي مأساةً.»

كبح القمعُ الصارم الذي يكاد يكون قاسيًا لأسلوب الرجل الآخر اندفاعَ دوميني السريع للتعاطف. بدت الكلمات وكأنها تخرج مُنتزَعةً من حلْقه. لم تكن توجد أيُّ شرارة من الحنان أو النَّدم على وجهه الثابت.

تابع قائلًا: «منذ يوم نفيي، لم أنطِق بكلمة عن هذا الأمر. والليلةَ لا يُهاجمني الضَّعف، بل الرغبةُ في الاستسلام للتأثير الغريب للصدفة. فأنت وأنا زملاءُ دراسة وأصدقاءُ من الكلية، رغم أننا من بلدَين مختلفين، نلتقي هنا في البرِّية، وكلٌّ منَّا يشعُر بمرارةٍ داخله. سأخبرك بما حدث لي، وستتحدَّث إليَّ عن لعنتك.»

تأوَّه دوميني: «لا أستطيع!»

كان الردُّ الصارم: «لكنك ستفعل.» وأضاف: «أنصِت.»

ومرَّت ساعةٌ وتوقَّف صوتا الرَّجلين. انخفض عواء الحيوانات مع انطفاء النيران، وكان يمر عبر الشجيرات نسيمٌ بطيء وكئيب يضرِب سطح النهر. كان فون راجاشتين هو الذي اخترق ما كان يبدو وكأنه غشية. نهض واقفًا، واختفى داخل المنزل المصنوع من القش، وظهر مرةً أخرى بعد لحظة أو لحظتين حاملًا قدحَين. وضع أحدهما في المكان المخصَّص له في ذراع مقعد ضيفه.

وأعلن: «الليلة سأخالفُ ما صار إحدى قواعدي.» وأردف: «وسأشرب ويسكي وصودا. سأشرب نَخب الأشياء الجديدة التي قد تأتي لكلٍّ منَّا مستقبلًا.»

سأل دوميني بفضول: «هل تتخلَّى عن عملك هنا؟»

كان الردُّ المراوغ إلى حدٍّ ما: «أنا جزء من نظام عظيم.» وأضاف: «لا أملِك سوى الطاعة.»

شوَّه وجهَ دوميني وميضٌ من العاطفة، الذي توهَّج لحظةً في نبرة صوته.

وسأل: «هل أنت راضٍ بالعيش والموت على هذا النحو؟» وتابع: «ألا تريد العودة إلى حيث سيُدفئ قلبَك ويملأ نبضاتِك شمسٌ مختلفة؟ هذا العالم البدائي هائل بطريقته

الخاصة، لكنه ليس بشريًّا، وهذه ليست حياةً يعيشها البشر. نريد شوارع، يا فون راجاشتين، أنت وأنا. نريد أن نرى أناسًا يسيرون حولنا، نريد أن نسمعَ هدير العجلات وهمهمة أصوات البشر. اللعنة على هذه الحيوانات! لو عشتُ في هذا البلد مدةً أطول، فسأمشي على أربع.»

علَّق رفيقه: «أنت تستسلم كثيرًا للبيئة المحيطة.» وأردف: «ستكون عاطفيًّا لو عشتَ في المدينة.»

تنهَّد دوميني قائلًا: «لن تعترف بي أيُّ مدينة أو أيُّ بلد متحضِّر مرةً أخرى.» وتابع: «ولن أمتلك مطلقًا الشجاعةَ لمواجهةِ ما قد يحدث.»

نهض فون راجاشتين واقفًا. كانت الصورة القاتمة لقامته المنتصبة مهيبةً بطريقةٍ ما. بدا وكأنه طويل جدًّا بالمقارنة بالرجل الذي كان يستلقي على الكرسي أمامه.

وقال متوسِّلًا: «أنْهِ الويسكي والصودا حتى لقائنا القادم، يا صديقَ أيامِ الدراسة.» وأضاف: «غدًا، قبل أن تستيقظ، سأكون قد رحلتُ.»

«بهذه السرعة؟»

أجاب فون راجاشتين: «بحلول ليلة الغد، يجب أن أكون على الجانب الآخَر من تلك الجبال. لهذا يجب أن أودعك.»

كان دوميني متبرِّمًا، ويكاد يكون مثيرًا للشفقة. شعرَ بكراهية مفاجئة للوحدة.

احتجَّ قائلًا: «أنا أيضًا يجب أن أسافر مباشرةً نحو الغرب أو الشرق أو الشمال — لا يُهم كثيرًا. ألا يمكننا السفر معًا؟»

هزَّ فون راجاشتين رأسه نفيًا.

وأجاب: «أنا أسافر بصفةٍ رسمية، ويجب أن أسافر بمفردي. أما فيما يتعلق بك، فسيُغادرون من هنا غدًا، لكنهم سيقدِّمون لك مرافقًا ويوجِّهونك للاتجاه الذي ترغب في أن تسلُكه. هذا، للأسف، أقصى ما يُمكنني فعله من أجلك. بالنسبة إلينا، هذا وداعٌ بيننا.»

قال دوميني ببعض الحزن: «حسنًا، لا يمكنني أن أفرض نفسي عليك.» وتابع: «يبدو غريبًا، رغم ذلك، أن نلتقيَ هنا، بعيدًا حتى عن طرق الحياة الفرعية، لمجردِ أن نتصافح ونمضيَ قُدُمًا. لقد سئمتُ إلى أقصى حدٍّ من الزنوج والحيوانات.»

قرَّر فون راجاشتين: «إنه القدَر.» وأضاف: «حيثما أنا ذاهب، يجب أن أذهب وحدي. الوداع يا صديقي العزيز! سنشرب النَّخب الذي شربناه في ليلتنا الأخيرة في جَناحك في مجدلين. ذلك الرجل السنسكريتي ترجمها لنا: «فليجدْ كلُّ واحدٍ ما يسعى إليه!» يجب أن نتبع أقدارنا.»

ضحِك دوميني بقليل من المرارة. وأشار إلى ضوءٍ يتوهَّج متقطعًا في الدَّغَل.

تمتم باستهتار: «سرابي يقودني إلى حيثما يجب أن أتبعه — إلى المستنقعات!»

بعد بضعِ دقائق ألقى دوميني بنفسه على أريكته، وهو يشعر بالنُّعاس على نحوٍ غريبٍ وغير مفهوم. وقف فون راجاشتين، الذي كان قد جاء ليتمنَّى له ليلةً سعيدة، ينظر إليه عدة لحظات باهتمام كبير. بعد ذلك، بعدما اقتنع بأن ضيفه نام حقًّا، استدار ومرَّ عبر ستارة الأعشاب الجافة المعلَّقة إلى المنزل التالي المصنوع من القش، حيث كان الطبيب، الذي كان لا يزال يرتدي كاملَ ملابسه، في انتظاره. تحدَّثا معًا باللغة الألمانية وبأصواتٍ منخفضة. كان فون راجاشتين قد فقدَ بعضًا من رِباطة جأشه.

وسأل: «هل يسير كلُّ شيء وفقًا لأوامري؟»

«كل شيء، معاليك! يتم تحميل الصبيان، وذهب مبعوثٌ إلى وديهوان لتجهيز الخيول.»

«هل يعرفون أنني أرغبُ في التحرُّك عند الفجر؟»

«الجميع سيكون جاهزًا، معاليك.»

وضع فون راجاشتين يدَه على كتفِ الطبيب.

وقال: «تعالَ إلى الخارج، شميدت.» وأضاف: «لديَّ شيء أودُّ أن أخبرك به عن خططي.»

جلس الرجلان على الكرسيَّين الطويلين من الخيزران، وكان الطبيب في حالة انتباه شديد. أدار فون راجاشتين رأسه وأنصت. جاء من مسكن دوميني صوتُ تنفُّس عميق ومنتظم.

تابع فون راجاشتين: «لقد وضعتُ خطةً رائعةً، يا شميدت. هل تعلم أيَّ أخبار وصلتني من برلين؟»

ذكَّره الطبيب: «معاليك لم تُخبرني إلا القليل.»

قال فون راجاشتين وصوته يرتجف بانفعالٍ شديد: «لقد حان اليوم.» توقَّف لحظةً مفكِّرًا وتابع: «الوقت، حتى الشهر، تم تحديده. استُدعيتُ من هنا لأتولَّى المكانَ الذي كان مقدَّرًا لي. هل تعرفُ ما هذا المكان؟ هل تعرف لماذا أُرسِلتُ إلى مدرسة وكليَّة إنجليزيتَين حكوميتَين؟»

«أستطيع أن أخمِّن.»

«سأقيم في إنجلترا. لديَّ مهمة خاصة. سوف أجد لي مكانًا هناك بوصفي إنجليزيًّا. الوسائل متروكة لابتكاري. اسمع، يا شميدت. لقد خطرتْ لي فكرةٌ رائعة.»

أشعل الطبيب سيجارًا.

«كلي آذان مصغية، يا صاحب المعالي.»

نهض فون راجاشتين واقفًا. غيرَ قانع بصوت ذلك التنفُّس المنتظم، مضى إلى مدخل المنزل المصنوع من القش وحدَّق في جسد دوميني النائم. ثم عاد.

سأل الطبيب: «هل هذا شيء لا ترغب في أن يسمعه الإنجليزي؟»

«نعم.»

«نحن نتحدَّث باللغة الألمانية.»

كان الردُّ الحذِر: «يُصادَف أن الإنجاز الوحيد لهذا الرجل هو اللغات. فبإمكانه التحدُّثُ باللغة الألمانية بطلاقةٍ مثلك ومثلي. ومع ذلك، هذا ليس ذا أهمية. إنه نائم وسيستمر في النوم. لقد خلطتُ له منوِّمًا مع الويسكي والصودا.»

قال الطبيب بصوتٍ منخفض: «آه!»

أوضح فون راجاشتين: «حاجتي الأساسية في إنجلترا هي الهوية.» وتابع: «لقد اتخذتُ قراري. سوف آخذ هُوية هذا الإنجليزي. وسأعود إلى إنجلترا بصفتي السير إيفرارد دوميني.»

«هكذا إذن!»

«ثمَّة تشابه ملحوظ بيننا، ودوميني لم يرَ رجلًا إنجليزيًّا يعرفه منذ ثماني أو عشْر سنوات. سوف أكون قادرًا على إقناع أيِّ أصدقاء من المدرسة أو الكلية قد ألتقي بهم. لقد أقمتُ عند دوميني. وأعرف أقاربَ دوميني. كان يُثرثر الليلة لساعات، وأخبرني بأشياءَ كثيرةٍ من الجيد لي أن أعرفَها.»

«وماذا عن أقربائه المقرَّبين؟»

«ليس لديه مَن هو أقرب من أبناء عمومته.»

«أليس متزوجًا؟»

توقَّف فون راجاشتين وأدار رأسه. كان التنفُّس العميق داخل المنزل المصنوع من القش قد توقَّف بالتأكيد. نهض واقفًا، وتسلَّل بقلق حتى المدخل، وحدَّق في جسد ضيفه الممدَّد. بحسب كل الدلائل، كان دوميني لا يزال نائمًا بعمق. بعد دقيقة أو اثنتين من المراقبة، عاد فون راجاشتين إلى مكانه.

قال وهو يخفِض صوتَه قليلًا ليكشف السرَّ: «هنا تكمُن مأساته.» تابع: «إنها مجنونة ... مجنونة، على ما يبدو، بسبب صدمةٍ هو مسئولٌ عنها. ربما كانت هي العقَبة الوحيدة، ولكنها لا تُمثل أيَّ خطورة.»

غمغم الطبيبُ بحماس: «إنها خطة عظيمة.»

«إنها رائعة! لا بد أن تلك القوة العظيمة والخفية، يا شميدت، التي ترعى بلادَنا وستجعلها سيدةَ العالم، هي التي قادت هذا الرجل إلينا. سيكون موقعي في إنجلترا فريدًا. وبصفتي السير إيفرارد دوميني، سأكون قادرًا على التغلغل في الدوائر الداخلية للمجتمع — ربما، حتى، للحياة السياسية. سأكون قادرًا، إذا لزم الأمر، على البقاء في إنجلترا حتى بعد انطلاق العاصفة.»

اقترح الطبيب: «لنفترضْ أن هذا الرجل دوميني عاد إلى إنجلترا؟»

أدار فون راجاشتين رأسَه ونظر نحو السائل.

وقال: «يجب ألا يفعل.»

غمغم الطبيب: «هكذا!»

في وقتٍ متأخر من بعد ظهر اليوم التالي، اتَّجه دوميني، مع اثنين من الصِّبية لمرافقته وبندقيته معلقةٌ على كتفه، نحو الأدغال في الطريق الذي كان قد جاء منه. ووقف الطبيب السمين القصير وراقبه وهو يُلوِّح بقبَّعته حتى غاب عن الأنظار. ثم دعا الخادم.

وقال: «هاينريش، هل أنت متأكد من أن الرجل الإنجليزي معه الويسكي؟»

أجاب الرجل: «زجاجات المياه غير مملوءة بأي شيء آخر، أيها السيد الطبيب.»

«ألا يوجد ماء أو صودا في الحقيبة؟»

«ولا قطرة أيها السيد الطبيب.»

«ما مقدارُ الطعام؟»

«حصصُ يوم واحد.»

«واللحم البقري مالح؟»

«مالحٌ للغاية أيها السيد الطبيب.»

«والبوصلة؟»

«غير مضبوطة بمقدار عشْر درجات.»

«هل تلقَّى الصبيَّان الأوامر؟»

«يفهمان بوضوح، أيها السيد الطبيب. إذا لم يشرب الإنجليزي، فسيأخذونه في منتصف الليل إلى حيث سيُخيِّم معاليه عند منحنى النهر الأزرق.»

تنهَّد الطبيب. لم يكن رجلًا قاسيَ القلب.

تمتم قائلًا: «أظن أنه سيكون من الأفضل للإنجليزي أن يشرب.»

الفصل الثالث

حدَّق السيد جون لامبرت مانجان من جمعية لينكولن للمحامين في البطاقة التي كان قد قدَّمها له للتو موظفٌ صغير بدهشةٍ مشدوهة، سرعان ما امتزجتْ بفزع.

وصاح قائلًا، وهو يمرِّرها إلى مديره الذي كان يتشاور معه: «يا إلهي، هل ترى هذا يا هاريسون؟» وتابع: «دوميني — السير إيفرارد دوميني — عاد إلى هنا في إنجلترا!»

نظر كبيرُ الموظَّفين إلى قطعة الورق المقوَّى الصغيرة وتنهَّد.

وعلَّق قائلًا: «أخشى أنك ستجده عميلًا مزعجًا، يا سيدي.»

عبَس صاحب العمل. وأجاب بحدَّة: «بالطبع سيكون كذلك.» وأضاف: «لا يوجد فلس إضافي يمكن الحصول عليه من الممتلكات — أنت تعرف ذلك، يا هاريسون. إن حصة الرُّبعين الأخيرَين التي أرسلناها إلى أفريقيا جاءت من الأشجار. لماذا بحق الجحيم لم يبقَ حيث كان؟!»

سأل الفتى: «ماذا أقول للسيد المحترم، يا سيدي؟»

أمره السيد مانجان بغضب: «أوه، دعْه يدخل!» وأردف: «أفترض أنني سأُضطرُّ إلى رؤيته عاجلًا أو آجلًا. سأنهي هذه الإقرارات بعد الغَداء، يا هاريسون.»

سيطر المحامي على ملامحه للترحيب بالعميل الذي، مهما كانت شئونه مزعجة، كان لا يزال يُمثِّل عائلةً كانت من الموكلين المهمِّين للشركة لعدة أجيال. وكان يستعد لتحيةِ شخصٍ رثِّ المظهر ومنحلٍّ، يبدو أكبرَ من سنِّه. وبدلًا من ذلك، وجد نفسه يمدُّ يده إلى واحدٍ من أوسم الرجال الذين تخطَّوا عتبة مكتبه غيرِ الجذَّاب وأكثرِهم أناقة. للحظةٍ حدَّق في زائره، عاجزًا عن الكلام. ثم ظهرتْ بعض الملامح المألوفة؛ الأنف ذو الشكل الجيد،

والعينان الرماديتان العميقتان إلى حدٍّ ما. مكَّنته هذه المفاجأة من إضفاء القليل من الحماسة الحقيقية على ترحيبه.

صاح: «عزيزي السير إيفرارد! هذه مفاجأة سارة غيرُ متوقَّعة على الإطلاق — غير متوقعةٍ على الإطلاق! من المؤسف أيضًا أننا أرسلنا بالبريد شيكًا بحصَّتك قبل بضعة أيام فقط. يا إلهي، اعذرني على قولِ هذا ... كم تبدو بحال جيدة!»

ابتسم دوميني وهو يجلس على أحد المقاعد المريحة.

علَّق وفي نبرة صوته ملاحظةٌ خافتة من موكِّل أعادت مستمعَه إلى أيام والدِ عميله الحالي: «أفريقيا بلد رائع، يا مانجان.»

«إنها — فلتعذر ملاحظتي — قد فعلت أشياءَ رائعة لك، يا سير إيفرارد. دعني أرَ، لا بد أنه قد مرَّ أحدَ عشر عامًا منذ التقينا.»

نقر السير إيفرارد الطرَفَ الأمامي لحذائه البني الملمَّع بعنايةٍ بطرَف عصا المشي الخاصة به.

وغمغم محاولًا التذكُّر: «غادرتُ لندن، في أبريل، عام ألفٍ وتسعمائة واثنين. نعم، أحد عشر عامًا، يا سيد مانجان. أعتقد أنه شيء غريب أن أجد نفسي في لندن مرةً أخرى، كما أظن أنك تفهم، أليس كذلك؟»

غمغم المحامي: «بالضبط.» وأضاف: «كنت أتساءل فقط — أظن أنه يمكن إيقاف آخر حوالة نقدية أرسلناها إليك»، وأضاف بابتسامةٍ واثقة: «ليس لديَّ شك في أنك ستكون سعيدًا بقليل من المال المتوفر.»

كانت الإجابة المذهلة: «شكرًا، لا أظن أنني بحاجة إلى أيِّ شيء في الوقت الحالي.» وتابع: «سنتحدَّث في الشئون المالية لاحقًا.»

قرص السيد مانجان نفسَه مَجازيًّا. لقد كان يعرف موكلَه الحاليَّ حتى خلال أيام دراسته، وتلقَّى زياراتٍ كثيرةً منه في أوقاتٍ مختلفة، ولا يمكنه تذكُّرُ مرةٍ واحدة رفض فيها موضوع التمويل بهذه الطريقة اللامبالية جدًّا.

علَّق من أجل أن يقول شيئًا ما على وجه الخصوص: «أعتقد أنك تُفكِّر في الاستقرار هنا لبعض الوقت الآن، أليس كذلك؟»

كان الرد الجادُّ إلى حدٍّ ما: «لقد اكتفيتُ من أفريقيا، إن كان ذلك ما تعنيه.» وأضاف: «فيما يتعلَّق بالاستقرار هنا، حسنًا، هذا يعتمد قليلًا على ما ستخبرني به.»

أومأ المحامي برأسه.

وقال: «أظن أنه يمكنك أن تُريح نفسك تمامًا فيما يتعلَّق بمسألة روجر أنثانك. لم يُسْمَع عنه أيُّ شيء منذ اليوم الذي غادرتَ فيه إنجلترا.»

«ألم يُعثَر على جثته؟»

«ولا أي أثر لها.»

ساد صمتٌ قصير. نظر المحامي بتمعُّن إلى دوميني، ونظر له دوميني بتفحُّص بدوره.

سأل الأول أخيرًا: «وماذا عن الليدي دوميني؟»

كان الردُّ الحذِر إلى حدٍّ ما: «حالة سيادتها، كما أعتقد، لم تتغيَّر.»

تابع دوميني بعد توقُّف للحظة أخرى: «إذا كانت الظروف مواتية، أظن أنه من المحتمل جدًّا أن أقرِّر الاستقرارَ في قصر دوميني.»

بدا المحامي متشككًا.

وقال: «أخشى أن تُصاب بخيبةِ أمل كبيرة بسبب حالة الممتلكات، يا سير إيفرارد. كما أخبرتك مرارًا وتكرارًا في مراسلاتنا، فإن قائمة الإيجار، بعد خصم التسوية الخاصة بالليدي دوميني، لم تصل في أيِّ وقت إلى الفائدة على الرهون العقارية، وكان علينا تعويضُ الفرْق وإرسال حصتك إليك من عائدات الأشجار البعيدة.»

أجاب دوميني بعبوس: «هذا أمر مؤسف. ربما كان عليَّ أن أثِقَ بك أكثر.» وأضاف: «بالمناسبة متى تلقيتَ رسالتي الأخيرة؟»

كرَّر السيد مانجان: «رسالتك الأخيرة؟ لم نحظَ بشرفِ سماع أخبارك، يا سير إيفرارد، منذ أكثر من أربع سنوات. كان الإشعار الوحيد الذي تلقَّيناه بأن مدفوعاتنا قد وصلت إليك هو القيد المَدين الذي وصلَنا بسرعة كبيرة جدًّا من بنك جنوب أفريقيا.»

اعترف هذا الزائر غيرُ المتوقَّع قائلًا: «بالتأكيد يقع اللوم عليَّ.» وأضاف: «من ناحية أخرى، كنت مشغولًا جدًّا. إذا لم يتصادف أن تكون قد سمعتَ أيَّ أقاويل من جنوب أفريقيا مؤخرًا، يا مانجان، أظن أنها ستكون مفاجأةً لك أن تعرف أنني كنت أجني قدرًا كبيرًا من المال.»

شهق المحامي: «تجني المال؟ أنت تجني المال يا سير إيفرارد؟»

علَّق دوميني بهدوء: «تصورتُ أنك ستندهش.» وتابع: «ومع ذلك، هذا ليس موضوعنا. الهدف الفِعلي من زيارتي لك هذا الصباح هو أن أطلب منك اتخاذَ الترتيبات اللازمة في أسرعِ وقتٍ ممكن لسداد الرهون العقارية الخاصة بممتلكات دوميني.»

كان السيد مانجان محاميًا من المدرسة الحديثة، هارو وكامبريدج، ونادي باث كلوب، ولعبة الراكيت بالمضرب واليد، بدلًا من الذهب والتنس في الحديقة. وبدلًا من قول «يا إلهي!»

هتف «اللعنة!» وألقى نظَّارةً أحاديةً عصريةً للغاية من على عينه اليسرى، ومال إلى الخلف في كرسيِّه ويداه في جيبَيه.

تابع موكله: «لقد حظيتُ بثلاث أو أربع سنوات من الحظ السعيد. وجنيتُ أموالًا من مناجم الذهب، ومناجم الماس، والأراضي. أخشى أنني إذا بقيتُ في الخارج لمدة عام آخر، كنتُ سأتدهور تمامًا للمألوف وأعود مليونيرًا.»

غمغم السيد مانجان: «أهنِّئك من كل قلبي!» وأضاف: «فلتعذرني على اندهاشي الشديد، لكنك أولُ دوميني عرَفته على الإطلاق جنى فلسًا واحدًا من المال بأي شكل من الأشكال، ومما أتذكَّره عنك في إنجلترا — وأنا متأكِّد من أنك ستعذر صراحتي — لم أكن أتوقَّع مطلقًا أنك حاولتَ فعل شيء من هذا القبيل.»

ابتسم دوميني بمرح.

وقال: «حسنًا، إذا استفسرتَ من البنك المتحد الأفريقي، فستجد أن لديَّ رصيدًا ائتمانيًّا يزيد عن مائة ألف جنيه إسترليني. ولديَّ أيضًا مبلغٌ يزيد عن ذلك بقليل، مستثمَرٌ في مناجمَ من الدرجة الأولى. هلا تُسدي إليَّ معروفًا وتتفضَّل بتناول الغداء معي، يا سيد مانجان، وعلى الرغم من أن أفريقيا لن تكون أبدًا موضوعًا مفضَّلًا للمحادثة معي، إلا أنني سأخبرك ببعض مضارباتي.»

بحثَ المحامي عن قبَّعته.

وقال متلعثمًا: «سأرسل الصبيَّ للإتيان بسيارة أجرة.»

قال له هذا العميل المذهل: «لديَّ سيارةٌ بالخارج.» وتابع يسأل: «قبل أن نُغادر، هل يمكنك إصدارُ تعليمات لموظفك بإعداد قائمةٍ بالرهون العقارية الخاصة بممتلكات دوميني، مزودة بالتواريخ النهائية وقيم الاسترداد؟»

وعده السيد مانجان قائلًا: «سأترك تعليمات بهذا.» وأضاف: «أظن أن المبلغ الإجمالي أقلُّ من ثمانين ألف جنيه.»

كان دوميني يتجوَّل في المكتب، مما أثار قدْرًا كبيرًا من اهتمامِ طاقمِ الموظفين قليلِ العدد. انضم إليه المحامي على الرصيف خلال دقائق.

سأل دوميني: «أين سنتناول الغداء؟ أخشى أن أنديتي أصبحت قديمةً بعض الشيء. أنا أقيم في فندق كارلتون.»

قال السيد مانجان مقترحًا: «مطعم المشويات في كارلتون ممتاز للغاية.»

أجاب دوميني: «إنهم يحتفظون لي بطاولةٍ حتى الساعة الواحدة والنصف.» وأردف: «بالتأكيد يمكننا تناول الغداء هناك.»

انطلقا معًا في السيارة، وكان المسافر العائد يحدِّق طوال الوقت من النافذة إلى الشوارع المزدحمة، وكان المحامي غارقًا في أفكاره بعض الشيء.

قال الأخير، بينما كانا يقتربان من وجهتهما: «قبل أن أنسى، سير إيفرارد.» أضاف: «سيُسعدني أن أحظى بمحادثةٍ قصيرة معك قبل أن تنزلَ إلى مقرِّ إقامتك.»

«بشأن شيء محدَّد؟»

قال له المحامي ببعض الجدية: «بشأن الليدي دوميني.»

حلَّ وجومٌ على وجه رفيقه.

«هل تغيرَت سيادتها كثيرًا؟»

«جسديًّا، هي بصحة ممتازة، على ما أعتقد. عقليًّا، أعتقد أنه لا يوجد تغيير. لديها للأسف التحاملُ العنيف نفسُه الذي أخشى أنه كان من أثره مغادرتُك إنجلترا.»

قال دوميني بمرارة: «ببساطة، لقد أقسمَت أن تقتلني إذا نمتُ يومًا ما معها تحت سقفٍ واحد.»

أجاب المحامي على نحوٍ مراوغ: «أخشى أنه سيلزمها أن تخضع لمراقبةٍ صارمة.» وأضاف: «ومع ذلك، أظن أنه يجب إخبارك أن الوقت لا يبدو أنه قلَّل من كراهيتها المفجعة.»

سأل دوميني بنبرة موزونة: «هل ما زالت تعتبرني قاتِلَ روجر أنثانك؟»

«أخشى أنها تعتبرك كذلك.»

«وأظن أن الآخرين لديهم الفكرة نفسُها؟»

اعترف السيد مانجان: «لم يُحَلَّ اللغز قط. من المعروف، كما تعلم، أنكما تشاجرتما في الحديقة وأنك عُدت إلى المنزل مترنحًا تكاد تكون فاقدَ الوعي. ولم يرَ أحدٌ روجر أنثانك منذ ذلك اليوم.»

أشار دوميني: «لو كنتُ قد قتلتُه، فلماذا لم يُعثَر على جثته؟»

هزَّ المحامي رأسه.

وقال: «كل أنواع النظريات موجودة، بالطبع، ولكن إحدى الخرافات تقول إنك ربما كنت مستعدًّا استعدادًا جيدًا. بالكاد يوجد رجل أو امرأة على بُعد أميال حول قصر دوميني لا يعتقد أن شبح روجر أنثانك لا يزال يُلازم الغابة السوداء بالقرب من المكان الذي تشاجرتما فيه.»

أصرَّ دوميني: «دعنا نكُنْ واضحَين تمامًا بشأن هذا.» وتابع يسأل: «إذا عُثِرَ على الجثة، فهل سأُتَّهم، بعد كل هذه السنوات، بالقتل غير العمد؟»

أكَّد له المحامي: «أظن أنه يمكنك أن تُريح عقلك تمامًا. أولًا، لا أظن أنه سيُوجَّه إليك اتهامٌ مطلقًا.»

«وثانيًا؟»

«لا يوجد إنسان في ذلك الجزء من نورفولك يعتقد أنه يمكن رؤية أو سماع جسد إنسان أو حيوان مرةً أخرى، إذا تُرِكَ في ظُلمة الغابة السوداء!»

الفصل الرابع

تأخَّر السيد مانجان، في طريقهما إلى مطعم المشويات، بضعَ دقائق في غرفة الاستقبال الصغيرة، حيث كان يتحدَّث مع بعض معارفه، بينما ظلَّ مضيفه، بعد أن تحدَّث إلى كبير الخدم وطلب كوكتيلًا من نادلٍ عابر، واقفًا ويداه خلف ظهره، يُراقب تدفُّق الرجال والنساء بكلِّ هذا الاهتمام الذي من المفترض أن يشعر به المرءُ تجاه زملائه بعد غياب طويل. كان قد تحرَّك قليلًا إلى أحد الجوانب للسماح لمجموعةٍ من الشباب أن يشقُّوا طريقهم عبر الغرفة المزدحمة، عندما رأى امرأةً تقف بمفردها أعلى السلالم الثلاثة المفروشة بالسجاد السميك. التقت عيناهما، وعلى الفور بدَت الحماسة من عينيها، التي كانت تتجوَّل في أرجاء الغرفة كما لو كانت تبحث عن أحد معارفها. للمتسكعين القليلين حول الغرفة، الذين يجهلون أيَّ أهمية خاصة لذلك التأمُّل المدروس من المرأة للرجل، قدَّمت شخصيتاهما نموذجًا مقبولًا، يكاد يكون رائعًا. كان طول دوميني ستة أقدام وبوصتين، وكان يتمتَّع إلى أقصى حدٍّ بالتميز الطبيعي لطبقته، جنبًا إلى جنب مع وِقفته العسكرية الرياضية التي يبدو أنه قد استعادها على نحوٍ مدهش. اكتسبَت بشرته سُمرةً ملائمة، وكان شاربه الخفيف، المشذَّب على نحوٍ قريب جدًّا من الشفة العليا، ذا لون بُنيٍّ مائل إلى الحمرة مثل شعره المصفَّف اللامع. وكانت المرأة، التي كانت قد بدأت حينئذٍ في التحرُّك ببطءٍ نحوه، تتمتَّع باللون ذاتِه، باستثناء أن خدَّيها، في تلك اللحظة، على أي حال، كانا شاحبين شحوبًا غير طبيعي. ولمع شعرها الأحمر الذهبي تحت قبَّعتها السوداء. كانت طويلة، ذات قوام إغريقي، ضخمة دون أن تكون غليظة، مَهيبة رغم صِغَر سنِّها. وكانت تحمل كلبًا صغيرًا تحت إحدى ذراعَيها، وحقيبةً من الحرير الأسود عليها إكليل من البلاتين والألماس، في اليد الأخرى. انحنى كبير الخدم الذي ترأَّس الغرفة بكِياسةٍ أكثرَ من المعتاد، وهو يراقب اقترابها. ومع ذلك، كانت

عيناها لا تزالان مثبتتَين على الشخص الذي استحوذ على قدرٍ كبير من انتباهها. اتجهت نحوه، وشفتاها متباعدتان قليلًا.

قالت متلعثمة: «ليوبولد!» وتابعت: «بحق القديسين، لماذا لم تخبرني!»

انحنى دوميني قليلًا جدًّا. بدت كلماته مقتضبة وجافة.

أجاب: «أنا آسفٌ للغاية، لكني أخشى أنك مخطئة. اسمي ليس ليوبولد.»

وقفت هادئة تمامًا، تنظر إليه وكأنها لم تسمع كلمةً من نفيه المهذَّب.

تمتمَت: «في لندن، من بين كل الأماكن.» وأردفت تسأل: «قل لي، ماذا يعني هذا؟»

قال: «لا يسَعُني إلا أن أكرِّر، يا سيدتي، إنه للأسف الشديد لم يسبق لي أن حظيتُ بشرف معرفتكِ.»

كانت في حيرة، لكنها غيرُ مقتنعة على الإطلاق.

سألت بشكٍّ: «هل تقصد أن تُنكر أنك ليوبولد فون راجاشتين؟» وتابعت: «ألا تعرفني؟»

أجاب: «للأسف يا سيدتي. اسمي دوميني — إيفرارد دوميني.»

بدت للحظة كأنها تُحاول التغلُّب على بعض الإحراج الذي اقترب من الانفعال. ثم وضعَت أصابعها على كمِّه وجذبته إلى ركنٍ منعزل في الغرفة الصغيرة.

وهمست: «ليوبولد، لا شيء يمكن أن يجعل زيارتك لي أمرًا خاطئًا أو طائشًا. عنواني هو ١٧ ميدان بلجريف. أرغب في رؤيتك الليلة في الساعة السابعة.»

قال دوميني: «لكن، سيدتي العزيزة ...»

التمعت عيناها فجأةً ببريق جديد.

وأصرَّت: «لا يمكنك العبثُ معي.» وأضافت: «إذا كنت ترغب في النجاح في مخططك أيًّا كان، يجب ألا تجعلني عدوةً لك. سأنتظر مجيئك في الساعة السابعة.»

وتركته وتوجَّهت إلى المطعم. انضم السيد مانجان، الذي تحرَّر حينئذٍ من أصدقائه، مرةً أخرى إلى مضيفه، وأخذ الرجلان مكانَهما على الطاولة الجانبية التي أُرشِدا إليها بدلائلَ كثيرةٍ على الاهتمام.

سأل المحامي بفضول: «ألم تكن هذه الأميرة إيدرستروم التي كنتَ تتحدَّث معها؟»

أوضح دوميني: «سيدة خاطبتْني بالخطأ. خلطتْ، بطريقةٍ غريبة جدًّا، بيني وبين رجلٍ كان يُطلَق عليه شبيهي في أكسفورد. كان اسمه في ذلك الوقت سيجيسموند ديفينتر، على الرغم من أنني أعتقد أنه نال لقبًا لاحقًا.»

علَّق السيد مانجان: «الأميرة شخصية مشهورة جدًّا، وواحدة من أغنى الأرامل في أوروبا. قُتِل زوجها في مبارزةٍ منذ نحو ستٍّ أو سبع سنوات.»

طلب دوميني الغداء بعناية، مستخدمًا كلمة أو اثنتين بالألمانية مرة واحدة لمساعدة النادل، الذي كان يتحدَّث الإنجليزية بصعوبة. ابتسم رفيقه.

«أرى أنك لم تنسَ لُغاتك هناك في البرِّية.»

أجاب دوميني: «لم تُتَح لي الفرصة.» وأضاف: «أمضيت خمس سنوات على حدود شرق أفريقيا الألمانية، وعمِلت بالتجارة مع بعض الأشخاص هناك بانتظام.»

تساءل السيد مانجان: «بالمناسبة، ما وضعنا مع الألمان هناك؟»

كان الرد اللامبالي: «ممتاز، على ما أظن. لم أواجه أيَّ مشكلة.»

تابع المحامي: «بالطبع، سيكون كلُّ هذا جديدًا عليك، ولكن خلال السنوات القليلة الماضية انقسم الإنجليز إلى فئتين؛ الأشخاص الذين يعتقدون أن الألمان يرغبون في خوض الحرب وسحقِنا، وأولئك الذين لا يعتقدون ذلك.»

«إذن، منذ عودتي، زاد عدد الذين لا يعتقدون ذلك بمقدار واحد.»

علَّق السيد مانجان: «أنا شخصيًّا من بين المشككين. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكنني رؤيةُ ما تريده ألمانيا بمثلِ هذا الجيش الضخم، ولماذا تضيف باستمرار إلى أسطولها.»

توقَّف دوميني لحظةً لمناقشة مسألة المرق مع رئيس النادلين. لكنه عاد إلى الموضوع بعد بضع دقائق.

وأوضح: «بالطبع، لا يمكن أن تأتيَ آرائي إلا من دراسة الصحف ومن المحادثات مع الألمان الذين قابلتُهم في أفريقيا، ولكن فيما يتعلَّق بجيشها، كان ينبغي أن أقول إن روسيا وفرنسا مسئولتان عن ذلك، وكلما زادت قوَّتها، قلَّ احتمال احتدام صراعٍ أوروبي. قد تتوصَّل روسيا في أيِّ وقت إلى نتيجةٍ مفادُها أن الحرب هي خلاصها الوحيد في مواجهةِ ثورة، وأنت تعرف الشعور في فرنسا حول منطقة الألزاس واللورين جيدًا مثلما أعرفه. يقول الألمان أنفسهم إن ثمة اهتمامًا أكبرَ بالشئون العسكرية وإحرازِ المزيد من التقدُّم في روسيا اليوم أكثرَ من أيِّ وقت مضى.»

وافق السيد مانجان قائلًا: «ليس لدي شكٌّ في أنك على حق.» وتابع: «ومع ذلك فهي مسألة تجري مناقشتها كثيرًا الآن. دعنا نتحدَّث عن خُططك الشخصية. مثلًا، ماذا تنوي أن تفعل في الأسابيع القليلة القادمة؟ هل زرتَ أيًّا من أقاربك بعد؟»

أجاب دوميني: «لا أحد.» وأردف: «يؤسفني القول إنني لستُ حريصًا على الإطلاق على التواصل معهم.»

سعَل السيد مانجان. وقال: «يجب أن تتذكَّر أنه خلال مدة إقامتك الأخيرة في لندن، كنتَ في حالةِ فقر مُدقِع. ولا شكَّ في أن ذلك أثَّر نوعًا ما على موقفِ بعض أولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا أكثرَ وديةً لولا ذلك.»

صرَّح دوميني بصراحة تامَّة: «سأكون راضيًا تمامًا عن عدم رؤية أحدهم مرةً أخرى مطلقًا.»

احتجَّ المحامي: «ذلك، بالطبع، مستحيل. يجب أن تذهب وترى الدوقة، على أي حال. فقد كانت دائمًا نصيرة لك.»

اعترف دوميني بشك: «كانت الدوقة دائمًا لطيفة جدًّا معي، لكنني أخشى أنها سئمتْ مني قبل أن أغادر إنجلترا.»

ابتسم السيد مانجان. كان يستمتعُ بغداء ممتاز للغاية، وبدا من الصعب تصديقُ أن مَن طلبه هو رجلٌ عاد للتو إلى موطنه من براري أفريقيا، وكان يستمتع تمامًا بالحديث عن الدوقات.

استهلَّ حديثه قائلًا: «نيافتها ...»

«ماذا؟»

توقَّف المحامي وعيناه مثبتتان على الزوجَين على طاولة مجاورة. مال على الطاولة نحو رفيقه.

«الدوقة بنفسها، يا سير إيفرارد، خلفك مباشرة مع اللورد سان أومار.»

أعربَ دوميني، وهو يمدُّ يده مصافحًا رجلًا كان قد اقترب من طاولتهما: «هذا المكان هو بالتأكيد مُلتقى العالم بأسْرِه.» وتابع قائلًا: «سيمان، صديقي، مرحبًا! اسمح لي أن أقدِّم لك صديقي والمستشار القانوني، السيد مانجان — سيد سيمان.»

كان السيد سيمان رجلًا قصيرًا بدينًا، يرتدي ملابسَ صباحية أنيقة تقليدية للغاية. كان أصلعَ تقريبًا، باستثناء خُصلٍ صغيرة على كلا الجانبين، وقليلٍ من الشعر الطويل الفاتح المُصَفَّفِ بعنايةٍ للخلف على فروة رأسه اللامعة. كان وجهه مستديرًا على نحوٍ غير عادي باستثناء ذَقَنه؛ وعيناه لامعتين وثاقبتين، وفمُه فمَ رجلٍ فكاهي محترف. صافح المحامي «بحميمية» نادرًا ما تكون إنجليزية.

تابع دوميني قائلًا: «في غضون نصف الساعة، أجد أميرةً تدَّعي معرفتي، وقريبة» خفَض صوته قليلًا، «تتناول الغداء على بُعد بِضع طاولات فقط، والرجل الذي رأيته كثيرًا خلال السنوات العشر الماضية وسط مشاهد مختلفة قليلًا عن هذه، إيه، سيمان؟»

تلقَّى سيمان المقعدَ الذي كان النادل قد أحضره وجلس. وعلى الفور كان المحامي مهتمًّا.

وسأل، مخاطبًا الوافدَ الجديد: «هل أفهم إذن أنك عرَفتَ السير إيفرارد في أفريقيا؟»

ابتسم سيمان. كرَّر قائلًا: «عرفت؟» ومِن أول كلمات في حديثه ظهرت جنسيته الأجنبية. «لم يكن يوجد أيُّ شخص آخر أعرفه أكثرَ منه. لقد عملنا معًا — قدرًا كبيرًا من الأعمال — وعندما لم نكن شركاء، حصل السير إيفرارد عمومًا على أفضلِ ما في الأمر.»

ضحِك دوميني. «يأتي الحظ عمومًا للرجل إما مبكِّرًا أو متأخِّرًا في الحياة. وجاء حظِّي متأخرًا. أظن، يا سيمان، أنه لا بد أنك كنت تميمةَ حظي. لم يحدث شيء خطأ معي خلال السنوات التي عمِلنا فيها معًا.»

كان سيمان متحمسًا بعض الشيء. وقام بتمشيط إحدى خصلات الشعر الصغيرة المتبقية على جانب رأسه بكفِّ يده، ووضع أصابعه الممتلئة على كتف المحامي.

وقال: «سيد مانجان، أنصِت إليَّ. لقد بِعت لهذا الرجل الحصص المهيمنة في أحد المناجم، وهي أسهمٌ كنتُ أمتلكها لمدة أربع سنوات ونصف ولم أحصل على بنس واحد أرباحًا. بِعتُها له، كما أقول، بالسعر الأصلي. حسنًا، احتجتُ إلى المال ويبدو لي أنني منحتُ الأسهمَ فرصة عادلة. في غضون خمسة أسابيع — خمسة أسابيع، يا سيدي»، كرَّر، وهو يكافح من أجل أن يُكيِّف نبرة صوته مع محيطه المتحضِّر، «انتقلت هذه الأسهم من السعر الأصلي إلى أربعة عشر ونصف. اليوم تبلغ قيمتها عشرين. أعطاني خمسة آلاف جنيه لتلك الأسهم. اليوم يمكنه الدخولُ إلى سوق الأسهم وبيعها بمائة ألف. هذه هي الطريقة التي يتمُّ بها جنيُ الأموال في أفريقيا، سيد مانجان، حيث يوجد الأبرياء مثلي كلَّ يوم.»

سكب دوميني كأسًا من النبيذ وأعطاها للزائر.

وقال: «بحقِّك، لدينا جميعًا تقلباتنا. أفريقيا لا تَدين لك بشيء، يا سيمان.»

«لقد أبليت بلاءً حسنًا بطريقتي البسيطة» أقرَّ سيمان، وهو يلمِس ساق كأس النبيذ الخاصة به، «ولكن حيث كان عليَّ أن أكُدَّ، وقف السير إيفرارد وأمر القدَرَ بصبِّ كنوزه في حِضنه.»

كان المحامي يستمع باهتمام فضوليٍّ وسرور لهذه المحادثة غيرِ الجادة. ووجد فرصة الآن للتدخُّل.

«إذن كنتما حقًّا صديقَين في أفريقيا؟» علَّق، براحةٍ غريبة تكاد تكون غيرَ قابلة للتفسير.

أجاب سيمان: «إذا سمح السير إيفرارد بأن نطلق على علاقتنا هذا الاسم.» وأضاف قائلًا: «لقد قمنا بأعمالٍ تِجارية معًا في المدن الكبرى — في جوهانسبرج وبريتوريا، في كيمبرلي وكيب تاون — واستكشفنا معًا في الأماكن البرِّية. وسافرنا إلى المروج وتُهنا عن العالم عدةَ أشهر في كلِّ مرة. لقد رأينا عجائبَ أفريقيا الحقيقية معًا، فضلًا عن حضارتها المبتذلة.»

سأل السيد مانجان: «وأنت أيضًا، هل تقاعدتَ؟»

كانت ابتسامة سيمان توحي بالابتهاج.

قال: «الصفقة نفسُها التي جعلت ثروةَ السير إيفرارد تصل إلى أرقام رائعة جلبت لي هذا المبلغ المتواضع الذي أقسمتُ على الوصول إليه قبل العودة إلى إنجلترا. هذا صحيح. لقد تقاعدت عن جني المال. الآن أعود مرةً أخرى إلى عملي في حياتي الواقعية.»

علَّق دوميني: «إذا كنتَ ستتحدَّث عن هوايتك، فمن الأفضل أن تطلب منهم تقديمَ غدائك هنا.»

أجاب صديقه: «لقد انتهيتُ من غدائي قبل أن تدخُل.» وأضاف قائلًا: «يمكنني أن أشرب كأسًا أخرى من النبيذ معك. بعد ذلك خمرٌ — مَن يدري؟ في هذه المواقف التي يكون فيها المرء مُنَعَّمًا، يمكنه أن يشرب بحُرِّية. لقد قاومنا أنا والسير إيفرارد، سيد مانجان، العطشَ في أماكنَ كان القليل من البراندي المخفَّف والماء هو متعتنا الرئيسية لأشهر.»

سأل المحامي: «هلا تُخبرني عن هذه الهواية؟»

تدخَّل دوميني على الفور. «أنا أحتجُّ. إذا بدأ الحديث عنها، فسيبقى هنا طَوال وقتِ ما بعد الظهر.»

مدَّ سيمان يدَيه وهزَّ رأسه نفيًا.

واعترض قائلًا: «لكنني لستُ غيرَ عقلاني لهذه الدرجة. كلمة واحدة فقط — اتفقنا؟ حسنًا، إذن» بدأ بسرعة، بطريقةِ رجلٍ يخشى المقاطعة. «يجب أن يكون هذا واضحًا لك يا سيد مانجان. أنا ألماني بحكم الولادة، وأحمِل الجنسية الإنجليزية من أجل أعمالي؛ أحب ألمانيا، وممتنٌّ لإنجلترا. عشت ثلث حياتي في برلين، وثلثًا في فورست هيل هنا في لندن، وفي المدينة، وثلثًا في أفريقيا. شاهدتُ نمو المنافسات التجارية والغيرة بين البلدَين. لا حاجة إليها. وقد تؤدي إلى أشياءَ أسوأ. لو كان بيدي لكنت تخلصتُ منها كلِّها. هدفي هو تشجيع

رابطة لتعزيز المزيد من العلاقات الاجتماعية والتجارية الودية بين شعب بريطانيا العظمى وشعبِ الإمبراطورية الألمانية. هذا كلُّ ما في الأمر! هل أهدرت الكثيرَ من وقتك؟ ألا أستطيع التحدُّث عن هوايتي دون سيل من الكلمات؟»

اعترف مانجان: «الإيجاز بحدِّ ذاته، وأهنئك من كلِّ قلبي على مشروعك. إذا تمكنتَ من إشراك الأشخاص المناسبين فيه، فستصبح جمعيةً قيمة للغاية.»

«في ألمانيا لديَّ الأشخاص المناسبون. كلُّ الألمان الذين يعيشون من أجل بلدهم ويحبُّون وطنهم يكرهون فكرةَ الحرب. نريد السلام، نريد أصدقاء، ولنتكلم رجلًا لرجل» اختتم، وهو ينقر المحاميَ على كمِّ المعطف: «إنجلترا هي أفضل عميل لدينا.»

علَّق الأخير: «أتمنَّى أن يُصدِّق المرء أن صوتك هو الصوت الشائع في بلدك.»

نهض سيمان واقفًا على مضَض.

وأعلن، وهو يُلقي نظرةً سريعة على ساعته: «لديَّ موعدٌ في الثانية والنصف مع صاحب مصنع صوف من برادفورد. آمُل أن أجعله ينضم إلى مجلسي.»

انحنى بطريقةٍ رسمية للمحامي، وأومأ برأسه إلى دوميني بأُلفةِ صديق قديم، وشقَّ طريقه بصخبٍ ومرحٍ إلى خارج الغرفة.

كان تعليق الأول: «أظن أنه رجلُ أعمال جيد.» وأضاف قائلًا: «أتمنى له التوفيق في رابطته. أنت نفسك، يا سير إيفرارد، ستحتاج إلى بدء بعض الاهتمامات الجديدة. ماذا عن السياسة؟»

اعترف دوميني، وهو يهزُّ كتفيه: «أتوقَّع حقًّا أن أجدَ الحياة صعبةً بعض الشيء في البداية.» وأضاف قائلًا: «لقد فقدتُ الكثيرَ من ميول مرحلة شبابي، وأخشى بشدةٍ أن يُطلِق عليَّ أصدقائي هنا لقب الاستعماري. لا أستطيع أن أتخيَّل نفسي لا أفعل شيئًا في نورفولك طيلةَ بقية أيامي. ربما سأدخل البرلمان.»

صرَّح رفيقه باندفاع: «يجب أن تُسامحني في قولي إنني لم أعرف مطلقًا في حياتي أن عشْر سنوات تُحدِث فرقًا كهذا في رجل.»

قال دوميني: «المستعمرات إما أن تقتلَك وإما أن تُداويَك. إما أن تأخذ الضربة وتخرجَ منها رجلًا أقوى، وإما أن تنهار. كانت فرصتي ضعيفة جدًّا في الهروب من الانهيار، لكنني استجمعت قُواي في الوقت المناسب. اليوم ما كنت أستبدل أوقاتي الصعبة مقابل أيِّ شيء في العالم.»

قال السيد مانجان بغطرسةٍ موروثة: «إذا سمحت لي، في أول اجتماع لنا في ظل الظروف الجديدة، أودُّ أن أقدِّم لك تهانئي القلبية، ليس فقط على ما أنجزتَه ولكن على ما أصبحتَ عليه.»

أجاب دوميني بابتسامةٍ بها قليلٌ من الجدية ولمعانٌ غريب في عينَيه: «وآمُل، أيضًا، على ما قد أُنجزه مستقبلًا.»

نهضت الدوقة ورفيقُها واقفَين، وتوقَّفت الأولى بلطف، في طريقها للخروج، بعد أن رأت محاميَها.

قالت: «كيف حالك يا سيد مانجان؟» وأضافت قائلة: «أتمنى أن تكون مهتمًّا بأولئك المستأجِرين المزعجِين لديَّ في ليسترشير؟»

أكَّد لها مانجان: «سنقدِّم تقريرنا في وقته، أيتها الدوقة.» وأضاف: «هل تسمحين لي بأن أذكِّركِ بأحد أقربائكِ الذي عاد لتوِّه من الخارج؛ السير إيفرارد دوميني؟»

كان دوميني قد نهض واقفًا قبل ذلك بلحظات، والآن كان يمدُّ يده. دون أيِّ ردٍّ حدَّقَت فيه الدوقة، التي كانت امرأة طويلة، رشيقة، ذات شعر كثيف فاتح اللون يتخلله على نحوٍ ضعيف اللونُ الرمادي، وعينَين بُنيتين جميلتين للغاية، وبشَرةٍ فتاة، وأخلاقِ خادمة مطبخ، وذلك باعترافها تمامًا.

كرَّرت: «سير إيفرارد دوميني؟» وأردفت: «إيفرارد؟ غير معقول!»

سحب دوميني يدَه الممدودة على الفور، وتلاشت الابتسامة المؤقتة من على شفتَيه. وتدخَّل المحامي في الموقف.

وأصرَّ بجدية: «يمكنني أن أؤكد لنيافتكِ أنه لا شكَّ على الإطلاق في هُوية السير إيفرارد.» وأضاف قائلًا: «لقد عاد من أفريقيا خلال الأيام القليلة الماضية فقط.»

بقي شكُّ الدوقة موجودًا، بلطفٍ تام، ولكنه كان خاضعًا لعنادها الطبيعي.

وقالت: «ببساطة لا أستطيع أن أحملَ نفسي على تصديق ذلك.» وتابعت قائلةً: «تعالَ، سوف أتحدَّاك. متى التقينا آخر مرة؟»

كان الرد الفوري: «في ويستر هاوس.» وأضاف قائلًا: «جئتُ لأودعكِ.»

كانت الدوقة مندهشةً قليلًا. لانت عيناها، وظهرت ابتسامةٌ خفيفة على جانبَي شفتيها. أصبحت فجأة امرأة جذابة للغاية.

كرَّرت: «جئتَ لتُودعني، وماذا؟»

سألها دوميني، وهو يقف منتصبًا وينظر في عينيها: «هل أعتبر هذا تحديًا؟»

«كما تشاء.»

تابع: «لقد كنتِ ألطف معي قليلًا، مما أنتِ عليه اليوم.» وأضاف وهو يُخرِج صورة صغيرة من محفظته: «لقد أعطيتني ... هذه، وسمحتِ لي ...»

صرخَت: «يا إلهي، ضعْ هذا الشيء بعيدًا، ولا تقل كلمة أخرى! إن ابن أخي الراشد، سان أومار، يدفع فاتورته على مسمعٍ منا. تعالَ لرؤيتي في الثالثة والنصف بعد ظهر اليوم ولا تتأخَّر دقيقة. وسان أومار» تابعَت، مشيرةً إلى الشاب الذي وقف الآن إلى جانبها: «هذا أحدُ أقربائك؛ السير إيفرارد دوميني. إنه شخص فظيع، لكن صافِحْه، وتعالَ. لقد تأخَّرت نصف الساعة بالفعل على الخيَّاطة.»

ضحِك اللورد سان أومار بغموض، ثم صافح قريبه الجديد، وأومأ برأسه بدماثةٍ للمحامي وتبِع عمَّته إلى خارج الغرفة. كانت تعابيرُ وجه مانجان شديدةَ الابتهاج.

صاح قائلًا: «سير إيفرارد، فليُباركَ الرب! لقد حصلَت المرأة على ما تستحق! لأول مرة في حياتي أرى دوقةً يحمرُّ وجهها خجلًا!»

الفصل الخامس

كان ويستر هاوس واحدًا من تلك المساكن الفخمة جزئيًّا التي أُنشئت على ما يبدو دون سببٍ على الإطلاق في وسط حديقة ريجنت بارك. كان قد اقتناه دوقٌ سابق بتحريضٍ من الوصي، الذي كان صديقَه الحميم، واحتفظَت به الأجيالُ اللاحقة في احتجاجٍ صامتٍ على الصروح المشوَّهة التي جعلت من بارك لين طريقًا سريعًا لأحد المليونيرات. استُقبِل دوميني، الذي تفحَّصه أولًا شخصٌ يرتدي صدرية برتقالية وقبعةً حريرية في مأوى الحرس، من قِبَل كبير الخدم في القاعة الحجرية الكبرى، وقاده خادمٌ آخرُ يرتدي صدرية برتقالية عبر قاعة استقبال فيكتورية استثنائية، وأخيرًا أُرشِد إلى مخدعٍ صغير جدًّا يؤدي إلى غرفةٍ أكبر، وينتهي بحديقةٍ زجاجية مليئة بنباتاتٍ غريبة طيبة الرائحة. مدَّت الدوقة، التي كانت مضطجعة على مقعد مريح، يدها التي رفعَها الزائرُ إلى شفتَيه. أشارت إليه للجلوس بجانبها وأمعنت النظر فيه مرةً أخرى بإصرارٍ سافر.

وقالت: «ثمة خَطبٌ ما بشأنك.»

أجاب: «يبدو هذا مؤسفًا جدًّا، فأنتِ لم تتغيَّري البتة.»

علَّقت منتقدة: «حسنًا.» وأضافت: «ومع ذلك، فقد تغيرت. لم أعدُ أحبُّك على الإطلاق.»

تنهَّد قائلًا: «لقد كان الخوف من تغيرك هذا هو ما أبقاني على قيد الحياة مدةً طويلة في أقصى أركان العالم.»

نظرت إليه بقوةٍ كان من الواضح أنها مُتصنَّعة.

وقالت: «انظر، مِن الأفضل لنا أن يكون لدينا فَهمٌ واضح تمامًا بشأن نقطةٍ واحدة. أعرف الموقف الدقيق لشئونك، وأعرف أيضًا أن المائتي جنيه التي يُرسلها إليك محاميك كلَّ عام جاء جزءٌ منها من بضع أشجار قديمة والجزء الآخر من جيبه الخاص. لا يمكنني

تخيُّلُ كيف ستعيش هنا، ولا فائدة من توقُّع أن يفعل هنري شيئًا من أجلك. فالرجل المسكين بالكاد لديه ما يكفي من المال في جيبه لدفع نفقات سفره عندما يذهب لإلقاء المحاضرات.»

كرَّر دوميني: «محاضرات؟» وأضاف قائلًا: «ماذا حدث للمسكين هنري؟»

كان الرد المبجَّل: «زوجي رجلٌ ذو ضمير حي للغاية.» وأضافت: «إنه ينتقل من مدينة إلى أخرى مع اللورد روبرتس وسكرتير، لإلقاء محاضرات عن الدفاع الوطني.»

علَّق دوميني: «هنري العزيز كان دائمًا غريبَ الأطوار قليلًا، أليس كذلك؟» وأردف: «ومع ذلك، دعيني أُرحْ بالكِ بشأن تلك المسألة الأخرى، يا كارولين. يمكنني أن أؤكدَ لكِ أنني عدتُ إلى إنجلترا ليس لاقتراض المال، ولكن لإنفاقه.»

هزَّت ابنة عمِّه رأسها بحزن. «وقبل بضع دقائق كنتُ على وشك أن أقول إنك فقدتَ حِس الفكاهة لديك!»

قال بإصرار: «أنا جادٌّ فيما أقول.» وأضاف قائلًا: «لقد تبيَّن أن أفريقيا هي منجم ذهبي. على غيرِ المتوقَّع تمامًا، يجب أن أقرَّ، لقد حصلتُ على مبلغ كبير من المال قبل انتهاء إقامتي هناك. وأنا أسدِّد الرهونَ العقارية الخاصة بممتلكات دوميني جميعها، وأريد من هنري أن يُدوِّن على الفور تلك المبالغ القليلة التي تكرَّم بإقراضي إياها في الأيام الخوالي.»

جلست كارولين، دوقة ويستر، دون حركة تمامًا للحظة فاغرةً فاها، وهي حالة كانت طبيعية تمامًا ولكنها غيرُ لائقة.

وصاحت: «وتقصد أن تُخبرني أنك حقًّا إيفرارد دوميني؟»

غمغم: «ثَمة طريقةٌ واحدة لإثبات هذا الأمر.»

وقرَّب مقعده منها بتأنٍّ، وأمسك يدها ورفعها إلى شفتَيه. كان وجهها قريبًا من وجهه بشكلٍ خطير. تراجعت قليلًا إلى الوراء ... وعلى نحوٍ مفاجئ للغاية.

همست: «عزيزي إيفرارد، هنري في المنزل! بالإضافة إلى ذلك ... نعم، أظن أنك إيفرارد. في هذه اللحظة تحديدًا كان ثَمة شيء في عينَيك يُشبهه تمامًا. لكنك قويٌّ جدًّا. هل كنت تنقِّب هناك أو ما شابه؟»

هزَّ رأسه.

«يقضي المرءُ نصف وقته على سرج الحصان.»

سألت مرةً أخرى باستغراب: «وأنت حقًّا ميسور الحال؟»

أجاب: «لو أنني بقيتُ هناك لمدة عام آخر، وتمكَّنت من الزواج من يهودية هولندية، لأصبحتُ قادرًا على شراء بارك لين.»

تنهَّدَت.

«هذا رائعٌ للغاية. سوف يود هنري أن يستعيدَ أمواله.»

«وأنتِ؟»

بدَت حزينةً للغاية.

واحتجَّت قائلة: «لقد فقدتَ كلَّ أخلاقك.» وأضافت: «أنت رجل لَعوب. كان يجب أن تميلَ نحوي ويرتعش صوتك عندما تقول هذه الكلمة الأخيرة، ولكنك تبدو كما لو كنتَ جالسًا في وضعِ انتباه، وبريقٌ فولاذي مؤكَّد يشعُّ من عينيك.»

قال مبررًا: «نادرًا ما يرى المرءُ امرأةً هناك.»

هزَّت رأسها. «لقد تغيرتَ. كان الحديث عن الحب بالنبرة الصحيحة تمامًا بمثابةِ حاسةٍ سادسة لديك، لقولِ الشيء الصحيح تمامًا بالطريقة الصحيحة.»

أعلن آمِلًا: «يمكنني استعادتها بالقليل من المساعدة.»

تجهمَت قليلًا.

«لن ترغبَ في أن تُساعدك امرأةٌ عجوزٌ مثلي، يا إيفرارد. ستكون مشهورًا جدًّا في المدينة. وستكون قادرًا على تضييع الوقت في العروض الموسيقية الكوميدية، أو مغازلة الجميلات المتزوجات، أو — أنا آسفة، يا إيفرارد، لقد نسيت.»

سأل بثبات: «نسيتِ ماذا؟»

«لقد نسيتُ المأساة التي دفعَتك بالنهاية إلى السفر إلى الخارج. لقد نسيتُ زواجك. هل يوجد أيُّ تغيير في حالة زوجتك؟»

«ليس كثيرًا، للأسف.»

«والسيد مانجان — هل يعتقد أنك بأمانٍ هنا؟»

«تمامًا.»

نظرَت إليه بجدية. ربما لم تعترف أبدًا، حتى لنفسها، بمدى إعجابِها بابن عمها النذل هذا.

قالت له: «ستجد أنه لن يجرؤ أحدٌ على قول كلمة ضدك، بعد أن أصبحتَ ثريًّا وفي حالة جيدة. سوف ينسَون كلَّ شيء تريدهم أن ينسَوه. متى ستأتي وتتناول العشاء هنا وتلتقي بجميع أقاربك؟»

أجاب: «وقتما تتكرَّمين بطلب ذلك.» وأضاف قائلًا: «فكرتُ في الذَّهاب إلى قصر دوميني غدًا.»

نظرت إليه بإحساس جديد في عينيها — شيء من الخوف، وأيضًا، شيء من الإعجاب. «لكن ... زوجتك؟»

قال: «إنها هناك، على ما أعتقد.» وأضاف قائلًا: «ليس بيدي حيلة. لقد نُفيت من منزلي مدةً طويلة بما يكفي.»

توسَّلَت فجأةً: «لا تذهب. لماذا لا تكون شجاعًا وتتخلَّص منها. أعلم كم أنت رقيق القلب، لكن لديك مستقبلك وحياتك المهنية التي يجب أن تُفكِّر فيها. من أجلها، أيضًا، يجب ألا تمنحَها الفرصة ...»

لم يستطِع دوميني أن يُقرِّر أبدًا ما إذا كانت المقاطعة التي حدثَت في تلك اللحظة مرحَّبًا بها أم لا. قطعت كارولين حديثها فجأةً ونظرت بحذرٍ نحو الغرفةِ الأكبر. كان رجلٌ طويل، أشيبُ الشعر، يرتدي ثيابًا عتيقة الطِّراز ويضع على أنفه نظارة، قد رفع الستائر. خاطب الدوقة بصوتٍ رفيعٍ عالٍ.

قال: «عزيزتي كارولين ... آه، يجب أن تُسامحيني. لم أكن أعرف أنكِ مشغولة. لن نبقى طويلًا، لكني أودُّ أن أقدِّم لكِ أحدَ أصدقائي الشباب الذي سيُساعدني في الاجتماع هذا المساء.»

أجابت زوجتُه: «أدخِله»، ومجدَّدًا عاد صوتها إلى إيقاعه البطيءِ الطبيعي. أضافت: «ولديَّ مفاجأةٌ لك أيضًا، هنري ... أظن أنك ستجدها مفاجأةً عظيمة جدًّا!»

نهض دوميني — بقامته الطويلة المثيرة للإعجاب — ووقف منتظرًا اقترابَ الوافد الجديد. تقدَّم الدوق، ونظر إليه بتساؤل. كان شابٌّ، من الواضح أنه جندي بالزي المدني، منتظرًا في الخلفية.

اعترف الدوق بلطف: «يجب أن أعترف بالمفاجأة.» وأضاف قائلًا: «ثمة شيءٌ مألوف للغاية في وجهك، يا سيدي، لكن لا أستطيع أن أتذكَّر أنني قد حظيتُ بشرف مقابلتك.»

علَّقت كارولين قائلةً: «كما ترى، أنا لستُ الوحيدة، يا إيفرارد، التي لم تتعرَّف عليك من أول نظرة. هذا إيفرارد دوميني، يا هنري، عاد من المنفى الأجنبي وتبدَّل حاله بكلِّ ما تعنيه الكلمة.»

قال دوميني وهو يمدُّ يده: «كيف حالك؟ أبدو نوعًا ما مفاجأةً للجميع، لكنني أتمنى ألا تكون قد نسيتني تمامًا.»

صاح الدوق: «يا إلهي! أنت لا تقصد أن تقول إنك حقًّا إيفرارد دوميني؟»

كان التأكيدُ الهادئ: «أنا هو، بما لا يدَع مجالًا للشك.»

قال الدوق وهو يُصافحه: «مدهش للغاية!» وأضاف قائلًا: «مدهش للغاية! لم أرَ مثلَ هذا التغيير في حياتي. نعم، نعم، أرى — الملامح ذاتها، بالطبع — والأنف والعينان — نعم، نعم! لكنك تبدو أطولَ، وتتصرَّف كأنك جندي. يا إلهي! لقد أنجزَت أفريقيا عملًا رائعًا معك. أنا سعيدٌ برؤيتك يا عزيزي إيفرارد! سعيد برؤيتك!»

علَّقت زوجته بطريقةٍ جافة: «ستشعر بسعادةٍ أكبر عندما تسمع بقية الأخبار.» وأردفت: «في هذه الأثناء، قدِّم لنا صديقك.»

أذعنَ الدوق، والتفت إلى الشاب في الخلفية: «بالتأكيد. آسفٌ جدًّا، عزيزي النقيب بارترام. يجب أن تكون العودةُ غيرُ المتوقَّعة لأحد أقارب زوجتي هي اعتذاري عن هذه الهفوة الأخلاقية. دعني أقدِّمْك إلى الدوقة. النقيب بارترام عاد لتوِّه من ألمانيا، يا عزيزتي، وهو مؤيد متحمس لقضيتنا — السير إيفرارد دوميني.»

صافحت كارولين تلميذَ زوجها بلطف، وصافحه دوميني مصافحة رسمية.

قالت الأولى وهي تبتسم: «إذن، أنت أيضًا أيها النقيب بارترام، أحدُ هؤلاء الأشخاص المقتنعين بأن ألمانيا لديها مخططاتٌ شريرة ضدنا؟»

ردَّ الجنديُّ الشاب قائلًا: «لقد عدتُ لتوي من ألمانيا بعد أن مكثتُ هناك اثنَي عشر شهرًا. ذهبت بعقلٍ منفتح. وعُدت مقتنعًا أننا سنخوض حربًا مع ألمانيا في غضون عامين.»

أومأ الدوق مؤيدًا بقوة.

وقال: «صديقنا الشابُّ على حق.» وأضاف قائلًا: «كنت أكرِّر الحقيقة على حَفنةٍ من الإنجليز ذوي العقول المتحجرة الذين تكرَّموا بالحضور إلى اجتماعاتنا ثلاثَ مرات في الأسبوع عدةَ أشهر. وجعلت من نفسي مصدرَ إزعاج لمجلس اللوردات والصحافة. إنه لأمرٌ فظيع أن نُدرك مدى صعوبة جعل الرجل الإنجليزي يفكِّر، ما دام يَجني المال ويقضي وقتًا ممتعًا. هل عُدتَ للتو من أفريقيا، يا إيفرارد؟»

«منذ أسبوع يا سيدي.»

«هل رأيت أيَّ شيء من الألمان هناك؟ هل كنتَ في أي مكان بالقرب من مستعمرتهم؟»

أجاب دوميني: «لقد كنتُ على اتصال بهم عدةَ سنوات.»

صاح السائل: «هذا أمرٌ مثير للاهتمام للغاية!» وأضاف قائلًا: «قد تكون عونًا لنا، يا إيفرارد. حقًّا، قد تكون كذلك! أخبرني الآن، أليس صحيحًا أن لديهم عملاءَ سريِّين هناك،

يحاولون إثارة القلق والبلبلة بين البوير؟ أليس صحيحًا أنهم يتوقَّعون منذ وقتٍ طويل جدًّا حدوثَ حرب مع إنجلترا، وعقدوا العزم على إثارة المستعمرة ضدنا؟»

أجاب دوميني: «أنا آسفٌ جدًّا، لكنني لستُ سياسيًّا بأي شكلٍ من الأشكال. كل الألمان الذين التقيتُ بهم هناك يَبْدون أكثرَ جنسٍ مسالم، ولا يبدو أنه يوجد أدنى استياء بين البوير أو أي أحدٍ آخر.»

بدا على وجه الدوق الإحباطُ الشديد. وقال: «هذا مفاجئ للغاية.»

تابع دوميني: «الأشخاص الوحيدون الذين يبدو أنَّ لديهم أيَّ سبب للاستياء هم المستوطنون الإنجليز. أنا نفسي لم أبدأ في القيام بأيِّ عمل جيد هناك إلا قبل بضع سنوات، لكنني سمعت بعضَ القصص الغريبة عن الطريقة التي عومل بها شعبنا بعد الحرب.»

علَّق الجندي الشاب قائلًا: «ما تقوله عن جنوب أفريقيا، يا سير إيفرارد، أمرٌ مثير للاهتمام بطبيعة الحال، لكن لا بد لي من قول أنه يتعارض بشكل مباشر مع كلِّ ما سمعته.»

ردَّد الدوق بحماس: «وأنا كذلك.»

تابع دوميني: «لقد عشت هناك طوال الأحد عشر عامًا الماضية، ومع أنني أمضيتُ الجزء الأول من ذلك الوقت في السفر وراء الطرائد الكبيرة، إلا أنني ملزمٌ مؤخرًا بالاعتراف بأن كل فكرة وطاقة أمتلكها تركزَت على جني المال. لهذا السبب، ربما كانت ملاحظاتي خاطئة. لي الشرف أن أحضر إلى أحد اجتماعاتك الأولى، أيها الدوق، وأحاول فهْم هذه المسألة.»

نظر إليه قريبه الجليل بقليلٍ من الفضول للحظة من خلف نظارته.

قال: «عزيزي إيفرارد، فلتعذرني على ملاحظتي، لكنني أجدُك تغيرتَ أكثرَ مما كنتُ أعتقد أنه ممكن.»

علقَت زوجته بسخرية باهتة: «لقد تغيَّر إيفرارد بأكثرَ من طريقة.»

انحنى دوميني، الذي نهض للمغادرة، على يدها.

فأضافت: «ماذا عن حفل عشائي، يا سيدي؟»

أجاب: «حالما أعود من نورفولك.»

سألت بقليلٍ من الفضول: «هل ستذهب حقًّا إلى قصر دوميني؟»

«بكل تأكيد!»

مرة أخرى، كان ثمة القليلُ من الخوف في عينيها، تلاه وميضٌ خاطف من الإعجاب. صافح دوميني مضيفه بشدة وأومأ برأسه إلى بارترام. كان الخادم الذي كانت الدوقة قد استدعته واقفًا ممسكًا الستائرَ من جانب واحد.

قال دوميني، وهو يُكمل وداعه: «آمُل أن أراك مرة أخرى قريبًا، أيها الدوق. توجد مسألة عمل بسيطة يتعيَّن تعديلها بيننا. من المحتمل أن تسمع من السيد مانجان في غضون يوم أو يومين.»

حدَّق الدوق في هذا الزائر المذهل المغادر. عندما أُسدِلَت الستائر التفتَ إلى زوجته.

كرَّر: «مسألة عمل بسيطة.» وأضاف قائلًا: «آمُل أن تكوني قد أوضحتِ لإيفرارد، يا عزيزتي، أنه على الرغم من أننا، بالطبع، سعداءُ جدًّا برؤيته مرةً أخرى، من المستحيل تمامًا أن يعتمد عليَّ في أي مساعدة مالية في الوقت الحالي.»

ابتسمت كارولين.

وأوضحت: «كان إيفرارد يُلمِّح إلى الأموال التي يَدين بها لك بالفعل. فهو ينوي أن يُسدِّدها دفعة واحدة. كما أنه يسدِّد الرهونَ العقارية الخاصة بممتلكات دوميني. يبدو أنه جمع ثروةً في أفريقيا.»

انهار الدوق على أحد المقاعد المريحة.

وصاح: «إيفرارد يُسدِّد ديونه؟» وأضاف قائلًا: «إيفرارد دوميني يسدد الرهون العقارية؟»

وافقته زوجتُه قائلة: «هذا ما أفهمه.»

تمسَّك الدوق بالملاذ الأخير لرجلٍ ضعيف ولكن عنيد. واجتمعت شفتاه مثل مصيدة فئران.

وأعلن: «ثمة خَطْبٌ ما في هذا الأمر.»

الفصل السادس

بنفادِ صبرٍ أمضى دوميني ذلك المساء ساعةً في غرفة جلوسه في فندق كارلتون، في انتظار سيمان. لم يظهر إلا قرابة الساعة السابعة.

سأله دوميني: «هل تعلم أن الأميرة إيدرستروم تنتظر أن أزورها في الساعة السابعة؟»

أجاب سيمان: «أثقُ في كلامك؛ ولكن لا أرى أيَّ مأساة في هذا الموقف. فالأميرة امرأةٌ عاقلة ولديها رؤية سياسية. وعلى الرغم من أنني لا يمكنني أن أوصيَك بالثقة فيها ثقةً عمياء، ما زلت أظن أنه يمكن اتِّباع حلٍّ وسط بحكمة.»

صاح دوميني: «هُراء! بصفتي ليوبولد فون راجاشتين، فإن للأميرة مزاعمَ لا جدال فيها بشأني وبشأن حريتي، مزاعم من شأنها أن تتعارضَ تمامًا مع حياة إيفرارد دوميني المهنية.»

بدقة منهجية، وضعَ سيمان قبَّعته وقفازَيه وعصا المشي على الخِزانة. ثم نظر إلى غرفة النوم المتصلة، وأغلق الباب وأوصده، واستراح على مقعد مريح.

قال: «اجلس قبالتي، يا صديقي. سنتحدث معًا.»

أطاعه دوميني بقليلٍ من التجهم. لكن رفيقه تجاهل سلوكه.

قال وهو يضرب على راحة يده بأصبع يده الأخرى: «الآن، يا صديقي، أنا تاجرٌ وأفعل الأمور بطريقة تجارية. دعنا نُقيِّم موقفنا. هذا الأسبوع سيكون قد مرَّ ثلاثة أشهر منذ التقينا وفقًا لموعدٍ سابق في فندق معيَّن في كيب تاون.»

تمتم دوميني: «ثلاثة أشهر فقط.»

تابع سيمان: «لم يكن يعرف بعضنا بعضًا.» وأضاف قائلًا: «كنت قد سمعتُ فقط عن البارون فون راجاشتين بوصفه مواطنًا ألمانيًّا مخلصًا ووطنيًّا، وأنه يُشارك في مشروعٍ مهم في شرق أفريقيا بوساطة خاصة من القيصر، بسبب حدثٍ مؤسف في المجر.»

قال دوميني ببطء وعيناه مثبَّتتان على عيني رفيقه: «قتلت رجلًا في مبارزة. لم يكن فعلًا لا يُغتفر.»

«يوجد العديد والعديد من المبارزات. لم يكن القتال بين شابَّين، دفاعًا عن شرف سيدة شابة في مكانتهما الاجتماعية أو لكسب رضاها، مخالفًا لأعراف البلاط الملكي. من الناحية الأخرى، يُنظَر بشكلٍ مختلف جدًّا إلى مسألة كونك عشيقًا لزوجةِ واحد من أعظم النبلاء في المجر، واستحواذك عليها بقتل الزوج في المبارزة التي كانت حتميةً للحفاظ على شرفه.»

احتجَّ دوميني على ذلك قائلًا: «لم تكن لديَّ رغبةٌ في قتل الأمير، ولم تكن مقابلتنا بناءً على رغبتي مطلقًا. قاتل الأميرُ مثل المجنون وانزلق، بعد اندفاع جامح، على حد سيفي الثابت.»

قال سيمان: «لنتجاوز ذلك الأمر.» وأضاف قائلًا: «أنا لستُ من مكانتك الاجتماعية وقد لا أفهم آداب هذه الأمور. أنا ببساطة أنظر إليك بوصفك مذنبًا في نظر الرب، وأشعر أن له الحقَّ في أن يطلب منك الكثير عن طريق التضحية الشخصية.»

سأل دوميني: «هل بوسعك أن تُخبرني ماذا يمكنني أن أعطيه أكثرَ من ذلك؟ لقد أمضيت سنوات مرهقة في بلد ملحدٍ ومليء بالحمَّى، وأعددت للقتال مجموعة كبيرة من السكان الأصليين. لقد توليت لجانًا سياسية أخرى في المستعمرة قد تؤتي ثمارها. كان يتعيَّن أن أتولى العمل الذي كان مخصصًا لي في الأصل، والذي تلقيتُ تعليمًا باللغة الإنجليزية من أجله. ذهبت إلى إنجلترا، وفي ظل هذه الهوية كما أفترض بعد التشاور معك في كيب تاون، سأجعل نفسي قدرَ الإمكان «شخصًا مرغوبًا فيه» في ذلك البلد. أنا لا أنتظر لقاءنا. أرى فرصةً عظيمة وها أنا ذا أغتنمها. فأنا أحوِّل نفسي إلى رجلٍ نبيل من الريف الإنجليزي، وأعتقد أنك ستعترف بأنني فعلتُ ذلك بنجاح كبير.»

وافق سيمان على ذلك قائلًا: «كلُّ ما تقوله صحيح. قابلتَني في كيب تاون بهُويتك الجديدة، وبدا أنك تتقمَّصها بشكل رائع بالتأكيد. لقد جعلتها باهظةَ الثمن بشكلٍ غير مألوف، لكننا لا نكره المال.»

أوضح دوميني: «لم أستطِع العودةَ إلى منطقة فقيرة في دياري.» وأضاف قائلًا: «لم يكن ينبغي أن أحتلَّ أيَّ مكانة في الحياة الاجتماعية الإنجليزية، ولم يكن ينبغي أن أتلقى أيَّ ترحيب من أولئك الذين أتصورُ أنك ترغب في أن أكون على وفاقٍ معهم.»

أعلن سيمان: «مرةً أخرى، أنا لا أشكو.» وأضاف بجديةٍ قائلًا: «لا يوجد حدود لحبِّنا للمال. ويجب ألا يكون هناك أيُّ حدود لولائنا.»

احتجَّ دوميني قائلًا: «في هذه الحالة، لا يتعلَّق الأمر بالولاء. لا يمكن لإيفرارد دوميني أن يُلقي بنفسه عند قدَمَي الأميرة إيدرستروم، المعروفة بكونها واحدةً من أكثر النساء عاطفيةً في أوروبا، بينما لا تزال علاقتها الغرامية مع ليوبولد فون راجاشتين في الذاكرة. تذكَّر أن مسألة هُويتينا قد تظهر في أيِّ يوم. كنا أصدقاء هنا في إنجلترا، في المدرسة والجامعة، ولا يزال يوجد كثيرون ممن يتذكَّرون الشبهَ بيننا. على الرغم من أنني قد ألعب دوري على نحوٍ مثالي، فقد تظهر شكوكٌ من وقت لآخر. ولن تكون هناك شكوك بعد ذلك إذا سحبَتني عجلات عربة الأميرة.»

سكت سيمان للحظة.

واعترف بعد وقتٍ قصير: «إن ما تقوله منطقي.» وتابع: «هذا لبضعة أشهر فقط. ما اقتراحك؟»

اقترح دوميني بلهفة: «أن تُقابل الأميرة بدلًا مني على الفور.» وأضاف: «وضِّح لها أنه في الوقت الحاضر، ولأسباب سياسية، يجب أن أبقى إيفرارد دوميني، في نظرها وكذلك في نظرِ بقية العالم. دعْها تكتفِ بهذا القدر من الصداقة والإعجاب الذي يمكن أن يُقدِّمه السير إيفرارد دوميني بشكلٍ معقول لامرأةٍ جميلة التقى بها اليومَ للمرة الأولى، وأنا سأكون في خدمتها بالكامل وبكل قلبي. لكن دعْها تتذكَّر أنه حتى بيننا، نحن الاثنين، سأكون إيفرارد دوميني فحسب، سواءٌ كنا بمفردنا في غرفتها أو في قاعة الاستقبال حيث قد نلتقي، حتى تنتهيَ مهمتي. ربما تظن أنني أركِّز على هذا بلا داعٍ. غير صحيح. أنا أعرف الأميرة وأعرف نفسي.»

نظر سيمان إلى الساعة. «في أيِّ ساعة كان موعدك؟»

أجاب دوميني: «لم يكن موعدًا، لقد كان أمرًا.» وأضاف قائلًا: «قيل لي أن أكون في ميدان بلجريف في الساعة السابعة.»

وعد سيمان وهو يرفع قبَّعته: «سأتفاهم مع الأميرة.» وأردف قائلًا: «تناوَل العَشاء معي في الطابَق السفلي الساعة الثامنة لدى عودتي.»

نزل دوميني بعد نحو ساعة، ووجد صديقه سيمان جالسًا بالفعل على طاولة صغيرة بعيدة معَدَّة في أحد الأجزاء الخفية في مطعم المشويات. لوَّح له سيمان مُرحِّبًا بمجيئه، وطُلِبَت المشروبات على الفور.

أعلن سيمان: «لقد أنجزت مهمَّتك.» وتابع قائلًا: «منذ زيارتي، لا بد لي من الاعتراف بأنني أُدرك قلقكَ إدراكًا كاملًا.»

«ربما لم تُقابل الأميرة من قبل؟»

«لم أفعل. يجب أن أعترف بأنني وجدتُها سيدةً ذات مِزاج متسلِّط إلى حدٍّ ما. أتخيَّل، يا صديقي الشاب» تابع سيمان، مع رِعشة في جانب شفتَيه: «أنه في يومٍ ما في شهر أغسطس من العام المقبل ستكون مشغولًا جدًّا.»

كان الردُّ الرائع: «لن أَشغَل بالي بأغسطس من العام المقبل.»

تابع سيمان: «في الوقت الحالي، تتفهَّم الأميرة الموقف وهي، على ما أظن، متأثرة. على أي حال لن تُقْدِم على أي تصرُّف متهوِّر. ستلتقي أنت وهي في غضون الساعات القليلة القادمة، ولكن وفقًا لشروطٍ معقولة. لنمضِ قُدمًا! أثناء عودتي إلى هنا بعد مقابلتي مع الأميرة، قرَّرت أن الوقت قد حان لمقابلة الشخص المسئول بشكل رئيسي عن وجودك هنا.»

«تيرنيلوف؟»

«بالضبط! لقد التزمتَ، يا صديقي الشاب»، أكمل سيمان بعد توقُّفٍ قصير، أحضر خلاله نادلٌ المشروبات وتلقَّى آخرُ طلبَهما للعشاء، «بصمتٍ شديد التكتُّم، وجديرٍ بالثناء فيما يتعلق بتلك التعليمات الإضافية التي وُعدت بها فورَ وصولك إلى لندن. هذه التعليمات لن تُكتَب أبدًا. إنها هنا.»

لمس سيمان جبهتَه وتجرَّع ما تبقَّى من كأسه.

علَّق دوميني: «تعليماتي هي أن أثق بك ثقةً مطلقة، وحتى تندلعَ الأحداث الكبرى، أن أركِّز الجزء الأكبر من طاقاتي في أن أعيشَ الحياة الطبيعية للرجل الذي اتخذتُ اسمه ومكانته.»

وافقه سيمان: «بالضبط.»

جال بناظِرَيه في الغرفة لحظة أو اثنتين، كما لو كان مهتمًّا بالناس. وبعدما شعر بالرضا أخيرًا لعدم وجود فرصةٍ لأن يسمعه أحد، تابع:

«الفكرة الأولى التي يجب أن تُخرجها من رأسك، يا صديقي العزيز، إذا كانت موجودة، هي أنك جاسوس. أنت لستَ كذلك. أنت لست مرتبطًا بأدنى درجةٍ بنظام تجسُّسنا المثالي على نحوٍ رائع. أنت عميل حرٌّ في كلِّ ما قد تختار أن تقوله أو تفعلَه. يمكنك أن تؤمن بألمانيا أو تخشاها — أيًّا كان ما تريد. يمكنك الانضمامُ إلى زوج ابنة عمك في حملته للخدمة الوطنية، أو يمكنك الانضمام إليَّ في جهودي لتوطيد أواصر الصداقة والمودة بين مواطني البلدَين. نحن حقًّا لا نهتمُّ على الإطلاق. اختر دورَك. انخرِط انخراطًا تامًّا في حياة السير

إيفرارد دوميني، البارون، من دوميني هول، نورفولك، واتَّبع بالضبط المسارَ الذي تظنُّ أن السير إيفرارد نفسه كان من المحتمل أن يسلكه.»

اعترف دوميني: «هذا تفكير واسعُ الأفق للغاية.»

كان الرد السريع: «إنه المنطق السليم.» وتابع قائلًا: «مع كل قدراتك، لا يمكنك في غضون ستة أشهر التأثيرُ بشكل ملحوظ على الموقف في كلتا الحالتين. لذلك، نختار أن تُركِّز كلَّ طاقاتك على مهمةٍ واحدة، ومهمة واحدة فقط. إذا كان ثمة أيُّ شيء يتعلق بالتجسُّس في مهمتك هنا، فليست مسألة إنجلترا أو الإنجليز هي ما يجب أن يَلفت انتباهَك. نطلب منك التركيز بشكلٍّ كامل على تيرنيلوف.»

أصاب الذهول دوميني.

كرَّر: «تيرنيلوف؟» وتابع قائلًا: «كنت أتوقَّع العمل معه، لكن ...»

أمرَ سيمان: «أفرِغْ عقلك من كل الأفكار المسبَقة.» وأردف قائلًا: «سوف تعتاد واجباتَك المتعلقة بتيرنيلوف تدريجيًّا مع تطوُّر الموقف.»

علَّق دوميني قائلًا: «لكنني لم أقابله حتى الآن.»

«كنتُ على وشك إخبارك، في وقت سابق من محادثتنا، أنني حددتُ موعدًا لك لمقابلته في الساعة الحادية عشرة ليلًا في السفارة. ستذهب إليه في تلك الساعة. تذكَّر، أنت لا تعرف شيئًا، أنت تنتظر التعليمات. دعِ الحديثَ له وحده. احرص حرصًا خاصًّا على ألا تترك له تلميحًا عن معرفتك بما سيحدث. سوف تجده راضيًا تمامًا عن الموقف، راضيًا تمامًا. احرص على عدم إزعاجه. إنه مبشِّر بالسلام. وأنت أيضًا.»

قال دوميني بتمعُّن: «بدأتُ أفهم.»

وعَدَه سيمان قائلًا: «ستفهم كلَّ شيء عندما يحينُ الوقت لتقدِّم يدَ العون، ولا تنسَ في خضمِّ حماسك، يا صديقي، أن النفع الذي ستُسديه لقضيتنا العظيمة سيعتمد إلى حدٍّ كبير على قدرتك على توطيد موقعِك بوصفك رجلًا إنجليزيًّا نبيلًا والحفاظِ عليه. هل تسير الأمور على ما يُرام حتى الآن؟»

أجاب دوميني: «على نحوٍ مثالي، على حدِّ علمي.» وتابع قائلًا: «يجب أن تتذكَّر، مع ذلك، أن لك دورًا عليك فعْله. ستتلقى برلين رسائلَ محمومةً من شرق أفريقيا بخصوص اختفائي. وذلك لأنني لم أُطلِعْ حتى زملائي المقربين على السر.»

أكَّد سيمان لرفيقه: «كلُّ هذا مفهوم.» وأردف قائلًا: «أنفق طبيبٌ صغير يُدعى شميدت الكثيرَ من أموال الحكومة في برقياتٍ محمومة. لا بد أنه كان يُحبك جدًّا.»

«لقد كان زميلًا مخلصًا جدًّا.»

«لقد كان صديقًا مزعجًا للغاية. يبدو أن قصص السكان الأصليين اختلطَت فيما يتعلَّق بسَمِيِّك، الذي يبدو أنه لقي حتفَه في الأدغال، وشدَّد شميدت باستمرار على وعدك بالسماح له بمعرفةِ الأخبار من كيب تاون. ومع ذلك، فقد تم التعامل مع كلِّ هذا على نحوٍ مُرضٍ. الأخطار الحقيقية الوحيدة موجودة هنا، وحتى الآن يبدو أنك واجهتَ الأخطار الرئيسية.»

صرَّح دوميني: «لقد قُبِلتُ، على أي حال، من قِبَل أقربِ قريبة لي على قيد الحياة، وبالمصادفة اكتشفتُ الشخص الوحيد الذي يتمتَّع ببُعد نظر في إنجلترا والذي يعرف ما يُخبئه لنا المستقبل.»

توتَّر سيمان لحظة.

«مَن تقصد؟»

«دوق ورسستر، زوج ابنة عمي، الذي كنتَ تتحدَّث عنه للتو.»

استرخى وجه الرجل القصير.

وقال: «إنه يُذكرني بالشخص الغبي الذي أنقذ مبنى البرلمان الأميركي، رجل بلا عقل مهووس بفكرة واحدة. من الغريب أنه غالبًا ما يكتشف هؤلاء المتعصبون الحقيقة. ذلك يُذَكِّرني بأمر» أضاف، وهو يُخرج دفترَ مذكرات صغيرًا من جيب الصدرية ويُلقي نظرة خاطفة عليه: «نيافته لديه لقاء الليلة في مبنى بلدية هولبورن. سأقوم بواحدة من مقاطعاتي المعتادة.»

استفسر دوميني: «إذا كان لديه عدد صغير جدًّا من الأنصار، فلماذا لا تدَعُه وشأنَه؟»

كان الرد الهادئ: «يوجد آخرون مرتبطون به، ممن لا يُستهان بهم. علاوة على ذلك، عندما أقاطع أعلِن عن هوايتي الصغيرة.»

علَّق دوميني وهو يُلقي نظرةً خاطفة على الغرفة بعد توقُّف قصير لكن مدروس: «هؤلاء ... نحن الإنجليزَ أناسٌ غريبون.» وأضاف قائلًا: «نحن نعلن عن ثروتنا الهائلة ونتفاخر بها، ومع ذلك فنحن غير قادرين على بذلِ أدنى التضحيات بالنفس من أجل الحفاظ عليها. كان يمكن للمرء أن يتصوَّر أن فلاسفتنا، ومؤرِّخينا، سيُحذروننا من المستقبل بعباراتٍ لا تُقاوم، من خلال استنتاج عِلمي دامغ.»

غمغم سيمان بانحناءة بسيطة: «تحياتي لكم.» وتابع قائلًا: «بمناسبةِ ما كنت تقوله، لن تتمكن أبدًا من جعل رجل إنجليزي — أستميحك عذرًا، أحد أبناء وطنك — يدرك أيَّ

شيء غير سار. إنه يُفضِّل أن يُبقيَ رأسه مرتاحًا في الرمال. ولكن لنترك التعميم جانبًا، متى تُفكر في الذَّهاب إلى نورفولك؟»

أجاب دوميني: «في غضون الأيام القليلة المقبلة.»

أعلن رفيقه: «سأتنفس بحريةٍ أكبرَ عندما تستقر بأمان هناك.» وأضاف قائلًا: «أشياء عظيمة تنتظر قَبولك الكامل، في الريف وكذلك في المدينة، بوصفك السير إيفرارد دوميني. هل أنت متأكد من أنك تفهم تمامًا مكانتك هناك فيما يتعلق بشئونك الداخلية؟»

كان الرد القاسي نوعًا ما: «أفهم كلَّ ما هو ضروري.»

رد سيمان بانفعال: «كلُّ ما هو ضروري لا يكفي.» وأردف قائلًا: «ظننت أنك انتزعت القصةَ بأكملها من ذلك الرجل الإنجليزي المخمور؟»

«قال لي معظمَها. كانت ثَمة نقطة أو نقطتان فقط تتجاوز الحدود التي يمكن فيها الاستجواب.»

عبس سيمان بغضب.

واشتكى قائلًا: «بعبارة أخرى، لقد تذكَّرت أنك رجل نبيل وليس أنك ألماني.»

قال دوميني: «الرجل الإنجليزي الذي يتمتَّع بمكانةٍ معينة، على الرغم من كونه منحطًّا، يتميز بعنادٍ معيَّن، مرتبط بشكل عام بشيء معيَّن، لا يمكن لأي شيء كسرُه. تحدَّثنا معًا في تلك الليلة الأخيرة حتى الصباح؛ وشربنا الخمر والبراندي. وانتزعتُ من داخلي قصة نفيي وأفشيتُ له بها. ومع ذلك، كنتُ أعرف طوال الوقت، كما أعرف الآن، أنه أخفى عني شيئًا ما.»

كان هناك توقفٌ قصير. خلال الدقائق القليلة الماضية، تسلل التوترُ بين الرجلين. ومعه، بدا أن خصائصهما الشخصيةَ ازدادت حدَّة. كان دوميني أرستقراطيًّا أكثرَ من أي وقتٍ مضى؛ وسيمان متآمرًا عاميًّا، بلا خجل وبشكل جاد للغاية. بعد وقت قصير مال قليلًا نحو الطاولة. وضاقت عيناه لكنهما كانتا لامعتين مثل الفولاذ. وكانت أسنانه بارزةً أكثر من المعتاد.

قال بإصرار: «كان يجب أن تنتزعه من حلقه.» وتابع قائلًا: «ليس من واجبك رعايةُ المشاعر الشخصية الجميلة. أنت لقد تعهَّدت بقلبك وروحك بأمورٍ عظيمة. لا يمكنني في هذه اللحظة أن أعطيَك أيَّ فكرة عما قد لا تعنيه لنا بعد حدوث المشكلة، إذا كنتَ ما زلتَ قادرًا على لعب دورك في هذا البلد بوصفك إيفرارد دوميني، من دوميني هول. أعلم جيدًا أن الإحساس بالشرفِ الشخصيِّ بين الطبقة الأرستقراطية البروسية هو الأفضل في العالم،

ومع ذلك لا يوجد رجلٌ واحد من مكانتك ليس مستعدًّا للكذب أو الغش من أجل بلاده. يجب أن تصطفَّ مع زملائك. مرةً أخرى، ما يجعل الاعترافَ بك بوصفك إيفرارد دوميني مهمًّا جدًّا لنا، ليس مهمتك المتعلقة بتيرنيلوف فقط. إنها الأشياء التي ستأتي لاحقًا. هيا، كفانا حديثًا عن هذا الموضوع. أعلمُ أنك تفهم. أصبحنا جادَّين جدًّا. كيف ستقضي مساءك حتى الساعة الحاديةَ عشرة؟ تذكَّر أنك لم تكن ناسكًا عندما تركتَ إنجلترا يا سير إيفرارد. يجب أن يكون لديك وسائلُ الترفيه الخاصة بك. لماذا لا تُجرِّب قاعات الموسيقى؟»

اعترض دوميني على ذلك قائلًا: «إن عقلي مشحونٌ للغاية بأشياءَ أخرى.»

اقترح الرجل القصير: «إذن تعالَ معي إلى هولبورن.» وأضاف قائلًا: «ستستمتع بها. سوف نفترق عند الباب، وتجلس في آخر الصالة، بعيدًا عن الأنظار. ستستمع إلى البلاغة المؤثِّرة لزوج ابنة عمِّك. ستسمعه وهو يُحاول تحذير رجال ونساء إنجلترا من الخطر الذي يترقَّبهم من الأمة الألمانية العظيمة والجشعة. ما رأيك؟»

أجاب دوميني بفتور: «سآتي.» وأردف قائلًا: «ستكون أفضلَ من قاعة الموسيقى، على أي حال. لست متأكدًا على الإطلاق، يا سيمان، من أن أصعبَ جزء من مهمتي هنا لن يكون هذه الحاجة إلى وسائل الترفيه التي سأفرضها على نفسي.»

ضرب رفيقُه الطاولةَ بلطفٍ ولكن بنفاد صبر بقبضته المضمومة.

وصاح: «يا رجل، أنت شاب!» وتابع قائلًا: «أنت مثلُ بقيتنا. ما زلتَ في مقتبل حياتك. لا تُنعش أحزان الماضي. ألقِ ذكراها بعيدًا. لا يوجد شيء يُضيِّق على الرجل أكثر من الكآبة. لديك ماضٍ قد يجلب الأشباح حولك أحيانًا، لكن تذكَّر أن الخطيئة لم تكن بالكامل خطيئتَك، وثَمة تكفيرٌ يمكن أن تبدأ في تنفيذه بطريقة محسوبة متى شئت. لقد قلتُ ما يكفي عن ذلك الأمر. العظمة والبهجة صِنوان. أرأيت! كنتُ فيلسوفًا قبل أن أصير أستاذًا للدعاية. جيد! أنت تبتسم. هذا شيء مُحْرَز، على أي حال. الآن سنأخذ سيارة أجرة إلى هولبورن وسأريك شيئًا مضحكًا حقًّا.»

عند مدخل مبنى البلدية، افترق الرجلان، بتحريض من سيمان، وشقَّا طريقهما إلى الداخل من بابَين مختلفين. وجد دوميني مقعدًا منعزلًا تحت شرفة، حيث من غير المرجَّح أن يتعرف عليه أحدٌ من المنصة. من الناحية الأخرى، شغل سيمان موقعًا أبرز في نهاية أحد الصفوف الأمامية للمقاعد. لم يكن الاجتماع بأي حال من الأحوال مكتظًّا أو مفرطَ الحماس أو مفرطًا في أي شيء. كانت توجد صفوفٌ من المقاعدِ الفارغة، والكثيرُ من الأزواج

الشباب الذين بدا أنهم قد أتَوا بحثًا عن ملجأ من الليل العاصف، وقلةٌ من التجار الأقوياء الذين يتمتَّعون بمظهرٍ محترم والذين جاءوا لأن هذا يبدو شيئًا محترمًا يجب القيام به، وعددٌ قليل من المهتمِّين اهتمامًا حقيقًا، ومتحمسون متناثرون هنا وهناك، على الرغم من أنهم كانوا بالتأكيد أقلية. على المنصة كان الدوق، مع شخصياتٍ مدَنية بارزة على جانبيه؛ جندي مشهور، وعضو في البرلمان، ونصف دُزينة أو نحو ذلك من سكان الحي العاديِّين، والنقيب بارترام. كان الاجتماع على وشك البدء عندما استقرَّ دوميني في ركنه.

بادئ ذي بدء، نهض الدوق، وقدَّم صديقه الشاب النقيب بارترام ببضعِ جملٍ مبتذَلة، ولكنها جادة. وهذا الأخير، الذي اندفع على الفور إلى منتصف موضوعه، كان متوترًا وفظًّا إلى حدٍّ ما. أوضح أنه استقال مِن عمله ومن ثَمَّ كان يملك حرية التعبير عن رأيه. وتحدَّث عن الاستعدادات العسكرية الهائلة في ألمانيا والجوِّ العام لتوقُّع التوتر. وضد مَن كانت هذه الاستعدادات؟ من دون شك مادي ضدَّ منافس ألمانيا الأكبر، الذي فضَّل الملايينُ من شبابه، حتى في هذه الساعة الخطرة، لعبَ كرة القدم أو الكريكيت أو مشاهدتها في أوقات بعد الظهر أيامَ السبت عن إدراك واجبهم. قاطع ختام الخطابَ غيرَ الهادف، بالرغم من كونه جادًّا، الدخولُ المختلس إلى القاعة لصبيٍّ صغير يبيع الصحف المسائية، وتوقَّف الجزءُ الأصغر سنًّا من الجمهور مؤقتًا عن الاهتمام بسير الجلسة، بينما استمتعوا بمعرفة نتيجة مختلف مباريات الكأس. عندئذٍ باغتَهم عضوُ البرلمان بإعصار من الخطابة وبأسلوبه الأفضل في مجلس العموم. تحدَّث عن السُّحب السوداء والنسيم البارد الذي حلَّ قبل العاصفة الرعدية القادمة. وأشار إلى انهيار كلِّ أمة عظيمة عبر التاريخ أهملَت فنون الدفاع عن النفس. وناشد شبابَ الأمة أن يستعدوا لحماية نسائهم، ومنازلهم، وتراب بلادهم المقدَّس، وفي تلك المرحلة قاطعه فردٌ ناعس من الجمهور، بدا أنه قد استيقظ في تلك اللحظة، بصوت جَهْوري.

«ماذا عن البحرية، أيها المحافظ؟»

تحرَّك الخطيب بسرعةٍ نحو المُقاطِع بطريقته الشهيرة على المنصة. وأعلن أنه يمكن الوثوقُ في جميع الأوقات في أن البحرية ستؤدي واجبَها، لكنها لا تستطيع القتال في البحر والبر. هل سيفعل الشابُّ الذي قاطعه للتو ذلك، ويُسجل اسمه للتدريب والخدمة الوطنية في ذلك المساء؟ — وما إلى ذلك. أطلق الجنديُّ المشهور الذي كان يعاني نزلةَ برد، بعضَ جُمل بصوتٍ أجشَّ، على صوت جولات من التصفيق. اختُتِمَت الفعاليات بواسطة الدوق،

الذي كان من الواضح أنه، باستثناء الجندي المشهور، كان أكثرَ جدية من أيٍّ منهم، وحصل بشكل عام على اهتمامٍ يتَّسم بالاحترام. وذكر بعض التلميحات التاريخية، ودعا إلى وجود روحٍ أكبرَ من الجدية والمواطنة بين رجال البلد، وناشد حتى النساء تنميةَ إحساسهن بالمسئولية، وجلس وسْط موجة من التصفيق الحماسي. كان اقتراحُ توجيه خطاب شكر للرئيس على وشك الحدوث عندما ناشد السيد سيمان، واقفًا في مكانه، الرئيسَ للسماح له بقول بِضع كلمات. نظر الدوق، الذي كان لديه بعضُ الخبرة مع السيد سيمان من قبلُ، إليه بحدَّة، لكن الابتسامة التي نظر بها السيد سيمان حوله للجمهور كانت لطيفةً للغاية وجذابة، لدرجةِ أنه لم يكن لديه بديلٌ سوى الموافقة. صعد سيمان الدَّرَج إلى المنصة، وسعل معتذرًا، وانحنى للدوق، واستحوذ على الاجتماع. بعد كلمة أو كلمتين من المجاملة للرئيس، أدلى باعترافه. لقد كان مواطنًا ألمانيًّا — لقد كان بالفعل أحدَ أبناء ذلك العِرْق المتعطش للدماء. (بعض الضحك.) لقد كان أيضًا، وكان ذلك مبرِّرَه للوقوف هناك، مؤسسَ وسكرتيرَ رابطةٍ معروفة جيدًا لهم بلا شك، رابطةٍ لتعزيز المزيد من العلاقات الودية بين رجال الأعمال في ألمانيا وإنجلترا. وقد تألم بشدةٍ من بعض الملاحظات التي سمعها ذلك المساء. كثيرًا ما ذهب بداعي العمل إلى ألمانيا، وباعتباره ألمانيًّا، فسيُعتبر مقصرًا في واجبه إذا لم يقف هناك ويُخبرهم أن الألماني العاديَّ يحبُّ الرجل الإنجليزي مثل أخيه، وأن هدف حياته هو الدخول في صلةٍ أكبر معه، وأن ألمانيا حتى في تلك اللحظة كانت تقف ويدُها ممدودة إلى أقاربها عبر بحر الشمال، ترجو تعاطفًا أعمقَ، وفهْمًا أكبر. (تصفيق من الجمهور، وهمهمات معارضة من المنصَّة.) وفيما يتعلَّق بتلك الاستعدادات العسكرية التي سمعوا عنها كثيرًا (مع نظرةٍ فاحصة للنقيب بارترام)، دعْهم ينظرون لحظةً واحدة إلى حدود ألمانيا، دعْهم يُدركون أن ألمانيا من ناحية الشرق تتعرض لضغوطٍ مستمرة من قِبل عدوٍّ قديم وتاريخي يتمتع بقوة هائلة. ولن يُضيع وقتهم في إخبارهم بالصعوبات السياسية التي كان على ألمانيا أن تُواجهها خلال الجيل الأخير. بل سيُخبرهم ببساطة بهذه الحقيقة العظيمة — أن العدو الذي اضطُرَّت ألمانيا من أجله إلى اتخاذ هذه الاستعدادات العسكرية العظيمة هو روسيا. وإذا استُخدِمَت في أي وقت، فسيكون ذلك ضدَّ روسيا، وباستفزاز من روسيا. وبطريقته المتواضعة كان يسعى إلى تحسين العلاقات بين البلد الحبيب الغالي الذي وُلد فيه، والبلد المحبوب بنفس القدر الذي تبنَّاه. تلك الاجتماعات، التي أُقيمت، كما بدا له، لنشر شكوكٍ غير عادلة وغير مبرَّرة، كانت واحدةً من أكبر الصعوبات في طريقه. لم يكن يمكنه الشكُّ للحظة في وطنيةِ هؤلاء السادة على المنصة. وسيُثبتون

ذلك بشكلٍ أكثرَ إفادة، سواءٌ لأنفسهم أو لبلدهم، إذا تخلَّوا عن حملتهم الحاليَّة المتحيزة والضارة، وأصبحوا أنصارًا لرابطته.

كانت انحناءةُ سيمان البسيطة للرئيس مرحةً، ومتسامحة، وحزينة بعضَ الشيء. لم تفعل كلماتُ الدوق القليلة، التي استُهِلَّت باحتجاجٍ ساخط على تدخُّل داعيةٍ ألماني في اجتماع وطني إنجليزي، شيئًا لإبطال التأثيرِ الذي أحدثَه هذا الغريبُ غير المرغوب فيه. عندما انفضَّ الاجتماع، كان من غير المؤكَّد ما إذا كان قد اكتُسِب نصيرٌ واحد لقضية الخدمة الوطنية. عاد الدوق إلى المنزل مفعمًا بالغضب، وضحك سيمان ببهجةٍ حقيقية عندما صعد إلى سيارة الأجرة التي كان دوميني قد أوقفها، عند زاوية الشارع.

علَّق: «لقد وعدتُك بالترفيه.» وأضاف قائلًا: «اعترف أنني أوفيتُ بوعدي.»

ابتسم دوميني بغموض. وقال: «لقد نجحتُ بالتأكيد في استغفال عددٍ من الرجال المحترمين وذوي النوايا الحسنة.»

قال سيمان موافقًا: «إن المعجزة تمتدُّ إلى أبعدَ من ذلك. والليلة، مع بساطتها، هي مثال سامٍ على الحماقات المتعالية للديمقراطية. فإنجلترا تختنق ببطءٍ وتتقيَّد بالكثير من الحرية. إنها مثل طفلة أفرطَت في أكل المربَّى. تخيَّل، في بلدنا العزيز، أن يُسمح لرجلٍ إنجليزي باعتلاء المنصة والتحدُّث بإسهاب دون إزعاج بدعاية إنجليزية في معارضةٍ مدمِّرة للمصالح الألمانية. إن ما يُسمى بحريةِ الرجل الإنجليزي مثل الوقواق في عُشِّه السياسي. يجب أن تُحكم البلدان. لا يمكنها أن تحكم أنفسها. وقت الحرب سيثبت كلُّ ذلك.»

تساءل دوميني: «مع ذلك، في أي أزمةٍ كبيرة في تاريخ أمة، من المؤكد أن ثَمة أمانًا في وجود العديد من المستشارين، أليس كذلك؟»

أجاب سيمان: «سيوجد دائمًا عددٌ كبير من المستشارين في ألمانيا كما في إنجلترا. مشكلة هذا البلد هي أنه سيُعَبَّر عنهم جميعًا علنًا وفي الصحافة، وسيكون لكل رأي أنصارُه، وستُقَسَّم الحكومة إلى أحزاب. في ألمانيا، يُقَرَّر المصير الحقيقي للبلاد في الخفاء. يوجد مستشارون هناك أيضًا، مستشارون جادون وحكيمون، لكن لا أحد يعرف وجهات نظرهم المختلفة. كلُّ ما يعرفه المرءُ هو النتيجة، التي تنطق بها شفتا القيصر، ويُنطَق بها على نحوٍ حاسم.»

كان دوميني يُظْهِر أماراتِ اهتمامٍ نادرٍ بمحادثة رفيقه. كانت عيناه لامعتَين، وبدا أن ملامحه التي عادة ما تكون فاقدة الحس قد زادت قدرتُها على الحركة والتعبير عن القلق. وضع يده على ذراع سيمان.

وقال: «اسمع، نحن في لندن، وحدنا في سيارة أجرة، آمنان من أي تنصُّت محتمل. أنت تُبشر بميزة أن يقودَ القيصرُ بلدنا. هل تعتقد حقًّا أن القيصر هو الرجل المناسب للمهمة القادمة؟»

لمعت عينا سيمان الضيِّقتان. ونظر إلى رفيقه بارتياح. تجعَّد جبينه، واختفت ابتسامتُه الدائمة. كان رجلًا ذكيًّا.

صاح: «ها أنت ذا تستيقظ من سُبات أفريقيا يا صديقي! لقد بدأتَ في التفكير.» وتابع قائلًا: «كما سألتَني، سأجيب. القيصر حالم مغترٌّ متحذلق، أكبرُ مغرور عاش على الإطلاق، بشخصية مريضة، وتوقٍ متواصل للأضواء. لكنه أيضًا عبقريٌّ في الحكم. أعني أنه وسيط رائع للتعبير عن القوة العقلية لمستشاريه. سوف تمرُّ كلماتهم من خلال شخصيته، وسوف يُصدِّق أنها كلماته. علاوة على ذلك، سوف تبدو كأنها كلماتُه. سيرى نفسه الفارسَ ذا الدرع اللامع. وسوف تنحني كل أوروبا أمام هذا القيصر الخيالي، ولن يُدرِك أحدٌ غيرنا، نحن الذين في الخلفية، مدى حماقته. لا يوجد أيُّ شخصٍ آخر قابلته في هذا العالم مناسب تمامًا لقيادة أمتنا العظيمة إلى المصير الذي تستحقه. والآن، يا صديقي، غدًا، إن شئتَ، سنتحدَّث عن هذه الأمور مرة أخرى. لديك الليلةَ أمورٌ أخرى لتُفكِّر فيها. أنت ذاهبٌ إلى الأماكن العظيمة التي لا أتدخَّل فيها أبدًا. لديك ساعة لتغيير ملابسك والاستعداد. يتوقَّع الأمير فون تيرنيلوف مجيئك في الساعة الحادية عشرة.»

الفصل السابع

أُقيم حفل عشاء وحفل استقبال صغير للغاية بعد ذلك في السفارة العظيمة في كارلتون هاوس تيراس. كان السفير، الأمير تيرنيلوف، يودِّع ابنة عمِّ زوجته، الأميرة إيدرستروم، آخرَ ضيوفه. أخذتْه جانبًا للحظة.

قالت: «كنتُ أتمنى أن أتحدَّث مع سموك طوال المساء.»

أجاب: «وأنا أيضًا يا عزيزتي ستيفاني.» وتابع قائلًا: «الوقت مبكِّر جدًّا. دعينا نجلس للحظة.»

قادها نحو أريكةٍ لكنها هزَّت رأسها.

وقالت: «لديك موعدٌ في الساعة الحادية عشرة والنصف.» وأضافت قائلةً: «وأتمنى أن تلتزم به.»

«أنت تعلمين بشأنه إذن؟»

«تناولتُ طعام الغداء اليوم في مطعم المشويات بفندق كارلتون. والتقيتُ في غرفة الاستقبال وجهًا لوجه مع ليوبولد فون راجاشتين.»

لم يُبْدِ السفير أيَّ ملاحظة. بدا أن رغبته هي أن يسمع أولًا كلَّ ما تقوله رفيقته. بعد لحظةِ توقُّف واصلت:

«تحدثتُ إليه، وأنكر نفسَه. لي! أظن أن تلك كانت أسوأَ لحظات حياتي. لم أعانِ هكذا من قبل. ولن أعاني كثيرًا مرة أخرى.»

تمتم الأميرُ متعاطفًا: «هذا أمرٌ مؤسف للغاية.»

تابعت قائلةً: «هذا المساء، تلقيت زيارةً من رجلٍ اعتبرته في البداية عضوًا ضئيلًا من الطبقة الوسطى الألمانية. لكنني علمت شيئًا عن مركزه الحقيقيِّ لاحقًا. جاء لي ليشرح أن

ليوبولد كان يعمل في هذا البلد في المخابرات السرية، مستخدمًا الاسم الذي أعطاني إياه، السير إيفرارد دوميني، بارونيت إنجليزي، فُقِد منذ مدةٍ طويلة في أفريقيا. هل تعرف أيَّ شيء عن هذا الأمر؟»

«أعلم أنني سأتلقَّى هذه الليلةَ زيارةً من السير إيفرارد دوميني.»

«هل سيعمل تحت رعايتك؟»

ردَّ الأمير بشكل ودي: «على الإطلاق، فأنا لا أميل بشكل إيجابي نحو شبكة التجسس هذه. فمدرسة الدبلوماسية التي نشأتُ فيها تُحاول العمل من دون مثل هذه الوسائل الدنيئة.»

قالت: «أنا أدركُ ذلك.» وأردفت قائلةً: «لكن ليوبولد قادم، الليلة، ليُعرب عن احترامه لك.»

أكَّد السفير: «إنه ينتظرني الآن في مكتبي.»

تابعت: «ستُسدي لي معروفًا وتنقل له رسالة مني.» وتابعت قائلةً: «أشار هذا الرجل سيمان لي إلى عدم حكمة وجود أيِّ علاقة بيني وبين ليوبولد، في ظل الظروف الحاليَّة. لقد استمعت إلى كل ما قاله. واحتفظت بقراري. لقد نظرتُ الآن في الأمر. سأقبل بحل وسط للضرورة. سأرضى بالتعرُّف على السير إيفرارد دوميني، ولكني سأفعل ذلك.»

قال السفير مفكِّرًا: «من ناحيتي، لا أعرف حتى ما هي مهمة فون راجاشتين هنا، ولكن إذا قرَّروا في برلين أنه، من أجل الحفاظ الأكمل على وضعِ تخفِّيه، فإن العلاقة بينك وبينه أمر غير مرغوب فيه ...»

وضعت أصابعها على ذراعه.

قالت له آمرةً: «توقَّف!» وأضافت قائلةً: «أنا لست من برلين. أنا لست ألمانية. أنا لست نمساويةً حتى. أنا مجَرية، ومع أنني على استعداد لمعرفة اهتماماتكم، إلا أنني لا أرغبُ في جعلها أهمَّ من حياتي الخاصة. إنني أضع شروطًا، لكنني لا أستسلم. وسأناقش هذه الشروط مع ليوبولد. آه، كن لطيفًا معي!» واصلت، مع تغيير مفاجئ في صوتها. «منذ هذه الدقائق القليلة في منتصف النهار، عشت في حلم. شيء واحدٌ فقط يمكن أن يُهدِّئني. يجب أن أتحدَّث معه. يجب أن أقررَ معه ما سأفعله. هل ستساعدني؟»

أقر قائلًا: «التعارف بينكِ وبين السير إيفرارد دوميني هو بالتأكيد أمرٌ طبيعي تمامًا.»

قالت متوسلةً: «انظر إليَّ.»

استدار ونظر في وجهِها. كانت توجد خطوطٌ داكنة تحت عينيها الجميلتين؛ وكان ثَمة شيء يبعث على الشفقة في انثناءةِ فمها. تذكَّر أنه على الرغم من أنها كانت تتحرك طوال

المساء بكل كرامة، وهو ما كان أمرًا فِطريًّا لديها، فقد سمِع أكثر من تعليق متعاطف عن مظهرها.

علَّق بلطف: «أستطيع أن أرى أنك تُعانين.»

تابعت: «عيناي متقدتان، وثمة لهيبٌ متأجج بداخلي.» وأضافت قائلةً: «يجب أن أتحدَّث إلى ليوبولد. طلبتْ مني فريدا البقاء والتحدُّث معها لمدة ساعة. سيارتي تنتظر. رتِّب معه أن يُقلَّني إلى المنزل. أوه! صدقني، يا صديقي العزيز، أنا امرأة تتمتَّع بإنسانية مرهفة، ولا يوجد شيء في العالم يمكن ربحُه بمعاملتي كما لو كنت مصنوعة من خشب أو حجر. يمكنُني أن أراه الليلة دون مراقبة. إذا رَفَضت، فسوف سأتخذ وسائلَ أخرى. لن أعطي أيَّ وعود. لن أعدك حتى أنني لن أصرخ أمامه في الشوارع بأنه كاذب، وأن حياته كذبة. سأدعوه ليوبولد فون راجاشتين ...»

توسَّل إليها: «صه!» وأضاف قائلًا: «ستيفاني، أنتِ متوترة. لم أُجِب بعدُ على مناشدتكِ.»

«هل توافق؟»

وعدَها قائلًا: «أنا موافق.» وأردف قائلًا: «بعد مقابلتنا، سأحضر الشاب إلى غرفة فريدا وأقدِّمه لك. ستكونين هناك. يمكنه أن يعرض عليك مرافقته.»

انحنت فجأةً وقبَّلتْ يده. وبدا على وجهها ارتياح هائل.

وقالت: «الآن لن أؤخركَ أكثرَ من هذا. فريدا تنتظرني.»

تمشَّى السفير بهدوء باتجاه مكتبه في الجزء الخلفي من المنزل، حيث كان دوميني ينتظرُه.

قال الأول وهو يمدُّ يده: «أنا سعيد برؤيتك.» وتابع قائلًا: «أرغب في التحدُّث إلى شخصيتِك الحقيقية لمدة خمس دقائق. بعد ذلك، لبقية وقتك في إنجلترا، سأحترم هُويتك الجديدة.»

انحنى دوميني في صمت. أشار مضيفه إلى الخِوان.

تابع: «تعالَ، يوجد سيجار وسجائر بجوارك، وويسكي وصودا في صوان الخِوان. خذ راحتك على ذلك المقعد هناك. حقًّا لم تغيِّرك أفريقيا إلا قليلًا جدًّا. هل تتذكَّر لقاءنا السابق في ساكسوني؟»

«أتذكَّر ذلك تمامًا، يا صاحب المعالي.»

تابع السفير قائلًا: «لقد عرَف جلالة الملك كيف يحافظ على البلاط في تلك الأيام.» وأضاف: «كان المرء يميل إلى تصديق نفسه في حفلةٍ ريفية إنجليزية. ومع ذلك، فإن هذا شيء من الماضي. تعرفُ، بالطبع، أنني أرفض كليًّا وضعك الحاليَّ هنا، أليس كذلك؟»

«هذا ما فهمتُه، يا صاحب المعالي.»

قال الأمير وهو يُشعل سيجارًا: «لن يكون بيننا تحفُّظ.» وأردف قائلًا: «أعرف جيدًا أنك تُشكِّل في هذا البلد جزءًا من شبكة تجسُّس أعتبرها غيرَ ضرورية على الإطلاق. تلك ببساطة مسألة منهجية. ليس لديَّ شك في أنك هنا لنفس هدفي، الهدف الذي أعلن القيصرُ لي بشفتيه أنه الأقرب إلى قلبه؛ وهو توطيد أواصر الصداقة بين ألمانيا وإنجلترا.»

«هل تعتقد، يا سيدي، أن هذا ممكن؟»

كان الردُّ الجاد: «أنا مقتنعٌ بذلك.» وتابع قائلًا: «لا أعرف بالضبط طبيعة عملك هنا، لكنني سعيدٌ بأن تُتاحَ لي فرصة أن أعرض عليك قناعاتي. أعتقد أن شخصية بعض رجال الدولة البارزين في برلين قد أُسيء فَهمُها وتمثيلها. أجد في كلٍّ من يحيط بي رغبة جادة وصادقة في السلام. لقد اقتنعتُ بأنه لا يوجد رجل دولة واحد في هذا البلد يرغبُ في الحرب مع ألمانيا.»

كان دوميني يستمعُ باهتمام، بطريقة شخص يسمع أمورًا غير متوقَّعة.

تجرَّأ وقال: «ولكن، معاليك، ماذا عن الأمر من وجهة نظرنا؟ يوجد كثيرون جدًّا في بلدنا، ممن أعرفُهم أنا وأنت، يتطلعون إلى حرب مع إنجلترا باعتبارها أمرًا لا مناص منه. نعتقد جميعًا أن ألمانيا يجب أن تُصبح أعظم إمبراطورية في العالم. يجب أن تصعد إلى هناك، كما قال أحدُ أصدقائنا ذات مرة، واضعة قدَمها على رقبة الأسد البريطاني.»

قال السفير بجدية: «تفكيرك عتيق، وعفا عليه الزمن.» وأضاف قائلًا: «فهمت الآن لماذا أرسَلوك إليَّ. لقد وَلَّتْ تلك الأيام. يوجد متَّسَع في العالم لبريطانيا العظمى وألمانيا. إن تفكُّك روسيا في المستقبل القريب أمرٌ مؤكَّد. يجب أن نبحث باتجاه الشرق عن أي توسُّع كبير في الأراضي.»

«هل بُتَّ في هذه الأمور؟»

«قطعًا! إنها تُشكِّل جوهرَ مهمتي هنا. إنني مفوَّض للسلام، وكلما رأيت رجال الدولة الإنجليز، وفهمت وجهة النظر البريطانية، زاد تفاؤلي بشأن نجاح جهودي. هذا هو السبب في أن كل هذا التجسُّس الخارجي الذي يهتم به سيمان إلى حد كبير يبدو لي أحيانًا غيرَ حكيم وغير ضروري.»

استفسر دوميني: «وماذا عن مهمتي؟»

أجاب الأمير: «لم يُكْشَف عن طبيعتها بعدُ، ولكن، كما فهمت، إذا كان من المفترض أن تُصبح مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بمهمتي، فأنا متأكدٌ من أنك ستجد على الفور أن موضوعها أيضًا هو السلام.»

نهض دوميني واقفًا، واستعدَّ للمغادرة.

وتمتم: «ستتكشَّفُ لنا هذه الأمور.»

قال تيرنيلوف بنبرةٍ مختلفة: «يوجد فقط موضوعٌ أكثرُ خصوصية إلى حدٍّ ما أريد أن أحدثك بشأنه.» وأردف قائلًا: «الأميرة إيدرستروم في الطابق العلوي.»

«في هذا المنزل؟»

«تنتظر أن تتحدثَ معك. صديقنا سيمان كان معها هذا المساء. أفهم أنها راضيةٌ عن الاشتراك في الوضع الحالي. ومع ذلك، فإنها تضعُ شرطًا واحدًا.»

«ما هو؟»

«إنها تُصرُّ على أن أُقَدِّمها إلى السير إيفرارد دوميني.»

لم يُحاول الأخير إخفاء قلقه.

واحتجَّ قائلًا: «لستُ بحاجةٍ إلى أن أوضح لك، يا سيدي، أن أيَّ علاقة بيني وبين الأميرة من المرجَّح أن تزيد إلى حدٍّ كبير من صعوبات موقفي هنا.»

تنهَّد السفير.

أقرَّ قائلًا: «أنا أقدِّر ذلك تمامًا.» وتابع قائلًا: «لقد سعيت أنا وسيمان للتفاهم معها، ولكن، كما تعلم بلا شك، الأميرة امرأة ذات إرادة قوية جدًّا. وتتمتَّع أيضًا بمكانة قوية هنا، وثمة رغبة ملحَّة من البلاط الملكي في برلين لتهدئة النبلاء المجريين بكل الطرق. ستفهم بالطبع أنني أتحدَّث من وجهة نظر سياسية بحتة. لا أستطيع أن أتجاهل حقيقة علاقاتك المؤسفة مع الأمير الراحل، ولكن عند النظر في الموقف الحالي، أنا متأكد من أنك ستتذكَّر المصالح الكبرى.»

سكت زائرُه للحظة.

وقال: «هل تقول إن الأميرة تنتظر هنا؟»

«إنها مع زوجتي وتطلبُ أن ترافقها للمنزل. كما تتطلَّع زوجتي إلى شرف تجديد تعارفِها بك.»

قرَّر دوميني: «سأقبلُ توجيهات سموك في هذا الشأن.»

كانت الأميرة تيرنيلوف امرأةً ذات ثقافة عالمية، وفنانة، وما زالت امرأة جذابة للغاية. استقبلَت الزائرَ الذي أحضره لها زوجها في غرفة صغيرة ساحرة للغاية مؤثَّثة على طرازِ أبسطِ حِقبة فرنسية، وبذلَت قُصارى جهدها لتخفيف توتُّرٍ ما فهمتْ أنه لا بد أن يكون لحظةً صعبة إلى حدٍّ ما.

قالت وهي تُمسك بيده: «يسعدنا أن نرحِّب بك في لندن، سير إيفرارد دوميني، وآمُل أن نراك هنا كثيرًا. أريد أن أقدِّمك إلى ابنة عمي، المهتمة بك، يجب أن أخبرك بصراحة، بسبب شبهك بصديق عزيز جدًّا لها. ستيفاني، هذا السير إيفرارد دوميني — الأميرة إيدرستروم.»

مدَّت ستيفاني، التي كانت جالسةً على الأريكة التي نهضت منها ابنةُ عمها لتوها، يدَها إلى دوميني، الذي انحنى لها بشكل رسمي للغاية. كان ثوبها أسودَ تمامًا. وحول رقبتها تومض ماساتٌ رائعة، وكانت ترتدي أيضًا إكليلًا على الطراز المجري، منخفضًا قليلًا على جبهتها. كان أسلوبها ونبرتها لا يزالان يشيران إلى قدرٍ من التمرد على الوضع.

سألت: «هل سامحتَني على إصراري هذا الصباح؟» وأضافت قائلةً: «كان من الصعب عليَّ أن أصدِّق أنك لم تكن حقًّا الشخصَ الذي حسبتُه أنت.»

أجاب دوميني: «تحدثَ معي أشخاص آخرون عن الشبَه.» وأردف قائلًا: «إنه لمن دواعي أسفي عدمُ قدرتي على ادِّعاء أنني لست أكثرَ من مجرد بارونيت من نورفولك.»

«ألا تملكُ أيَّ خبرة سابقة مع البلاط الملكي الأوروبي؟»

«على الإطلاق.»

«لغتك الألمانية نقيةٌ بشكل رائع مقارنةً برجلٍ قليل الأسفار.»

«اللغات كانت الإنجازَ الوحيد الذي حققتُه من أيام الدراسة المهدرة.»

استفسرَت الأميرة تيرنيلوف: «هل ستعطي كل اهتمامك لنورفولك، يا سير إيفرارد؟»

أجاب دوميني: «نورفولك قريبة جدًّا من لندن هذه الأيام، ولقد عشت أكثرَ من نصيبي من الوحدة خلال السنوات القليلة الماضية. آمل أن أقضيَ جزءًا من وقتي هنا.»

أصرَّت الأميرة: «يجب أن تتناول العشاء معنا ذات ليلة وتخبرنا عن أفريقيا. سيكون زوجي مهتمًّا جدًّا.»

«هذا لطفٌ منكِ.»

نهضت ستيفاني ببطء، وانحنت برشاقةٍ وقبَّلَت مضيفتها على خدَّيها، ومدت يدها إلى الأمير الذي رفعها إلى شفتيه. ثم التفتَت إلى دوميني.

وسألت: «هل ستتكرَّم وتُرافقني إلى المنزل؟» وتابعت قائلةً: «بعد ذلك، يمكن لسيارتي أن تأخذك إلى أيِّ مكان تختار الذهاب إليه.»

وافق دوميني على ذلك بقوله: «سأكون سعيدًا جدًّا.»

ودَّع، هو الآخر، مضيفَيه. سلَّمه خادمٌ في القاعة قبَّعته ومعطفه، واتخذ مكانه في السيارة بجانب ستيفاني. لمست المفتاح الكهربائي عندما تحرَّكا بسلاسة. وأظلمت السيارة.

تمتمت قائلة: «أظن أنني لم أستطِع تحمُّل لحظة أخرى من هذا التلاعب بالكلمات. ليوبولد — نحن وحدنا!»

لمح وميض مجوهراتها، وبريقَ عينَيها الناعمَ وهي تميل نحوه. بدا صوته، حتى لنفسه، قاسيًا وحادًّا.

«أنتِ مخطئة أيتها الأميرة. اسمي ليس ليوبولد. أنا إيفرارد دوميني.»

قالت بهدوء: «أوه، أعلم أنك عنيدٌ جدًّا، عنيد جدًّا ومخلص جدًّا لبلدك الرائع، لكن لديك روحٌ يا ليوبولد؛ أنت تعلم أنه توجد واجبات إنسانية توازي في عظَمتِها أيًّا من الواجبات التي فرضتها عليك دولتُك. أنت تعرف ما أبحث عنه فيك، ما يجب أن أجده فيك وإلا فلأذهبْ إلى الجحيم، شاعرةً بالخجل والبؤس.»

شعر بحلقه جافًّا فجأة.

تمتم: «اسمعي، حتى تأتيَ الساعة المرتقبة، يجب أن أبقى إيفرارد دوميني سواءٌ لكِ أو للعالم، وحدي أو وسط حشد. ثمة طريقة واحدة فقط لإنجاز مهمتي المحددة.»

بكت بقليلٍ من الهستيريا.

وتوسَّلَت: «انتظر.» وتابعت قائلةً: «سأُجيبُك بعد قليل. أعطِني يدك.»

فتح أصابعه التي كانت مضمومة، وشعر بقبضةِ يدها الساخنة تُمسك بيده بشغف، وتجذبها نحوها حتى وضعت أصابع يدها الأخرى عليها أيضًا. وجلسَت لعدة لحظات.

وتابعت بعد وقتٍ قصير: «ليوبولد، أتفهَّم الأمر. أنت تخشى أن أخون حبنا. لديك مبرِّر. فأنا مفعمة بالدوافع والشغف، كما تعلم، لكنني أستطيع أن أتحكَّم في نفسي. لا حاجة إلى معرفةِ أيِّ مخلوق في هذا العالم بطبيعة علاقتنا عندما نكون وحدنا. سأكون حذِرة. أقسِم لك. لن أنظر إليك أبدًا كما لو أن قلبي يتألم بملاحظتك، عندما نكون في حضور أشخاص آخرين. لا تأتِ إلا نادرًا كما تشاء. ولن أستقبلك إلا بقدرِ ما تقول. لكن لا تُعاملني بهذه الطريقة. قل لي إنك عُدت. تخلَّص من هذا القناع البشع، ولو للحظة فقط.»

جلس ساكنًا، رغم أن يدَيها كانتا تجذبان يديه، وشفتاها وعيناها تتوسَّلان إليه.

قال بتعنُّت: «أيًّا كان ما سيأتي بعد ذلك، حتى يحينَ الوقتُ أنا إيفرارد دوميني. لا يمكنني استغلالُ مشاعرك تجاه ليوبولد فون راجاشتين. فهو ليس هنا. إنه في أفريقيا. ربما في يومٍ من الأيام يعود إليك ويكون كلُّ ما تتمنَّينه.»

ألقت يديه بعيدًا. شعر بعينَيها تخترقان عينيه، هذه المرة بشيء أشبهَ بالفضول الغاضب.

صاحت: «دعني أنظر إليك.» وأضافت قائلةً: «دعني أتأكد. هل هذا مجرَّد تغييرٍ مروِّع أم أنك مُحتال؟ قلبي يزداد خوفًا. هل أنت الرجل الذي انتظرته طوالَ هذه السنوات؟ هل أنت الرجل الذي أعطيت له شفتَيَّ، ومن أجله ضحَّيت بسمعتي، الرجل الذي قتل زوجي وتركني؟»

ذكَّرها بصوتٍ يرتجف من التأثر: «كنتُ منفيًّا.» وأضاف قائلًا: «أنتِ تعلمين ذلك. وفيما يتعلَّق بالأمور الأخرى، أنا منفي الآن. وأعمل على التكفير عن ذنبي.»

مالت إلى الخلف في مقعدها بإرهاق. وأغمضت عينيها. ثم دخلت السيارةَ عبر بوابة حديدية وتوقَّفت أمام بابها الذي فُتح على الفور. وأسرع خادمٌ نحوهما. التفتت إلى دوميني. وناشدته: «ألن تدخل، ولو وقتًا قصيرًا؟»

أجاب بطريقة رسمية: «إذا سمحتِ لي بزيارتك، فسوف يسعدني ذلك كثيرًا.» وأضاف قائلًا: «سأزورك، إذا سمحتِ لي، عند عودتي من نورفولك.»

مدَّت إليه يدها بابتسامةٍ حزينة.

دعته قائلةً: «دع خدَمي يأخذوك إلى أي مكان تريده، وتذكَّر»، وأضافت وهي تخفض صوتها، «أنا لا أعترف بالهزيمة. هذا ليس آخرَ كلام بيننا.»

اختفت بعصبيةٍ نوعًا ما، يُرافقها عبر الباب الأمامي الكبير لأحد قصور لندن القليلة كبيرُ خدمٍ جذابٌ وخادم يرتدي زيًّا خاصًّا بمنزلها. عاد دوميني إلى فندق كارلتون، حيث وجد في الصالة الفرقةَ تعزِف، والجماهير لا تزال جالسة حولها، وكان سيمان واضحًا، بملابس العشاء الأنيقة وطريقته الملائكية التي تجذب انتباهَ معارفه الجدد المحتملين. رحَّب بدوميني بحماس.

وصاح قائلًا: «تعالَ، لقد سئمت الوِحدة! بالكاد رأيت وجهًا أتعرَّف عليه. لساني جافٌّ من قلة الكلام. أحب التحدث، ولم يكن يوجد مَن أتحدث معه. ربما كان من الممكن أن أجعل منزلي الصغير في فورست هيل مفتوحًا.»

«سأتحدثُ معك إذا كنت ترغب في ذلك»، وعده دوميني بقليلٍ من الجدية، وهو يُلقي نظرةً خاطفة على الساعة ويطلب على عجلٍ ويسكي وصودا. وأضاف خافضًا نبرةَ صوته: «سأبدأ بإخبارك ما يلي.» وأضاف قائلًا: «لقد اكتشفت أكبرَ خطر عليَّ مواجهته خلال مهمتي.»

«ما هو؟»

«امرأة — الأميرة إيدرستروم.»

أشعل سيمان سيجارَه الذي لا غنًى عنه، ووضع إحدى رجليه القصيرتين السمينتين على الأخرى. وحدَّق برهةً بارتياح في قدمِه الصغيرة المغطاة بأناقة بحذاء مريح.

اعترف قائلًا: «أنت تُفاجئني.» وأضاف قائلًا: «لقد نظرت في الأمر. ولا أستطيع أن أرى أيَّ صعوبة كبيرة.»

أجاب دوميني: «إذن فأنت تغضُّ طرْفَك عنها عن عَمْد، وإلا فأنت جاهل تمامًا بحالة الأميرة المزاجية وطبيعتها.»

أجاب سيمان: «أعتقد أنني أتفهَّم كليهما، لكني ما زلت لا أرى أيَّ صعوبةٍ استثنائية في الموقف. بصفتك نبيلًا إنجليزيًّا، لديك الحق الكامل في الاستمتاع بصداقة الأميرة إيدرستروم.»

قال دوميني متهكمًا: «وأنا الذي ظننت أنك رجل عاطفي!» وأضاف قائلًا: «تصورت أنك تفهم القليل عن الطبيعة البشرية. ستيفاني إيدرستروم وُلدَت وترعرعتْ في المجر. حتى العِرق لم يُعلِّمها أبدًا ضبط النفس. أنت لا تفترضُ بجدية أنها بعد كل هذه السنوات، وبعد كلِّ ما عانته — وهي بالفعل عانت — ستكون راضية عن شكلٍ من أشكال الصداقة الضعيفة؟ أتحدث معك دون تحفُّظ، يا سيمان. لقد أوضَحَتْ هذه الليلة أنها لن تكون راضية عن أيِّ شيء من هذا القبيل.»

قال سيمان: «ما يحدث بينكما على انفراد ...»

قاطعَه رفيقه: «هراء!» وأضاف قائلًا: «الأميرة امرأة مندفعة، وعاطفية، وساذَجةٌ على نحوٍ واضح، ومع ذلك لديها قدرٌ كبير من وحشية الحيوانات البرِّية. من غير المحتمل أن تكون المؤامرات أو الضرورات السياسية أمرًا سهلًا معها.»

احتجَّ سيمان قائلًا: «لكنها بالتأكيد تفهم أن بلدك قد استدعاك لتأدية عملٍ عظيم؟»

هزَّ دوميني رأسه نفيًا.

وأوضح: «إنها ليست ألمانية.» وأضاف قائلًا: «على العكس من ذلك، مثل العديد من المجريِّين الآخرين، أظن أنها لا تحب ألمانيا والألمان. همُّها الوحيد هو المسألة الشخصية بيننا. إنها تعتبر أن كل لحظة من بقية حياتي يجبُ أن تُكَرَّس لها.»

علَّق سيمان: «ربما من الجيد أنك رتبتَ للذَّهاب غدًا إلى قصر دوميني. سوف أفكِّر في خُطة. يجب فعْل شيءٍ ما لتهدئتها.»

أُطفئت الأنوار. ونهض الرجلان رغم إرادتهما إلى حدٍّ ما. وشعر دوميني بانعدامِ رغبة غريبٍ في النوم، لكنه في الوقت نفسِه كان يريد التخلصَ من رفيقه. سارا معًا في القاعة المظلمة بالفندق.

وعَدَه سيمان: «سأتعامل مع الأمر من أجلك قدرَ استطاعتي.» وأضاف قائلًا: «في رأيي، سوف تُواجه غدًا الصعوبةَ الكبرى. أنت تعرف ما عليك التعامل معه في قصر دوميني.»

كان وجه دوميني شديد الإصرار والجدية.

قال: «أنا مستعد.»

كان سيمان لا يزال مترددًا.

سأل «هل تتذكَّر أنه عندما تحدَّثنا عن خططك في كيب تاون، أريتَني صورة — لليدي دوميني؟»

«أنا أتذكَّر.»

«هل يمكنني إلقاءُ نظرة أخرى عليها؟»

سحب دوميني، بأصابعه التي كانت ترتجف قليلًا، من جيب معطفه العلوي حافظةً جلديةً، وأخرج منها صورةً باليةً. نظر الرجلان إليها جنبًا إلى جنبٍ تحت أحد المصابيح الكهربائية التي تُركت مشتعلة. كان الوجهُ وجهَ فتاة، تكاد تكون طفلة، وبدت العينان الجميلتان مملوءتَين بنور غريب وجذَّاب. وكان ثمة شيء له الأثر نفسُه يمكن العثور عليه في الشفاه، ضَعفٌ معيَّن، مناشدة لمخلوق أقوى لتوفير الحب والحماية.

استدار سيمان بقليل من التذمُّر، وعلَّق قائلًا:

«إذا سمحت لنفسي بإعادةِ تخيُّل المشاعر العادية للإنسان العادي للحظة أو اثنتين، لتمكَّنت من الحصول على العشرات من أميراتك في وقتٍ أسرعَ من صاحبة تلك الصورة.»

الفصل الثامن

«ها هو ذا منزل أجدادك»، علَّق السيد مانجان، عندما انعطفت السيارة عند المنحنى الأولِ في الشارع المزروع بالأعشاب وظهر قصر دوميني في الأفق. وأضاف: «منزل جميل للغاية، أيضًا!»

لم يردَّ رفيقه. هبَّت عاصفة خلال الدقائق القليلة الأخيرة، ثم — كأنه شعر بالبرد — سحب قبَّعته فوق عينيه ورفع ياقةَ معطفه إلى أذنيه. أصبح المنزلُ، بواجهته المزدوجة الكبيرة، مرئيًّا الآن بوضوح — الشكل الخارجي الذي يُواجه الحديقةَ جنوبًا، بالطوب الأحمر البالي، من العصر الإليزابيثي، والجزء الخلفي الذي يُطل على المستنقعات والبحر قاتمٌ ومدعَّمٌ بالحجر، وملطَّخٌ بفعل الأحوال الجوية. واصل السيد مانجان محادثته الودية.

وقال: «لقد أبقينا المكان القديم مقاومًا للطقس، بطريقة أو بأخرى، ولا أظن أنك ستفتقدُ الأشجار كثيرًا. فقد أخذناها من أبعدِ مكان ممكن من الغابة البعيدة.»

سأل دوميني دون أن يُدير رأسه: «هل أخذت أيًّا منها من الغابة السوداء؟»

أجاب: «ولا جذع، وهذا لسببٍ ممتاز للغاية. فلن يقترب أيٌّ من الحطابين أبدًا من المكان.»

«إذن لا تزال الخرافة باقية؟»

«القرويون لديهم آراء غير معقولة للغاية حيال ذلك. فيوجد ما لا يقل عن اثني عشر شخصًا أعلنوا أنهم رأوا شبح روجر أنثانك، وعشرون أو أكثر سيُقسمون بكلِّ ما هو مقدَّس على أنهم سمعوا نداءه في الليل.»

استفسر دوميني: «ألا يزال يختار الحديقة والشرفة خارج المنزل للتجوُّل في منتصف الليل؟»

تردَّد المحامي.

وقال: «أعتقد أن الفكرة هي أن الشبح يشق طريقه للخروج من الغابة ويجلس على الشرفة أسفلَ نافذة الليدي دوميني. كلُّ هذا هراء بالطبع، لكن يمكنني أن أؤكِّد لك أن كل خادم وممرضة لدينا قد لاحظ الأمر في غضونِ شهر. ذلك هو السبب الوحيد الذي جعلني لم أجرؤ منذ مدة طويلة على التوصية بضرورة التخلص من السيدة أنثانك.»

«هل هي لا تزال ترعى الليدي دوميني، إذن؟»

أوضح المحامي: «ببساطةٍ لأننا لم نستطِع أن نجعل أي شخص آخر يبقى هناك، وسيادتها ترفض قطعيًّا مغادرة القصر. بيني وبينك، أظن أن الوقت قد حان لإجراء تغيير. سنجري محادثة بعد العشاء، إذا لم يكن لديك أيُّ اعتراض. كما ترى، تركنا كلَّ الأشجار في الحديقة»، تابع بنبرةٍ من الرضا. «إنها مكان جميل في فصل الربيع. كنتُ هنا في مايو الماضي لمدة ليلة، ولم أرَ قطُّ مثلَ نبات الحوذان هذا في حياتي. كان المرعى يُغطي تقريبًا أرجل الأبقار، وكانت أزهار الجريس الزرقاء رائعة في غابة المنزل. في الربيع الماضي جاءت جماعة الرسامين المحبين للطبيعة من فلانكني وتجوَّلوا في المكان دون قيود.»

علَّق دوميني بعبوس، وهو يُحدِّق باتجاه حديقة المطبخ المسيَّجة: «لقد سقطت بعض الجدران القديمة، كما أرى.»

اندهش السيد مانجان للحظة.

وذكَّر رفيقه قائلًا: «لقد سقط ذلك الجدار، على حد علمي، منذ عشرين عامًا.»

أومأ دوميني. وتمتم: «لقد نسيتُ.»

تابع المحامي: «بالمناسبة، لقد كتَبنا لك نقترحُ بيع صورة أو اثنتين، لتوفير تمويل للإصلاحات، ولكن حمدًا للرب أنك لم تردَّ! سيكون لدينا بعضُ العمال هنا بمجرد أن تقرِّر ما تريد القيام به. يؤسفني أن أقول» أضاف، وهم يعبُرون بوابة حديدية ويدخلون آخِرَ منعطف أمام المنزل: «إنك لن تجد الكثيرَ من الوجوه المألوفة للترحيب بك. ها هو ذا لوفيبوند، البستاني الذي سيُمكنك بالكاد أن تتذكَّره، وميدلتون، كبير الحراس الذي كان حقًّا هبةً من السماء فيما يتعلق بالطرائد. لا أحدَ على الإطلاق بالداخل، باستثناء — السيدة أنثانك.»

وقفت السيارة في تلك اللحظة أمامَ الشرفة الكبيرة. لم يكن يوجد أي مظهر يدلُّ على مراسم لحفل استقبال. وكان عليهم حتى قرع الجرس قبل أن يفتح البابَ خادمٌ جاء من المدينة منذ بضعة أيام. في الخلفية، وقف رجل مسنٌّ بسوالف بيضاء وبشرة سمراء شديدة الجفاف مثل قطعةٍ من الرَّق، يرتدي معطفًا بنيًّا مخمليًّا، وبنطالًا وسروالًا ضيقًا

من القطن المتين، يتكئ بشدة على عصًا طويلة من خشب الدردار. بالإضافة إلى نصف دزينة من الخادمات الوافدات حديثًا، ورجل آخر كان يأخذ الأمتعة. تولَّى السيد مانجان مسئولية الإجراءات.

قال وهو يضعُ يده على كتف الرجل العجوز: «ميدلتون، ها هو ذا سيِّدك يعود مرةً أخرى. كان السير إيفرارد سعيدًا جدًّا لسماع أنك ما زلت هنا؛ وأنت يا لوفيبوند.»

بكِلتا يدَيه أمسكَ الرجل العجوز بيد دوميني الممدودة.

وقال، وهو يُمعن النظر إليه بفضول: «أنا سعيد جدًّا أنك عُدت مرةً أخرى يا سيدي، ورغم ذلك يصعب عليَّ إخراجُ كلمات الترحيب من حلقي.»

قال دوميني بسرور: «آسفٌ لأنك تشعر بهذا الشعور حيال عودتي، يا ميدلتون.» وأضاف قائلًا: «لكن ما المشكلة في عودتي؟»

أجاب الرجل العجوز: «لا توجد مشكلة، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «إنه خبر سعيد — على الأقلِّ لنا. إن ما قد يئول الأمرُ إليه وأثره عليك هو ما يجعل المرءَ يكبح جماحَ نفسِه.»

انتصبت قامة دوميني أكثرَ من أي وقت مضى ليُعلن عن شخصيته القيادية في المجموعة الصغيرة.

قال مطمئنًا: «ستشعر بتحسنٍ حيال ذلك عندما نقضي يومًا أو اثنين مع طيور الدرَّاج، يا ميدلتون.» وأضاف، مستديرًا إلى الرجل الذي كان يقف في الخلفية بادي التجهُّم والانزعاج مرتديًا أفضلَ ملابسه: «لم تتغيَّر كثيرًا يا لوفيبوند.»

ردَّ الأخير بارتباكٍ بعضَ الشيء، محركًا يده نحو جبهته: «شكرًا يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «لا أستطيع أن أقول لك الشيء نفسَه يا سيدي. فالمناطق الأجنبية جعلتك أقوى وأكثرَ صلابة. اسمح لي أن أقول إنني لم أكن لأتعرف عليك، يا سيدي، وهذا مؤكد.»

تابع السيد مانجان، وشقَّ طريقه مرةً أخرى إلى المقدمة: «هذا هو باركنز، كبير الخدم الذي عينته في لندن. و...»

فجأةً حلَّ صمتٌ غريبٌ. فسكتت مجموعةُ الخادمات الصغيرة اللواتي كنَّ يتهامسن بشأن مظهر سيدهن الجديد. وتحولت كلُّ العيون لاتجاه واحد. وقفت فجأة أمامهم جميعًا امرأةٌ لم يلحظ أحدٌ قدومها، ولكن من الواضح أنها خرجت من أحد الأماكنِ الخفية في القاعة. كانت نحيفة مثل لوح الخشب، وترتدي ملابسَ شديدة السواد، وشعرها رمادي مصفَّف للخلف دون حتى ياقة بيضاء عند رقبتها. كان وجهها طويلًا ونحيلًا، وملامحها كبيرة بشكل غريب، وعيناها مملوءة بالغضب. تحدَّثت ببطءٍ شديد، ومع ذلك ظهر في نبرةِ صوتها أثرٌ من لهجةِ أهل الشمال.

قالت وهي تقف أمامه وكأنها تمنع تقدُّمه: «لا مكان لك في هذا المنزل، يا إيفرارد دوميني.» وتابعت قائلةً: «كتبت الليلة الماضية لإيقافك، لكنك أظهرتَ تهورًا غير لائق في القدوم. لا يوجد مكان هنا لقاتل. عُدْ من حيث أتيت، عُد إلى مخبئك.»

شهق مانجان: «سيدتي! هذا كثير جدًّا حقًّا!»

أجابت المرأة: «لم آتِ لأتجادل مع المحامين.» وتابعت قائلةً: «جئت لأتحدث معه. هل يمكنك مواجهتي، يا إيفرارد دوميني، أنت الذي قتلت ابني وأصبتَ زوجتك بالجنون؟»

كان المحامي سيردُّ عليها، لكن دوميني أشار إليه بأن يتنحى جانبًا.

وقال بصرامة: «سيدة أنثانك، عودي إلى عملك في الحال، وافهمي أن هذا المنزلَ ملكي، أدخُله أو أخرج منه عندما أريد.»

كانت عاجزةً عن الكلام للحظة، مندهشة من صرامة كلماته.

وقالت مهدِّدة: «قد يكون المنزل لك، يا سير إيفرارد دوميني، ولكن يوجد جزءٌ منه على الأقل لن تجرؤ على الوجود فيه.»

أجاب ببرود: «لقد نسيتِ نفسَكِ يا امرأة.» وأضاف قائلًا: «هلا تتفضلين بالعودة إلى سيدتك في الحال، والإعلان عن مجيئي، وإخبارها أنني أنتظر فقط إذنها قبل أن أدخل إلى جناحها.»

ضحكت المرأة بشكل مزعج وبشع. وثبَّتت عينيها على دوميني بفضول.

وقالت: «هذه كلماتٌ شجاعة.» وأضافت قائلةً: «لقد عُدت رجلًا أكثرَ صرامة. دعني أنظر إليك.»

تحرَّكت قَدمًا أو قدمَين إلى حيث كان الضوء أفضل. وببطء شديد ظهر عبوسٌ على جبهتها. كلما أمعنت النظر، قلَّت ثقتها.

تمتمت: «ثمة أشياءُ في وجهك لا أجدها.»

كان السيد مانجان سعيدًا بفرصةِ تأكيد قوله.

قال بغضب: «الحقيقة نادرًا ما تكون مهمة، سيدة أنثانك.» وأضاف قائلًا: «إذا سمحتِ لي أن أُسديَكِ نصيحة، فسوف تعاملين سيدك بالاحترام الذي يُخوِّله إياه منصبُه هنا.»

مرةً أخرى اشتاطت المرأة غضبًا.

قالت: «احترام! أي احترام لقاتل ابني؟ احترام! حسنًا، إن ظلَّ باقيًا هنا خلافًا لطلبي، فربما تُظهِر له سيادتُها ما يعنيه الاحترام.»

استدارت واختفَت. وعلى الفور بدأ الجميع في الانشغال بالأمتعة والتحدُّث. أخذ السيد مانجان ذراعَ موكله واصطحبه عبر القاعة.

وقال بقلق: «عزيزي سير إيفرارد، أشعر بالحزن الشديد لما حدث. ظننتُ أن المرأة ربما ستكون غاضبة، لكن لم يكن لديَّ أيُّ فكرة أنها ستجرؤ على إتيان مثل هذا التصرف الفظيع.»

استفسر دوميني وهو يتنهَّد: «إنها لا تزال — كما أفترض — الرفيقَ الوحيد الذي تتحملُه الليدي دوميني، أليس كذلك؟»

اعترف المحامي: «أخشى ذلك. ومع ذلك، يجب أن نرى الدكتور هاريسون في الصباح. يجب أن يُفْهَم بوضوح أنه إذا كان بقاؤها مصدرَ معاناة، فيتعين أن تتبنى سلوكًا مختلفًا تمامًا. لم أسمع أبدًا بشيء منافٍ للعقل كهذا طوال حياتي. سوف أزورها بنفسي بعد العشاء. سوف تشعر وكأنك في بيتك هنا في المكتبة، يا سير إيفرارد» تابع السيد مانجان، وهو يفتح بابَ جَناحٍ راقٍ للغاية على الجانب المواجه للبحر من المنزل. وقال: «إطلالة رائعة من هذه النوافذ، خاصة أننا قطعنا القليلَ من الأشجار. أرى أن باركنز قد جهَّز النبيذ. أخشى أن المشروبات تقليدٌ مهم يجب أن تبدأ به هنا. ستكون ممتنًّا لي عندما أخبرك بشيء، يا سير إيفرارد. لقد تعرضنا لضغوط شديدة أكثر من مرة، لكننا لم نَبعْ زجاجة نبيذ واحدة من المخازن.»

قبِل دوميني كأسَ النبيذ التي سكبها المحامي لكنه لم يشربها. بدا خلال الدقائق القليلة الماضية وكأنه مستغرق في التفكير.

وسأل فجأة: «مانجان، هل الاعتقاد السائد هنا أنني قتلت روجر أنثانك؟»

وضع المحامي الزجاجةَ وسعل.

أصر دوميني: «أريد إجابةً واضحة.»

جارى السيد مانجان الموقف. كان قد بدأ يفهم موكله.

واعترف قائلًا: «أنا متأكدٌ تمامًا، يا سير إيفرارد، أنه لا يوجد مخلوق واحد في هذه الأنحاء غير مقتنع بذلك. إنهم يعتقدون أنه جرى قتال وأنك كنتَ الأفضلَ فيه.»

تابع دوميني: «سامحني، إذا كان يبدو أنني أطرح أسئلة غير ضرورية. تذكَّر أنني أمضيتُ الجزء الأول من المنفى في أفريقيا في جهدٍ حثيث للغاية لمحو ذِكرى كلِّ ما حدث لي سابقًا في حياتي. إذن هذا هو الاعتقاد السائد؟»

صرَّح السيد مانجان، ممسكًا بالزجاجة مرةً أخرى، آخذًا في الاعتبار طريقةَ موكِّله التي كانت أكثرَ منطقية: «يبدو أن الاعتقاد السائد يتوافق جيدًا مع الحقائق.»

وأضاف: «في وقت زيارتك المؤسِفة للقصر، كانت الآنسة فيلبريج تعيش فعليًّا بمفردها في منزل القس بعد وفاة عمِّها المفاجئة هناك، مع السيدة أنثانك مدبِّرة المنزل. كان افتتان روجر أنثانك بها جَليًّا للحي بأكمله ومصدرَ إزعاج كبير للآنسة فيلبريج. أنا مقتنع بأن الليدي دوميني لم تُقدِّم أدنى تشجيع للشاب.»

سأل دوميني: «هل صدَّق أي أحد عكس ذلك؟»

كان الرد القاطع: «لا مخلوق.» وأضاف قائلًا: «ومع ذلك، عندما حضرتَ وأُغرِمتَ بالآنسة فيلبريج ونجحتَ في الحصول عليها، شعر الجميع أنه ستحدثُ مشكلة.»

قال دوميني بتأنٍّ: «كان روجر أنثانك مجنونًا.» وأضاف قائلًا: «سلوكه منذ البداية كان سلوكَ رجل مجنون.»

وافقه مانجان على ذلك قائلًا: «إن مدرِّسِي القرى من نوعٍ يوجين آرام ينجرفون تدريجيًّا إلى الجنون الفعلي.» وأضاف قائلًا: «الجميع متفقون في ذلك. بدأ الغموض عندما عاد من إجازته وسمع الأخبار.»

علَّق دوميني: «ما حدث بعد ذلك كان بسيطًا للغاية.» وأضاف قائلًا: «التقينا في الطرَف الشماليِّ من الغابة السوداء ذات مساء، وهاجمني كالمجنون. أفترض أني كنت الأفضلَ إلى حدٍّ ما، لكن عندما عدتُ إلى القصر، كانت ذراعي مكسورة، وكنت مغطًّى بالدماء وشبهَ فاقدٍ للوعي. وبضربة حظٍّ قاسية، كان أول شخص تقريبًا رأيته هو الليدي دوميني. كانت الصدمة كبيرة عليها ... ففقدَت الوعي و...»

أنهى المحامي كلامه: «ولم تَعُد إلى طبيعتها مطلقًا منذ ذلك الحين.» وأضاف قائلًا: «يا له من أمرٍ مأساوي للغاية!»

تابع دوميني، واقفًا أمام النافذة، ويداه مشبوكتان خلف ظهره: «كان الجزء القاسي من الأمر أن زوجتي منذ تلك اللحظة أُصيبت بهوسِ قتلي ... أنا، الذي قاتلتُ لمجرد الدفاع عن نفسي. كان هذا ما دفعَني لمغادرة البلاد يا مانجان — وليس الخوف من القبض عليَّ للتسبُّب في وفاة روجر أنثانك. كنت سأمثُل للمحاكمة من أجلِ ذلك في أي لحظة. كان الأمر الآخر هو ما حطَّمَني.»

غمغم مانغان بتعاطف: «بالتأكيد.» وأضاف قائلًا: «في واقع الأمر، كنت في مأمنٍ تمامًا من الاعتقال، كما اتضح بعد ذلك. فلم يُعْثَر على جثة روجر أنثانك منذ ذلك اليوم.»

«لو كان فقط ...»

«كان لا بد أن توجَّه لك تهمة القتل العمدي أو غير العمدي.»

ترك دوميني مكانه عندَ النافذة ورفع كأس نبيذه إلى شفتيه. يبدو أن الجانب المأساويَّ من هذه الذكريات، فيما يتعلق به، قد انتهى.

علَّق: «أظن أن اختفاءَ الجثة هو ما أدَّى إلى كل هذا الحديث عن أن روحه لا تزال تسكنُ الغابة السوداء.»

أقرَّ المحامي: «بلا شك.» وأضاف قائلًا: «فالمكان له سمعة سيئة بالفعل، كما تعلم. ولذلك، لا أظن أنَّ هناك قَرويًّا يمكن أن يعبُر الحديقة في هذا الاتجاه بعد حلول الظلام.»

نظر دوميني إلى ساعته وقاده إلى خارج الغرفة.

ووعد: «بعد العشاء، سأخبرك ببعض خرافات غرب أفريقيا التي ستجعل خرافاتنا المحليةَ تبدو واهية.»

الفصل التاسع

قال ضيفه، وهو يرتشفُ كأسه الثالثة من نبيذ البورت ذلك المساء: «أهنئك بالتأكيد من كل قلبي، يا سير إيفرارد، على مخازنك.» وأضاف قائلًا: «هذه أفضل كأس من سبعين كأسًا شربتها منذ مدةٍ طويلة، وهذا الرجل الجديد الذي أرسلته لك — باركنز — أخبرني أن هذا النبيذ متوفرٌ بكمية كبيرة.»

علَّق دوميني: «إنه مُعتَّق منذ مدة طويلة جدًّا.»

تابع المحامي: «كنتُ ألقي نظرةً على دفتر المخازن قبل العشاء، وأرى أنه لا يزال لديك نبيذُ سبعة وأربعين وثمانية وأربعين، وكمية صغيرة من نوعَين من الخمور الأقدم. يجب فعْل شيء حيالها.»

اقترح دوميني: «سنجرِّب إحداها ليلة الغد.» وأضاف قائلًا: «قد نقضي نصف الساعة أو نحوَ ذلك في المخازن، إذا كان لدينا متسَعٌ من الوقت.»

قال السيد مانجان بجدية: «وأود أن أقضيَ نصف ساعة أخرى في مقابلة السيدة أنثانك. بصرف النظر عن أي مسألة أخرى، لا أعتقد للحظة أنها الشخصُ المناسب الذي يجب أن يُعهد إليه برعاية الليدي دوميني. لقد قرَّرت أن أتحدَّث إليك حول هذا الموضوع، يا سير إيفرارد، بمجرد وصولنا إلى هنا.»

ذكَّر دوميني رفيقه: «السيدة أنثانك كانت مدبِّرة منزل السيد فيلبريج العجوز ومربيةَ زوجتي عندما كانت طفلة.» وأضاف قائلًا: «مهما كانت عيوبها، أعتقد أنها مخلصةٌ لليدي دوميني.»

اعترف المحامي: «قد تكونُ مخلصة لزوجتك، لكنني مقتنع بأنها عدوتك. الوضع لا يبدو لي مستقرًّا. السيدة أنثانك مقتنعة تمامًا بأنك قتلتَ ابنها، سواءٌ في قتال عادل أو لا. وتعتقد الليدي دوميني ذلك أيضًا، وقد كانت رؤيتك بعد المشاجرة هي ما قادها إلى

الجنون. لا يسَعُني إلا أن أصدِّق أنه سيكون من الأفضل لليدي دوميني أن يُرافقها شخصٌ ما غير متصل بهذا الفصل المؤسف من ماضيك.»

قال دوميني: «سوف نستشير الطبيب هاريسون غدًا.» وتابع بعد دقيقة من التردُّد: «أنا سعيد جدًّا لأنك جئت معي يا مانجان. أجد صعوبة كبيرة في العودة إلى أجواء تلك الأيام. بل إنني أحيانًا أجد صعوبة» أضاف بنظرة فضولية خاطفة عبر الطاولة: «في تصديق أنني الرجلُ ذاتُه.»

اعترف السيد مانجان: «ليس بهذه الصعوبة لأنني فعلت ذلك أكثر من مرة.»

أصرَّ دوميني: «أخبِرني بالضبط ما الجوانب التي تعتبرني قد تغيرتُ فيها؟»

اعترفَ قائلًا: «يبدو أنك فقدت قدرًا من المرونة، أو ربما ينبغي أن أُسميَها انعدام الصرامة في التصرف.» وأضاف قائلًا: «يوجد العديد من الأشياء المرتبطة بالماضي التي أجد أنه يكاد يكون مستحيلًا ربطُها بك. مثال تافه على ذلك» تابع، بابتسامة خفيفة، مميلًا رأسه نحو كأس مضيفه التي لم يشرب منها شيئًا. «أنت لا تشرب نبيذ البورت مثل أيِّ فرد من عائلة دوميني عرَفتُه من قبل.»

علَّق دوميني: «أخشى أنني لم أعتدْ أبدًا على مذاق نبيذ البورت.»

حدَّق المحامي فيه بحاجبَين مرفوعين.

وكرَّر دون أيِّ تعبير على وجهه: «لم تعتدْ على مذاق نبيذ البورت.»

سارع دوميني إلى التوضيح: «كان قصدي قول إنني لم أسترجع مذاقه.» وأضاف قائلًا: «كما ترى، في الأدغال كنا نشرب كمية مهولة من المشروبات الروحية، وهذا يُفسد طعم كل أنواع النبيذ.»

نظر المحامي بحسدٍ إلى بشرة مضيفه البرونزية الجميلة وعينيه الصافيتين.

وعلَّق بصراحة: «لديك مظهرُ مَن لم يشرب أيَّ شيء على الإطلاق، يا سير إيفرارد.» وأضاف قائلًا: «يجد المرءُ صعوبة في تصديق القصص التي كانت تدور قبل نحو عشرة أو خمسة عشر عامًا.»

«إنها بنية آل دوميني، على ما أظن!»

دخل كبيرُ الخدم الجديدُ الغرفةَ بهدوء وجاء إلى كرسي سيده.

وأعلن: «لقد قدمتُ القهوة في المكتبة، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «السيد ميدلتون، حارس الطرائد، جاء للتو، وسأل عما إذا كان يمكنه التحدثُ معك قبل أن يذهب إلى الفراش الليلة يا سيدي. يبدو في حالةٍ عصبية ومضطربة للغاية.»

أمر دوميني: «يمكنه أن يأتيَ إلى المكتبة في الحال؛ هذا إذا كنت مستعدًّا لتناول قهوتك، يا مانجان.»

وافق المحامي على ذلك قائلًا وهو ينهض: «بالطبع أنا مستعد. إن هذا النبيذ هديةٌ رائعة. شيء لا تستطيع مطاعمُ لندن أن تُقدِّمه لنا. لا ينبغي أبدًا شرب نبيذ البورت بعيدًا عن مكان تخزينِه.»

شقَّ الرجلان طريقهما عبر القاعة الجميلة للغاية، التي عانت جدرانُها قليلًا من نقص التدفئة، إلى المكتبة، وجلسا على مقعدَين مُريحين أمام مدفأة الحطب المتوهجة. قدَّم لهما باركنز بصمتٍ القهوةَ والبراندي. وبمجرد أن غادر الغرفة كان ثمة طرقٌ خفيف على الباب ودخل ميدلتون ببعض التردد.

أمره دوميني قائلًا: «تعالَ وأغلق الباب. ما الأمر يا ميدلتون؟ باركنز يقول إنك ترغب في التحدُّث معي.»

تقدَّم الرجلُ مترددًا. كان حزينًا وقلقًا بوضوح، ووجد صعوبة في الكلام. كان وجهُه يتلألأ بقطرات المطر التي وجدتْ طريقَها أيضًا، في شكل خطوط طويلة، إلى معطفه المخملي. وعبثت الرياحُ بشعره الأبيض وبعثرته.

قال دوميني معلقًا: «ليلة سيئة.»

أجاب الرجل العجوز بصوتٍ خشن: «إنني هنا لتجنُّب أن تصبح أسوأ، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «جئتُ لأطلب منك معروفًا وأتوسَّل إليك أن توافق عليه من أجل مصلحتك. ألا يمكن أن تنام في غرفة البلوط الليلة؟»

سأل دوميني: «ولمَ لا؟»

«لأنها بجوار غرفة سيادتها.»

«وماذا في ذلك؟»

كان الرجل العجوز قلقًا على نحوٍ واضح، لكن سيده، كما لو كان له هدف، رفَض مساعدته. نظر إلى مانجان وتمتم في نفسه.

طلب دوميني بكِياسة: «قلْ بالضبط ما تريده، ميدلتون.» وأضاف قائلًا: «السيد مانجان، ووالده، وجَدُّه هم محامو الضيعة لسنوات عديدة. إنهم يعرفون تاريخ عائلتنا كله.»

تابع ميدلتون بيأس: «لا يمكنني التواصل معك كما ينبغي، يا سيدي، وهذه هي الحقيقة.» وأضاف قائلًا: «فشكلك يبدو أكبرَ وصوتك أقوى. لا أبدو قريبًا منك كما كنت أتمنى، لأقول ما في قلبي.»

ذكَّره دوميني: «لقد مررتُ بوقتٍ عصيب يا ميدلتون.» وأضاف قائلًا: «لا عجب أنني تغيرت! لا يُهم، تحدَّث معي بصراحة.»

تابع الرجل المسن: «لقد كنتُ أنا أولَ مَن قابلك يا سيدي، عندما عُدتَ مترنحًا إلى المنزل في تلك الليلة عبر الحديقة، وذراعك تتدلَّى بجانبك بلا حولٍ ولا قوة، والدم يتدفَّق على وجهك وملابسك، وعيناك حمراوان — بلون الدم، كما يقولون. سمعت سيادتَها تنخرط في حالة هستيرية. رأيتها تضحك وتبكي كالمجانين، ليُساعدْنا الرب! هذا ما أصبحت عليه منذ ذلك الحين.»

كان الرجلان صامتَين. رفع ميدلتون صوته، وتحدَّث بحماس شديد. كان من الواضح أنه توقَّف لالتقاط أنفاسه فحسب. كان لديه المزيدُ ليقوله.

تابع: «كنتُ بجانبك يا سيدي، عندما أمسكتْ سيادتها بالسكين وركضَت نحوك، وكما تعلم جيدًا، كنت أنا مَن أمسكها من الخلف، ومنع حدوثَ مأساة مزدوجة في تلك الليلة، وكنتُ أنا مَن ذهب للطبيب في صباح اليوم التالي، عندما تسلَّلتْ إلى غرفتك ليلًا وأخطأتْ في إصابة حلْقِك بمقدار بوصة واحدة فقط. سمعتُ نداءها لك، وسمعت تهديدها. لقد كان تهديدَ امرأة مجنونة، يا سيدي، لكن سيادتها امرأة مجنونة في هذه اللحظة، وبسكينٍ في يدها لن تكونَ بأمان في هذا المنزل.»

قال دوميني بهدوء: «يجب أن نتأكد من ألا يُسمح لها بحيازة أي سلاح.»

قال ميدلتون ساخرًا: «بالطبع! تأكَّد من ذلك، مع وجود الأم أنثانك إلى جانبها! فجنون سيادتها بسبب رعب تلك الليلة، لكن الأم أنثانك غاضبة بسبب الكراهية، ولا يمر أسبوع» تابع الرجلُ المسنُّ، وصوته ينخفض وعيناه تحترقان، «دون أن تأتيَ روح روجر أنثانك وتعويَ من أجل دمك تحت نافذتهما. إذا بقيت هنا هذه الليلة، يا سيدي، تعالَ ونمْ في الغرفة الصغيرة التي جهَّزوها لك في الجانب الآخر من المنزل.»

كان السيد مانجان قد فقدَ مظهره اللطيف الذي بدا عليه في وقتٍ ما بعد العِشاء. كان وجهه مجعَّدًا، وكانت قهوته تبرد. كان هذا أمرًا مختلفًا جدًّا عن الرسائل والإشاعات الغامضة التي كانت تصله من حينٍ لآخر، والتي كان قد أخرجها من عقله بكل ازدراءِ شخص ذي عقليةٍ مادية.

قال دوميني: «من الجيد جدًّا أن تُحذِّرني يا ميدلتون، لكن يمكنني إغلاقُ بابي، أليس كذلك؟»

كان الردُّ الساخر: «تغلق باب غرفة البلوط!» وأضاف قائلًا: «وما فائدة ذلك؟ أنت تعلم جيدًا أن الجدار مزدوج من ثلاث جهات، وهناك مداخلُ سرِّية أكثر مما أعرف. غرفة

البلوط ليست مناسبة لك هذه الليلة، يا سيدي. إنهما تأمُلان أن تكون هناك، وهذا ما يجعلهما هادئتَين.»

سأل المحامي، بلا مبالاةٍ متصنَّعة تصنُّعًا سيئًا: «أخبِرنا ماذا تقصد، يا ميدلتون، عندما تحدَّثتَ عن عواء روح روجر أنثانك؟»

استدار الرجل المسن بكلِّ صبر.

وأجاب: «ما قلتُه فحَسْب، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «إنه حول المنزل معظم الأسابيع. نادرًا ما كان هناك خادمٌ ينام في القصر لسنوات باستثنائي في بعض الليالي، والسيدة أنثانك. بعض الخادمات يأتين من القرية، لكنهن يَعُدن قبل حلول الظلام، وحتى الصباح لا يعبُر مخلوق حيٌّ الطريقَ — أبدًا، ولو مقابل مائة جنيه.»

علَّق السيد مانجان: «عواء، هذا ما تُطلق عليه؟»

أوضح ميدلتون: «إنه يُشبه في الغالب كلبًا جريحًا، مثل كلبٍ له مسحةٌ من صوت بشري، كما سمعنا جميعًا بأنفسنا، يا سيدي. سوف تسمعه بنفسك، يا سيدي، ربما الليلة أو ليلة غدٍ.»

سأل سيدُه: «سمعته إذن، يا ميدلتون؟»

أجاب الرجل العجوز بدهشة: «عجبًا، بالتأكيد يا سيدي. معظم الأسابيع خلال السنوات العشر الماضية.»

«ألم تنهض من قبلُ وتخرجْ لترى ما هو؟»

هزَّ الرجل العجوز رأسه نفيًا.

وقال: «لكنني كنتُ أعرف جيدًا ما كان هذا، يا سيدي، وأنا لست شخصًا يخشى الأرواح. توجد أرواحٌ تمشي في هذا العالم، كما نعلم جيدًا، وروح روجر أنثانك تمشي من الغابة السوداء إلى تلك النوافذ، وتأتي كلَّ أسبوع من العام. لكنني لن أنظر إليه. فثَمة شرٌّ ينتج عن ذلك. أتقلَّب في سريري، وأسدُّ أذني، لكن لم يسبق لي حتى الآن أن رفعتُ الستارة.»

سأل دوميني، «قل لي، يا ميدلتون، هل الليدي دوميني خائفة من هذه ... الزيارات؟»

«لا أستطيع الجزمَ بحق، يا سيدي. فسيادتها دائمًا حلوة ولطيفة، مع كلماتٍ لطيفة على شفتيها لكل شخص، لكن ثمة رعب في عينيها اشتعَل تلك الليلة عندما دخلتَ القاعة مترنحًا، يا سيدي، ولم ينطفئ بعدُ كما ينبغي، إذا جاز التعبير. إنها تحمل الخوف معها، لكن ما إذا كان الخوف من رؤيتك مرة أخرى، أو الخوف من روح روجر أنثانك، لم أستطِع معرفة ذلك.»

بدا دوميني فجأةً وكأنما استولت عليه رغبةٌ غريبة في إنهاء الموضوع برُمَّته. وصرف الرجل المسن بلطف ولكن بشكل مفاجئ قليلًا، ورافقه إلى الممر الذي كان يؤدي إلى مهجع الخدم متحدثًا طوالَ الوقت عن طيور الدُّرَّاج. وعندما عاد، وجد أن ضيفه قد أفرغَ كأسه الثانية من البراندي وكان يمسح جبينه خِلسة.

علَّق الأخير: «تلك هي فئة الخادم المسن الذي يعيش طويلًا أكثرَ من اللازم. لو كنتُ من آل دوميني في العصور الوسطى، أظنُّ أن وضعَ حجرٍ حول رقبته وإلقاءه في أعمق بئر هو الطريقة المعقولة للتعامل معه. لقد جعلني أشعر بعدم الارتياح قطعًا.»

علَّق دوميني بابتسامةٍ خافتة: «لاحظت ذلك.» وأضاف قائلًا: «لن أتظاهرَ بأنها كانت محادثةً ممتعة.»

تابع مانجان: «لقد سمعتُ بعض قصص الأشباح، لكن قصة الشبح الذي يأتي ويعوي مرةً واحدة في الأسبوع لمدة عشْر سنوات يصعب التفوقُ عليها.»

صبَّ دوميني لنفسه كأسًا من البراندي بيدٍ ثابتة.

وقال شاكيًا: «لقد أهملت الأشياء هنا، يا مانجان.» وأضاف قائلًا: «كان يجب أن تنزل وتطردَ ذلك الشبح. سنجعل هؤلاء الخادمات الذكيات يُغادرن غدًا، على ما أظن، ما لم نتمكَّن أنت وأنا من الحصول على بعضِ المتعة مع الأشباح أولًا.»

بدأ السيد مانجان يشعر براحةٍ أكبر. كان البراندي ودفءُ جذوع الأشجار المحترقة يزحفان إلى داخله.

سأل بعد ذلك بقليلٍ: «بالمناسبة، يا سير إيفرارد، أين ستنام الليلة؟»

تمطَّى دوميني بهدوء.

أجاب: «من الواضح أنه لا يوجد سوى مكان واحد مناسب لي.» وأضاف قائلًا: «لا يمكنني أن أخيِّب ظنَّ أي أحد. سأنام في غرفة البلوط.»

الفصل العاشر

في اللحظات القليلة الأولى المشوَّشة من الكابوس، الذي تطوَّر ببطءٍ إلى رعبٍ حي، تخيَّل دوميني نفسه مرةً أخرى في أفريقيا، ويدُ عدوٍّ على حلْقِه. ثم اندفعت ذكريات يقظة — صمت المنزل الكبير، الحفيف الغامض للستائر الثقيلة حول سرير البلوط الأسود ذي الأربعة القوائم الذي كان يرقد عليه، الوخز الضعيف لشيء مُميتٍ عند حلْقِه — هذه الأشياء كشفت ستارةَ عدم الواقعية، وجعلته يُدرك بشكلٍ حادٍّ ومؤلم الموقفَ الذي يكاد يكون مروِّعًا. فتح عينَيه، ورغم أنه رجل شجاع وقاسي القلب ظل ساكنًا، مشلولًا بالخوف الذي يمنعه من الحركة. التمع ضوءٌ خافتٌ لشمعةٍ مضاءةٍ مؤخَّرًا، على خنجرٍ يشبه دبوس الشعر مثبَّتٍ عند حلْقه. حدَّق مذهولًا في الحد الرفيع للفولاذ اللامع. كان جِلده قد جُرح بالفعل، ونزلت بضع قطرات من الدم على ياقة منامته. خرجت اليدُ التي كانت تحمل ذلك السلاح الفتاك المعتدي من مكانٍ ما خلف ستارة السرير وكانت صغيرة، نحيفة، أنثوية للغاية، وتخصُّ شخصًا غير مرئي. حاول الانكماش أكثرَ في الوسادة. تبعتْه اليد، ولمح الآن ذراعًا ناعمةً ذاتَ كمٍّ أبيض. استلقى ساكنًا، وعضلات ذراعه اليمنى تزداد توترًا بينما كان يستعد للإمساك بتلك الأصابع القاسية. ثم جاء صوت، صوت بطيء، أنثوي، رائع.

قال: «إذا تحركتَ فستموت. ابقَ هادئًا تمامًا.»

كان دوميني واعيًا تمامًا الآن، وعقله يعمل، يحسب فرصه بدهاءِ صيادٍ مدرَّبٍ يسعى لتجنُّب الموت. اضطُرَّ على مضضٍ إلى إدراكِ أنه لا توجد حركةٌ يمكن أن تكون سريعة بما يكفي لِمنْع دفْع ذلك الخنجر الرفيع إلى حلْقه، إذا كانت مهاجِمتُه الخفيةُ تريد أن تُنفِّذ خطَّتها. لذلك ظل ساكنًا.

سأل بتوتُّر بسيط: «لماذا تريدين قتلي؟»

لم يأتِ ردٌّ، لكنه عرَف بطريقةٍ ما أنه مراقَب. وبشكل طفيف جدًّا، افترقَت الستائر التي جاءت منها الذراع. ومن خلال الفرق كان ثمةَ شخصٌ ينظر إليه. تبادرت إلى ذهنه فكرة الاستغاثة، ومرة أخرى قرأ عدوُّه غيرُ المرئي فِكره.

وقال الصوت: «يجب أن تكون هادئًا جدًّا» ذلك الصوت الذي كان يصعب عليه تصديقُ أنه لم يكن صوتَ طفل. «إذا تحدَّثتَ بصوتٍ أعلى من الهمس، فستكون هذه هي النهاية. أريد أن أنظر إليك.»

اتسع الفرقُ قليلًا، وبدأ يشعر بالأمل. كانت اليد التي تحمل الخنجر ترتجف، وسمع شيئًا بدا وكأنه تنفسٌ سريع من خلف الستائر — تنفسُ امرأة مندهشة أو مذعورة — ثم فجأة، لدرجة أنه لم يستطِع الحركة لعدة ثوانٍ أو الاستفادة من الظروف، سُحبت اليدُ التي كانت تحمل السلاح القاسي خلف الستارة وبدأت امرأةٌ تضحك، بلطف في البداية، ثم ببعض البكاء الهستيري الذي تداخل مع تلك النغمة المتناقضة من الفرح.

استلقى على السرير كما لو كان منوَّمًا مِغناطيسيًّا، ليجدَ مع أول محاولة أن أطرافه ترفضُ التحرك، مثل أطراف شخصٍ يرقد مستعبدًا من كابوس. تلاشت الضحكة، وكان ثمة صوتٌ مثل كشطٍ على الحائط، وفجأة انطفأت الشمعة. ثم بدأت أعصابه في العودة ومعها سيطرتُه على أطرافه. زحف إلى جانب السرير بعيدًا عن الستائر، وتسلَّل إلى المنضدة الصغيرة التي ترك عليها مسدسه ومصباحًا كهربائيًّا، وانتزعهما، ووضع الأول في يده اليمنى، وأضاء دائرة صغيرة من الضوء في ظلمات الجناح الكبير. مرةً أخرى استولى عليه شيءٌ مثلُ الخوف. واختفى الشخص الذي كان يقف بجانب سريره. لم يكن يوجد مكانٌ للاختباء على مرمى البصر. كل شبر من الغرفة كان مضاءً بالمصباح القوي الذي كان يحمله، وفيما عداه، كانت الغرفة فارغة. كانت لحظة الإدراك الأولى مرعبةً ومثيرة للقلق. ثم أصبح ألم الجرح الطفيف في حلقه دليلًا مقنعًا له على أنه لم يكن ثَمة شيءٌ خارق للطبيعة في هذه الزيارة. أشعل نصف دُزينة من الشموع الموزعة حول المكان ووضع مصباحه اليدوي. كان يشعر بالخجل لأن جبهته كانت تتصبَّب عرقًا.

تمتمَ في نفسه، منحنيًا للحظة ليفحصَ الأبواب المغلقة القابلةَ للطيِّ التي كانت تفصل غرفته عن الغرفة المجاورة: «أحد الممرات السريَّة، بالطبع.» وأضاف قائلًا: «ربما، بعد التفكير مَليًّا، أكون قد عرَّضتُ نفسي لمخاطرَ غير ضرورية.»

كان دوميني يقفُ عند النافذة، وينظر إلى مياه بحر الشمال الرمادية المتلاطمة، عندما أحضر له باركنز الماء الساخن والشاي في الصباح. دفع قدمَيه في نعليه ومدَّ ذراعيه لارتداء روب.

قال: «اكتشف مكانَ أقربِ حمَّام، يا باركنز، وجهِّزه. فقد نسيتُ تمامًا طريقي هنا.»

«حسنًا يا سيدي.»

كان الرجل ساكنًا للحظة، يحدِّق في الدم على منامةِ سيده. ألقى دومينى نظرةً خاطفة عليه ورفع ياقة الروب لأعلى نحو حلقه.

وقال بلا مبالاة: «لقد تعرضتُ لحادثٍ بسيط هذا الصباح.» وأضاف قائلًا: «أي إنذار بظهور الأشباح الليلة الماضية؟»

أجاب الرجل: «لم أسمع شيئًا يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «أخشى أننا سنواجه صعوبةً في إبقاء الشابَّات من لندن، إذا سمعنَ ما سمعته ليلة وصولي.»

سأل دومينى بابتسامة: «كان فظيعًا جدًّا، أليس كذلك؟»

ظل تعبير وجه باركنز ثابتًا. ومع ذلك، كان في نبرة صوته احتجاجٌ صامت على سخافة سيده.

وقال: «كانت الصيحاتُ أفظعَ ما سمعت يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «أنا لست شخصًا عصبيًّا، لكنني وجدتها مزعجة للغاية.»

«إنسان أم حيوان؟»

«مزيجًا من الاثنين، يجب أن أقول، يا سيدي.»

علَّق دومينى: «يجب أن تُخيم ليلةً على أطراف غابة أفريقية. هناك تجد أوركسترا كاملةً من الحيوانات البرية، كلٌّ واحد منها يحاول أن يُخيفك.»

أجاب باركنز: «كنت في الخارج في جنوب أفريقيا أثناء حرب البوير، يا سيدي، وذهبتُ لصيد الطرائد الكبيرة مع سيدي بعد ذلك. لا أعتقد أنه يوجد على الإطلاق أيُّ حيوان وُلد في أفريقيا يصرخ مثل هذه الصرخة المرعبة التي سمعناها الليلة قبل الماضية.»

تمتم دومينى: «يجب أن ننظرَ في الأمر.»

أعلن الرجل: «لقد أعددتُ الحمَّام بالفعل، يا سيدي، في نهاية الممر.» وأضاف قائلًا: «إذا سمحت لي، سأُريك الطريق.»

عندما نزل دومينى بعد نحو ساعة، وجد ضيفه في انتظاره في غرفةِ طعامٍ أصغر، تُطل شرقًا نحو البحر، وهي جناح راقٍ ذو نوافذ كبيرة وجوٍّ من الفخامة الباهتة التي نتجت عن سوء اعتناءٍ بالمنسوجات المعلَّقة في أماكنَ من الحائط. كان السيد مانجان، على عكس توقعاته، قد نام جيدًا وفي حالة معنوية ممتازة. ألهمه صفُّ الأطباق الفضية على الخزانة بمزيد من البهجة.

علَّق، وهو يأخذ مكانه على الطاولة: «إذن لم يكن ثمة أشباح تمشي الليلةَ الماضية؟» وأضاف قائلًا: «الشيء الرائع هو هذا الهدوء المطلَق بعد لندن. أَصْدُقك القول إنني لم أسمع صوتًا البتة منذ اللحظة التي لمس فيها رأسي الوسادة حتى استيقظت منذ مدة قصيرة.»

عاد دوميني من الخوان حاملًا أيضًا طبقًا مملوءًا جيدًا.

وعلَّق: «لقد حظيتُ أنا نفسي براحة جيدة في الليل.»

رفع مانجان نظَّارته وحدَّق في حلْق مضيفه.

وتساءل: «هل جرحتَ نفسك؟»

قال له دوميني: «انزلقَت الشفرة.» وأضاف قائلًا: «فقد توقَّفت عن استخدام هذه الأشياء في أفريقيا.»

علَّق السيد مانجان بفضول: «لقد تمكنتَ من أن تجرح نفسك جرحًا سيئًا.»

أعلن دوميني: «سأُرسل باركنز مجموعة جديدة من الشفرات الآمنة من أجلي.» وأضاف قائلًا: «فيما يتعلَّق بخُططنا اليوم، لقد طلبت السيارة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، إذا كان ذلك يُناسبك. يمكننا أن نتجوَّل حول المكان بهدوء هذا الصباح. ينام السيد جونسون في مزرعةٍ بالقرب من هنا. سنلتقطه في الطريق. وقد أخبرت ليبز، وكيل المزرعة، أن يأتيَ معنا أيضًا.»

أومأ السيد مانجان بالموافقة.

واعترف قائلًا: «ثِق بي، سيكون من دواعي سروري أن أذهب وأرى بعضَ هؤلاء الرفاق دون الاضطرار إلى أن أكدِّرهم بشأن الإصلاحات وما شابهَ ذلك. لقد كان جونسون أكثرَ مَن عانى، يا له من رجل مسكين، ولكنَّ واحدًا أو اثنين منهم قرَّرا المجيء إلى لندن وإثارةَ قلقي في المكتب.»

«أعتزم ألا يكون ثمةَ المزيدُ من عدم الرضا بين المستأجرين.»

انطلق السيد مانجان في جولة أخرى باتجاه الخوان.

وصرَّح قائلًا: «لن تجد مستأجرين راضين في نورفولك أبدًا.» وأضاف قائلًا: «يجب أن أعترف، مع ذلك، أن بعضهم كان لديه سببٌ للتذمُّر مؤخرًا. يوجد رجلٌ بالقرب من ويلز يزرع ما يقرب من ثمانمائة فدان ...»

قطع حديثَه. كان ثَمة طرْقٌ على الباب، لم يكن طرْقًا عاديًّا على الإطلاق، بل نقرٌ مدروس ومتأنٍّ، تكرَّر ثلاث مرات.

نادى دوميني: «ادخل.»

دخلَت السيدة أنثانك، صارمة، وغيرَ جذابة أكثرَ من أي وقتٍ مضى في ضوء الصباح القوي. جاءت إلى طرَف الطاولة، في مواجهة المكان الذي كان يجلس فيه دوميني.

قال: «صباح الخير، سيدة أنثانك.»

تجاهلَت التحية.

قالت: «أحمل لك رسالة.»

أجاب دوميني: «سلِّميها من فضلك.»

«يسرُّ سيادتها أن تدعوَك لزيارتها في جناحها على الفور.»

مال دوميني إلى الخلف في مقعده. كانت عيناه مثبتتَين على وجه المرأة التي كانت عداوتها له واضحةً للغاية. كانت واقفةً في طريق شعاع طويل من ضوء شمس الصباح. وظهرت بوضوحٍ التجاعيدُ في وجهها، وفمِها القاسي، وعينَيها الباردتين الفولاذيَّتين.

قال بغرض تحقيق هدفٍ من الكلمات: «لستُ متأكدًا على الإطلاق من أن أيَّ لقاء آخرَ بيني وبين الليدي دوميني هو أمرٌ مرغوب فيه في الوقت الحالي.»

إن كان قد فكَّر في إزعاجِ حاملةِ الرسالة باقتراحه، فقد أصيب بخيبةِ أمل.

أضافت بنبرة ازدراءٍ في صوتها: «إن سيادتها تُريدني أن أؤكد لك أنه لا داعيَ للخوف.»

اعترف دوميني بالهزيمة وسكب لنفسه المزيدَ من القهوة. لم يلحظ أيٌّ من الاثنين أن أصابعه كانت ترتجف.

قال: «إن سيادتها متفهِّمة للغاية. أخبريها من فضلكِ أنني سأتبعُك خلال بضع دقائق.»

دُلَّ دوميني، بعد دقائق قليلة من استدعائه، إلى جَناح كبير وأنيقٍ بشكل كئيب، جناح بجدران باهتة باللون الأبيض والذهبي، وثُريَّات بحُلًى متلألئة، وأثاث من طراز لويس الخامس عشر، بالٍ لكنه لا يُقدَّر بثَمن. وأدهشه، على الرغم من أنه بالكاد لاحظ ذلك في ذلك الوقت، أن السيدة أنثانك اختفت على الفور. وتُرك وحده منذ البداية مع المرأة التي كان قد أتى لزيارتها.

كانت جالسةً على أريكتها وتُراقب اقترابه. هل هي امرأة؟ من المؤكد أنها مجرد طفلة، بخدَّين شاحبَين، وعينين كبيرتين، قلقتين، وخُصلٍ من شعرٍ بُني مصفَّفة للخلف بعيدًا عن جبهتها. في النهاية، هل كان حقًّا رجلًا قويًّا، أقسمَ على أشياء عظيمة؟ كان ثمة شعورٌ غريب في حلقه، وكان غالبًا يرى ضبابًا أمام عينيه. بدَت هشَّةً للغاية، وحزينة جدًّا بطريقة

جذابة. وطوال الوقت كان يوجد ضوءٌ غريب — أم كان نقصًا في الضوء — في هاتين العينين اللتَين لا يمكن نسيانهما. لم يُلقِ عليها التحية.

قالت بنبرة منكسرة: «إذن أتيتَ لرؤيتي، يا إيفرارد. أنت شجاع جدًّا.»

أمسك بيدِها، اليد التي كانت تحمل خنجرًا على حلْقه قبل سويعات، وقبَّل الأصابعَ الناعمة الشاحبة. سقطت يدها إلى جانبها وكأنها خاليةٌ من الحياة. ثم رفعتها وبدأت تفركها بلطف في المكان الذي لمسَته شفتاه.

أجاب: «لقد جئتُ لرؤيتكِ كما أمرتِ، وهذا من دواعي سروري.»

تمتمت بابتسامةٍ خفيفة مروعة: «سرور!» وأضافت: «لقد تعلمتَ التحكُّم في كلامك، يا إيفرارد. لقد نِمْت هنا وتعيش هنا. لقد أخلفت وعدي. أتساءل لماذا؟»

قال مناشدًا: «لأنني لم أستحقَّ أن تسعَيْ إلى قتلي.»

قالت بعد التفكير مَليًّا: «ذلك يبدو غريبًا.» وأضافت قائلةً: «ألا يُقال في موضعٍ ما في الكتاب المقدَّس — حياة مقابل حياة؟ لقد قتلتَ روجر أنثانك.»

قال لها دوميني: «لقد قتلتُ رجالًا آخرين منذ ذلك الحين دفاعًا عن النفس.» وأضاف قائلًا: «أحيانًا يصلُ الأمر إلى حدِّ أن يتعينَ على المرء أن يَقتُل أو يُقتَل. لقد كان روجر أنثانك ...»

قالت بهدوء شديدٍ وبلهجة تقريرية: «لن أتحدَّث عنه بعد الآن.» وتابعت قائلةً: «في الليلة قبل الماضية، كانت روحه تُناديني أسفل نافذتي. يريدني أن أنزل إلى الجحيم وأعيش معه. الفكرة ذاتها مروِّعة.»

قال دوميني: «حسنًا، سنتحدَّث عن أشياءَ أخرى. يجب أن تُخبريني أيُّ هدايا يُمكنني شراؤها لكِ. لقد عُدتُ غنيًّا من أفريقيا.»

«هدايا؟»

للحظة واحدة رائعة، كان وجهها مثلَ وجه طفلٍ عُرِضَ عليه لُعَب. كانت ابتسامةُ ترقُّبها مبهجة؛ حيث فقدت عيناها ذلك الفراغَ الغريب. ثم، قبل أن يتمكَّنَ من قول كلمة أخرى، عاد كل شيء مرةً أخرى كما كان.

قالت: «أصغِ لي.» وأردفت قائلةً: «هذا أمرٌ مهم. لقد أرسلت في طلبك لأنني لا أفهم لماذا، على نحوٍ مفاجئ جدًّا الليلة الماضية، بعد أن اتخذتُ قراري، فقدتُ الرغبة في قتلك. لقد اختفَت الآن. لم أعُد متأكدة من نفسي. اسحب مقعدك بالقرب مني. أو لا، تعالَ إلى جانبي، هنا في الطرَف الآخر من الأريكة.»

حرَّكت تنورتَها لإفساح المجال له. وعندما جلس شعر برِعشة غريبة في سائر أطرافه.

تابعَت قائلةً: «ربما، سأحنثُ في قسمي. في الواقع، لقد حنثتُ فيه بالفعل. دعني أنظر إليك، يا زوجي. إنه لأمرٌ غريب أن أمتلك بعد كل هذه السنوات — زوجًا.»

شعر دوميني وكأنه يتنفَّس هواءً مشبعًا بلطفٍ مملٍّ ومسموم. كان يكتنف الوضعَ برُمَّته نكهةٌ من عدم الواقعية — الغرفة، هذه المرأة المدلَّلة، جمالها، كلامها الموزون المملوء بالوقفات، والأشياء الغريبة التي قالتها.

سأل: «هل تجدين أنني تغيَّرت؟»

«لقد تغيَّرتَ تغيرًا رائعًا للغاية. تبدو أقوى، ربما يكون مظهرك أفضل، لكنَّ شيئًا ما اختفى من وجهك اعتقدت أن لا أحد يفقده أبدًا.»

قال بحذر: «أنتِ أجملُ من أيِّ وقتٍ مضى، يا روزاموند.»

ضحكت بقليل من الحزن.

«ما نفع جمالي لي، يا إيفرارد، منذ أن أتيتَ إلى كوخي الصغير وأحببتَني وجعلتني أحبك، وأخذتني بعيدًا عن دور روجر؟ هل تتذكَّر أن أطفال المدرسة كانوا يُطلقون عليه دور روجر؟ — لكن هذا لا يهم. هل تعلم، يا إيفرارد، أنه منذ أن تركتني لم تخطُ قدماي خارج هذه الحدائق؟»

قال بسرعة: «يمكن تغييرُ ذلك عندما ترغبين.» وتابع قائلًا: «يمكنكِ زيارة الأماكن التي تريدين الذَّهاب إليها. يمكنكِ امتلاك سيارة، أو حتى منزل في المدينة. سأُحضر بعض الأطباء الرائعين إلى هنا، وسوف يجعلونكِ قوية مرةً أخرى.»

رفعت عينيها الكبيرتين بطريقةٍ مثيرة للشفقة.

وسألت بحزن: «ولكن كيف يمكنني مغادرةُ المكان هنا؟ فهو يأتي إليَّ كل أسبوع، وأحيانًا بوتيرة أكبر. إذا ذهبت بعيدًا، ستتحرَّر روحه وتتبعني. يجب أن أكون هنا لألوِّح له بيدي؛ فيذهبَ بعيدًا.»

كان دوميني مدركًا مرةً أخرى تلك الفورةَ الغريبة وغير المتوقَّعة في المشاعر. كان لا يُمكنه التعرُّف على نفسه. فلم يسبق له في حياته أن خفق قلبُه كما كان يخفق الآن. كانت عيناه أيضًا متوقِّدتين. لقد سافر حول العالم بحثًا عن أشياء جديدة، فقط ليجدها في هذه الغرفة الغريبة الباهتة، جنبًا إلى جنب مع هذه المرأة المعذَّبة. ومع ذلك قال بهدوء:

«يجب أن نُرسلك إلى مكانٍ يكون فيه الناسُ ألطفَ وتكون الحياةُ فيه أمتع. ربما تحبين الموسيقى ورؤية الصور الجميلة. أعتقد أننا يجب أن نُحاول ونمنعك من التفكير.»

تنهدَت في حيرة.

«أتمنَّى أن أتمكنَ من إخراج فكرةِ قتلك من رأسي. حينها يمكنك أن تأخذَني على الفور. فالأشخاص المتزوجون الآخرون يعيشون معًا وهم يكره بعضُهم بعضًا. لماذا لا يمكننا فعل ذلك؟ قد ننسى حتى الكراهية.»

نهض دوميني مترنحًا، ومشى إلى النافذة، فتحها على مِصراعيها ونظر من خلالها للحظة. ثم أغلقها وعاد. كان هذا العنصر الجديد في الموقف صدمةً له. طوال الوقت كانت تُراقبه بسَكِينة.

سألت بابتسامةٍ صغيرة غريبة: «حسنًا؟» وأضافت قائلةً: «ما رأيك؟ هل تريد أن تُمسك يدَ الزوجة التي أخافتك الليلة الماضية؟»

مدَّت له يدها الناعمة الدافئة. حتى إن أصابعها ضغطت على يديه مثلما كان يفعل. ونظرت إليه بسرور، ومرة أخرى شعر وكأنه رجلٌ تجوَّل في بلد غريب وضل طريقه.

قال بصوتٍ أجش: «أريد بشدة أن تكوني سعيدة، لكنك لستِ قوية بعدُ، يا روزاموند. لا يمكننا أن نقرِّر أيَّ شيء بتعجُّل.»

تمتمَت: «يا لدهشتك عندما وجدتَ أنني على استعداد لأن أكون لطيفةً معك!» وأردفت قائلةً: «لكن لمَ لا؟ لا يمكنك أن تعرف لماذا غيرتُ رأيي بشأنك فجأة — ولقد غيَّرته بالفعل. لقد رأيت الحقيقة في هذه الدقائق القليلة. ثمة سبب، يا إيفرارد، يمنعني من قتلك.»

سأل: «ما هو؟»

هزَّت رأسها بكل فرح مثل طفل يُخفي سرًّا.

قالت: «أنت ذكي.» وتابعت قائلةً: «سأترك لك أمرَ اكتشافه. أنا مستثارة الآن، وأريدك أن ترحلَ بعضَ الوقت. من فضلك أرسِل لي السيدة أنثانك.»

كان احتمال إطلاقِ سراحه مبعثَ ارتياح غريب، لكنه كان لا يزال يختلطُ اختلاطًا غريبًا بالأسف. لم يترك يدَها.

وتوسَّل قائلًا: «إذا كنتِ ستمشين أثناء نومك الليلة، إذن، فهلَّا تتركين الخِنجر؟»

أجابت كما لو كانت متفاجئة: «لقد أخبرتُك بأنني تخليت عن نيَّتي. لن أقتلك. مع أنني قد أسيرُ في نومي — وأحيانًا تكون الليالي طويلةً جدًّا — لن يكون موتُك الأمرَ الذي أسعى إليه.»

الفصل الحادي عشر

غادرَ دوميني الغرفةَ مثل رجلٍ يحلُم، ونزل الدَّرج إلى الجزء الخاص به من المنزل، والتقط قبعةً وعصًا، وخرج إلى ضباب البحر الذي كان يكتنفُ الحدائق بسرعة. كانت تلك السحابة الجليدية تحمل كلَّ برودة القطب الشمالي، ولكن مع ذلك ظلت جبهته ساخنة، ونبضاتُه مشتعلة. خرج من البوابة الخلفية التي كانت تفصل بين الحديقة المسوَّرة ومستنقع واسع، والسدود تجري هنا وهناك، وألسنةُ مياه البحر المتلاطمة تزحف مع التيار. شقَّ طريقه نحو البحر بخطوات غيرِ واثقة حتى وصل إلى طريقٍ وعرة مغطَّاة بالحصى؛ وهنا تردَّد لحظة، ونظر حوله، ثم استدار بزاوية عمودية. سرعان ما وصل إلى قرية صغيرة، قرية من الأكواخ العتيقة، جدرانها من الطوب الأحمر المجفَّف، وبها قِطَع صغيرة من الحدائق المشذَّبة، وكنيسة مزينة بأشجار الدردار الطويلة، ومثلثٌ من العشب الأخضر عند مفترق الطرق. على أحد الجانبين، كان يوجد مبنًى منخفضٌ بسقفٍ من القش مكتوبٌ عليه: أسلحة آل دوميني؛ وعلى الجانب الآخر، منزلٌ قديم مربَّع الشكل مصنوعٌ من الحجر عليه لوحة نحاسية. ذهب وقرأ الاسم، ودقَّ الجرس، وسأل الخادمة الأنيقة التي فتحت الباب عن الطبيب. بعد وقتٍ قصير، قدِمَ شابٌّ في منتصف العمر إلى حجرة الجراحة وانحنى. كان دوميني في حيرة من أمره للحظة.

تجرَّأ وقال: «جئتُ لرؤية الطبيب هاريسون.»

كان الرد اللطيف: «تقاعد الدكتور هاريسون من العمل قبل بضع سنوات. أنا ابنُ أخيه. اسمي ستيلويل.»

قال دوميني: «لقد فهمتُ أن الدكتور هاريسون لا يزال في الحي.» وأضاف قائلًا: «اسمي دوميني، السير إيفرارد دوميني.»

أجاب الآخر: «لقد خمَّنتُ ذلك.» وأردف قائلًا: «يعيش عمي معي هنا، ولأخبرك بالحقيقة كان يأمُل أن تأتيَ وتراه.» وأضاف الطبيب ستيلويل بنبرةٍ أكثرَ جدية: «إنه يحتفظ بمريض واحد فقط. يمكنك تخيلُ مَن يكون.»

انحنى ضيفه. «الليدي دوميني، أفترض.»

فتح الطبيب الشابُّ البابَ وأشار لضيفه ليسبقه.

وقال: «عمي لديه شقته الصغيرة على الجانب الآخر من المنزل.» وتابع قائلًا: «دعني آخُذْك إليه.»

انتقلا عبر القاعة الحجرية البيضاء اللطيفة إلى شقةٍ صغيرة ذات نوافذ فرنسية تؤدِّي إلى شُرفةٍ مبلطة ومَرْج للعب التنس. كان رجلٌ مسنٌّ، عريضَ المنكبين، وجهه متأثِّر بالطقس، وشعره رمادي، تبدو عليه الجدِّية إلى حدٍّ ما، يُلقي نظرة من النافذة التي كان يقف أمامها فاحصًا علبةً من ذباب الصيد.

أعلن ابن أخيه: «عمي، لقد أحضرت صديقًا قديمًا لرؤيتك.»

نظر الطبيب بترقُّب إلى دوميني، وتقدَّم قليلًا كما لو كان سيُحيِّيه، ثم توقَّف وهزَّ رأسه في شك.

وقال: «أنت بالتأكيد تُذكِّرني كثيرًا بصديق قديم، يا سيدي، لكن يمكنني الآن أن أرى أنك لستَ هو. لا أعتقد أنني رأيتك من قبل في حياتي.»

مضت لحظةٌ من الصمت المتوتر إلى حدٍّ ما. ثم تقدَّم دوميني متخشبًا بعض الشيء ومد يده.

قال: «تعالَ أيها الطبيب.» وأضاف قائلًا: «لم أتغيَّر إلى هذا الحد. حتى هذه السنوات من الحياة الشاقة ...»

قاطعه الطبيب: «هل تقصد أن تخبرني أنني أتحدَّث إلى إيفرارد دوميني؟»

«دون شك!»

صافح الطبيبُ يدَيه بهدوء. من المؤكَّد أنه لم يكن الترحيبَ الحماسي من قِبَل طبيب عائلة عجوزٍ بممثِّلِ عائلة كبيرة.

قال مُقرًّا: «ما كنت سأتعرَّف عليك أبدًا.»

تابع دوميني: «مع ذلك لا جدال في وجودي هنا.» وأضاف قائلًا: «أما زلتَ منجذبًا إلى هوايتك القديمة، كما أرى، أيها الطبيب؟»

أجاب الآخرُ بطريقة جافة: «لم أبدأ في صيد الذباب إلا منذ أن توقفتُ عن الرماية.»

ساد صمتٌ آخر محرج إلى حدٍّ ما، حاول الشابُّ تجاوزَه.

وقال: «صيد السمك، الرماية، الجولف، أنا حقًّا لا أعرف ما الذي يمكن أن نفعله نحن الأطباءَ المساكين في البلاد من دون الرياضة.»

علَّق دوميني: «سوف أذكِّرك بذلك لاحقًا.» وأضاف قائلًا: «قيل لي إن الرماية هي واحدةٌ من الأمجاد الوحيدة التي لم تختفِ من آل دوميني.»

كانت الإجابة السريعة: «أتطلع إلى التذكرة.»

فجأة استدار عمُّه، الذي كان ينحني مرة أخرى على علبة الذباب.

وقال مخاطبًا ابنَ أخيه: «آرثر، من الأفضل أن تبدأ جولتك. أظن أن سير إيفرارد يودُّ التحدُّث معي على انفراد.»

اعترف دوميني: «أودُّ أن أتحدَّث إليك بالتأكيد، ولكن على الصعيد المهني فقط. لا ضرورةَ لأن ...»

قاطعه الدكتور ستيلويل: «لقد تأخرتُ بالفعل، إذا سمحت لي.» أضاف بنبرة منخفضة، جاذبًا إياه قليلًا نحو الباب: «ينبغي أن أمضي. يجب أن تعذرَ عمي، سير إيفرارد، إذا كانت أخلاقه فظة قليلًا. إنه مخلصٌ لليدي دوميني، وأعتقد أحيانًا أنه يفكر مَليًّا في حالتها.»

أومأ دوميني برأسه وعاد إلى الغرفة ليجدَ الطبيب واضعًا يديه في جيبَي بِنطاله عتيق الطراز، وينظر إليه بثبات.

قال بقليلٍ من الاقتضاب: «أجد صعوبة بالغةً في تصديق أنك حقًّا إيفرارد دوميني.»

«أخشى أنك، مع ذلك، ستُضطرُّ إلى قَبولي كحقيقة.»

تابع الرجل المسن، وهو ينظر إليه بانتقاد: «إن مظهرك الحالي، لا يدل بأي حال من الأحوال على الوصف الذي كان لديَّ عنك منذ بضع سنوات. قيل لي إنك أصبحت سكِّيرًا متدهور الحال.»

قال دوميني بتعقُّل: «العالم مليءٌ بالكذابين.» وأضاف قائلًا: «يبدو أنك قد التقيت بواحد منهم على الأقل.»

أصرَّ الطبيب: «ليس لديك حتى مظهر رجلٍ اعتاد على تجاوزات من أيِّ نوع.»

علَّق زائره بلا مبالاة: «مخزون قديم جيد.» وأضاف قائلًا: «يوجد الكثير من الرجال المخمورين وراء جبلي.»

«لقد اكتسبتَ أيضًا الشجاعة منذ الأيام التي فررت فيها من إنجلترا. هل نمتَ في القصر الليلة الماضية؟»

«هل أمتلكُ مكانًا آخر؟ شَغلت أيضًا، إذا كنت تريد أن تعرف، حجرةَ النوم الخاصة بي — وكانت النتائج»، أضاف دوميني، وهو يُلقي برأسه قليلًا إلى الخلف، لإظهار الندبة على حلقه، «غيرَ ذاتِ أهمية على الإطلاق.»

أعلن الطبيب: «هذا حظُّك فقط.» وأضاف قائلًا: «ليس لك الحق في الذهاب إلى هناك دون رؤيتي؛ لا يحقُّ لك، بعد كلِّ ما حدث، أن تقترب من زوجتك.»

علَّق دوميني: «يبدو أنك صارمٌ جدًّا فيما يتعلَّق بشئوني المنزلية.»

كان الرد الفجُّ: «هذا لأنني أعرف تاريخك.»

جلس دوميني غيرُ المدعو على مقعد مريح.

وقال: «لم تكن صديقي أبدًا أيها الطبيب.» وأضاف قائلًا: «اسمح لي أن أقترح أن نُجري هذه المحادثة على أساس مهني بحت.»

جاء الرد: «لم أكن أبدًا صديقك؛ لأنني عرَفتُك دائمًا شخصًا متوحشًا أنانيًّا؛ لأنك كنتَ متزوجًا من ألطف امرأة على وجه الأرض، ولم تتخلَّ عن أيٍّ من عاداتك السيئة، وأخفْتَها إلى حد الجنون بالرجوع إلى المنزل مترنحًا ودمُ رجلٍ آخر على يديك، وبعد ذلك بقيتَ بعيدًا أكثرَ من عشر سنوات بدلًا من بذل جهدٍ لإصلاح الضرر الذي فعلتَه.»

علَّق دوميني: «هذا صار من الماضي، وقد قدَّمْتَه بطريقة غير كاملة إلى حدٍّ ما. أكرِّر اقتراحي بأن نقصر حديثنا على الناحية المهنية.»

رد الآخر: «هذا منزلي، وأنت أتيتَ لرؤيتي. سأقول لك بالضبط ما أودُّ قوله لك، وإذا لم يُعجبك يمكنك الخروج. إذا لم يكن ذلك من أجل الليدي دوميني، فما كان عليك تجاوز هذه العتبة.»

اقترح دوميني بنبرةٍ أرقَّ: «إذن هذا من أجلها، ألا يمكنك أن تنسى مدى كرهك التامِّ لي؟ أنا هنا الآن بهدف واحد فقط: أريدك أن توضِّح لي أيَّ طريقة يمكننا من خلالها العمل معًا لتحسين صحة زوجتي.»

«لا مجال للشراكة بيننا.»

«هل ترفض المساعدة؟»

«مساعدتي بلا قيمة. لقد فعلتُ كلَّ ما بوسعي لها جسديًّا. إنها امرأةٌ سليمة تمامًا. الباقي يعتمد عليك أنت، وأنت وحدك، وأنا لستُ متفائلًا بذلك.»

كرَّر دوميني، بقليل من الاندهاش: «يعتمد عليَّ؟»

قال الطبيب متذمرًا: «الإخلاص سلوك فطري لدى كل النساء الصالحات. والليدي دوميني امرأة صالحة، وهي ليست استثناءً من القاعدة. عقلها يُعاني لأن قلبها يتألم من

أجل الحب. إذا استطاعت أن تُؤمن بندمك وإصلاحك، إذا كان من الممكن تقديمُ أي تعويض عن الماضي وعرضه بسخاء، فلا يمكنني أن أخمِّن ما قد تَئول إليه النتيجة. يقولون لي إنك رجل ثري الآن، مع أن الربَّ يعلم، عندما يفكِّر المرء في مدى كونك رجلًا أنانيًّا كسولًا، فهذا يبدو بمثابة معجزة. يمكنك الإتيان بأعظم الأطباء المتخصصين. لن يتمكَّنوا من المساعدة، لكن قد يريح ضميرَك أن تدفع لهم بِضع مئات من الجنيهات.»

سأل دوميني بقلق: «هل ستُقابلهم؟ قل لي من أطلب؟»

كان الرد المقتضب: «أف! تلك الأيام انتهت ووَلَّت فيما يتعلق بي.» وأضاف قائلًا: «لن أقابل أيًّا منهم. لم أعُد طبيبًا. لقد صرتُ قرويًّا. أذهب لأرى الليدي دوميني بوصفها صديقةً قديمة.»

توسَّل دوميني: «أعطِني نصيحتك.» وأضاف قائلًا: «هل من نفعٍ وراء طلب حضور أطباء متخصِّصين؟»

«في الوقت الحاضر، لا نفع على الإطلاق.»

«وماذا عن تلك المرأة الرهيبة، السيدة أنثانك؟»

«إنها جزءٌ من مهمتك، إذا كنت ستقوم بها حقًّا. فهي تحول بين زوجتِك والشمس.»

سأل دوميني: «إذن لماذا احتملت بقاءها هناك كلَّ تلك السنوات؟»

أجاب الطبيب: «لسبب واحد؛ لأنه لم يكن يوجد مَن يحل محلَّها، ولسبب آخر، وهو أن الليدي دوميني تعتقد أنك قتلتَ ابنها؛ لذلك كان لديها تلك الفكرة الرائعة بمنحها منزلًا ومأوًى كنوع من التكفير عن الذنب.»

سأل دوميني: «هل تعتقد أنه لا يوجد محبةٌ بين الاثنتين؟»

كان الرد الصريح: «على الإطلاق، باستثناء أن الليدي دوميني ذاتُ طبيعة طيبة ولطيفة جدًّا ...»

توقَّف الطبيب فجأة. وضع الزائرُ أصابعه على حلقه.

تابع الأول بقوة: «ذلك أمر مختلف.» وأضاف قائلًا: «تلك فحسب هي نقطة الضَّعف في عقلها. وإذا سألتني، فأعتقد أن السيدة أنثانك تستغلُّ نقطة الضَّعف هذه. فكِّر في الأمر» وتابع قائلًا: «لم يكن آل دوميني جُبناء أبدًا. لذا إذا استعدتَ شجاعتك، فاصرف السيدة أنثانك، ونمْ وأبوابك مفتوحة على مصاريعِها. إذا مرَّت ليلةٌ واحدة دون أن تأتي الليدي دوميني إلى غرفتك وبيدها سكين، فستُشفى من ذلك الهوس عاجلًا أو آجلًا بأي حال من الأحوال. هل تجرؤ على فعل ذلك؟»

كان تردُّد دوميني واضحًا — وأيضًا غضبه. ابتسم الطبيب بازدراء.

قال ساخرًا: «ما زلتَ خائفًا!»

أجاب زائرُه: «ليس بالطريقة التي تتخيلها. فزوجتي وعدَت بالفعل بألا تُقْدِمَ على قتلي مرة أخرى.»

صرَّح الطبيب: «حسنًا، يمكنك أن تشفيها إن كنت ترغب في ذلك، وإذا فعلتَ ذلك، فسيكون لديك أرقُّ رفيقة يمكن أن يحظى بها المرءُ مدى الحياة. لكن سيتعين عليك أن تتخلى عن فكرة مَنازل المدينة والسباقات واليخوت، وصيد الدجاج البري في اسكتلندا، وكل هذه الأشياء التي أفترض أنك كنت تتطلع إليها. سيتعيَّن عليك لبعض الوقت، على أي حال، أن تُخصص كلَّ لحظة من وقتك لزوجتك.»

تململ دوميني في كرسيِّه بقلق.

وقال: «في الأشهر القليلة المقبلة، سيكون ذلك مستحيلًا.»

«مستحيل!»

كرَّر الطبيب الكلمة، وبدا وكأنه يُعيدها في فمه بنوعٍ من الاستهزاء المتعجِّب.

أوضح دوميني عابسًا: «أنا لستُ الشخصَ العاطل الذي اعتدتُ أن أكونَه.» وأضاف قائلًا: «في الوقت الحاضر، لا يمكنك كسبُ المال دون تحمُّل المسئوليات. أنا بصدد تصفية كافة الرهون العقارية على ممتلكات آل دوميني خلال الأشهر القليلة القادمة.»

تمتمَ الطبيب: «الكيفية التي تقضي بها وقتَك هي شأنك أنت، وليست من شأني.» وأضاف قائلًا: «كلُّ ما أقوله عن الأمر هو أن علاج زوجتك، إنْ حدَث يومًا ما، فهو في يدَيك. والآن — تعالَ إليَّ هنا، في ضوء هذه النافذة. أريد أن أنظر إليك.»

أطاعه دوميني بهِزةٍ خفيفةٍ لكتفَيه. لم تكن الشمس مشرقة، لكن ضوء الشمال الأبيض كان يخترق المكانَ بطريقته الخاصة. وأظهر تناثرُ الشَّعر الرمادي في شَعره البُني المائل إلى الحمرة، وفي شاربه المشذَّب بعناية، لكنه لم يجد نقطةَ ضعف في عينيه الثابتتَين، أو في سُمرة بشَرته القاسية الرجولية، أو حتى في شفتيه المتعجرفتين إلى حدٍّ ما. تناول الطبيب العجوز علبة الذباب مرة أخرى وحرَّك رأسَه نحو الباب.

قال: «أنت معجزة، وأنا أكره المعجزات. سآتي لأرى الليدي دوميني في غضون يوم أو نحو ذلك.»

الفصل الثاني عشر

أمضى دوميني وقتَ بعد الظهر في هدوءٍ يُثير الفضول، ومُرضٍ تمامًا لأولئك الذين تواصلَ معهم. وبوجود السيد مانجان إلى جانبه، مُتمتمًا بملاحظات تافهة وَدودة، والسيد جونسون، وكيله، في المقابل، مستمتعًا بالوضع غير المعتاد لمالك عقار راضٍ ومستأجرين مبتهجين، تجوَّل فعليًّا في ممتلكات آل دوميني كاملة. ووصلوا إلى البيت في وقتٍ متأخر، لكن دوميني، على الرغم من أنه كان يبدو أنه يعيش في عالم آخر، لم يتجاهل حقوق حُسن الضيافة. ربما للمرة الأولى في حياتهما، شاهد السيد جونسون وليز، وكيلُ المزرعة، افتتاحَ زجاجة شمبانيا كبيرة. تنحنح السيد جونسون وهو يرفع كأسه.

وقال: «ليس فقط بالأصالة عن نفسي، يا سير إيفرارد، أنني أشرب نَخب صحتك الجيدة القوية. فلديَّ أيضًا في ذهني المستأجرون. فقد مرُّوا بوقتٍ عصيب — بعضهم — وقد صمدوا مثل الرجال البيض. لذا، ها هو ذا نَخبهم ونَخبي، يا سيدي، ونتمنَّى أن نرى كثيرين من أمثالك في هذه الأنحاء.»

أيَّد السيد ليز هذه المشاعر، وسرعان ما أُفْرِغَت الأكواب ومُلِئت مرةً أخرى.

علَّق الوكيل: «أفترض أنك تعرف، يا سير إيفرارد، أن ما وعدتَ بفعله اليوم سيُكلف ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألف جنيه.»

أومأ دوميني.

وقال: «قبل أن أخلدَ إلى النوم الليلة، سأرسل شيكًا بعشرين ألف جنيه إلى حساب الممتلكات في بنكك في ويلز. المال هناك في الانتظار، مدَّخرٌ لهذا الغرض، حسَنًا، ويُمكنك الحصول عليه أيضًا.»

بعد نصف الساعة، استند الوكيل ووكيل المزرعة إلى المقعد الخلفيِّ لسيارتهما، وفي فمهما سيجار ضخم وبداخلهما شعورٌ بدفء لطيف. كان لديهما إحساسٌ بالانجراف إلى عالم الخيال. ومع ذلك، تعاملت فلسفتُهما مع الوضع.

أفصح السيد ليز: «إنها معجزةٌ رائعة.»

غمغم جونسون الذي كان يقرأ الروايات: «قصة حب حديثة.» وأضاف، بينما كانت سيارة تمر بجوارهما: «مرحبًا، ها قد جاء زائرٌ للقصر.»

وعلَّق السيد ليز قائلًا: «رجل نبيل لطيف المظهر أيضًا.»

كان الرجل النبيل لطيف المظهر هو أوتو سيمان، الذي جاء إلى القصر بحقيبة ملابس صغيرة واعتذارات كثيرة.

وأوضح: «وجدتُ نفسي في نورويتش، يا سير إيفرارد.» وأضاف قائلًا: «لقد عملتُ هناك طوال حياتي، وكان أحدُ زبائني بحاجةٍ إلى الرعاية. انتهيت مبكرًا، وعندما اكتشفت أنني كنت على بُعد ثلاثين ميلًا فقط منك، لم أستطِع مقاومة المرور عليك. إذا كان من غير المناسب بأيِّ شكل من الأشكال أن أمكث هنا الليلة، فقل ذلك ...»

قاطعه دوميني: «صديقي العزيز!» وأضاف قائلًا: «توجد غرفٌ كثيرة جاهزة. كلُّ ما نحتاج إليه هو إشعال النار، وسيتولَّى مُدفِّئ الفراش عتيقُ الطراز الباقيَ. هل تتذكَّر السيد مانجان؟»

تصافح الرجلان، وقبل سيمان القليل من المرطِّبات بعد رحلته بالسيارة. تباطأ في الخلف للحظةٍ بعد أن قرع جرس ارتداء الملابس.

وسأل: «في أي وقتٍ يُغادر ذلك الرفيق؟»

أجاب دوميني: «غدًا في الساعة التاسعة صباحًا.»

همس سيمان: «إذن لا تنطق بكلمة حتى ذلك الحين.» وأضاف قائلًا: «يجب ألا أبدوَ ملازمًا لك أكثرَ من اللازم — لم أرغب في المجيء حقًّا — لكن الأمر عاجل.»

اقترح دوميني: «يمكننا إرسالُ مانجان إلى الفِراش مبكرًا.»

ردَّ بإرهاق: «إنني أستيقظ مبكرًا.» وأضاف قائلًا: «وكنت مستيقظًا طوال الليلة الماضية. صباح الغد سيَفي بالغرض.»

كان العَشاء في تلك الليلة وجبةً ممتعة واجتماعية. وكان السيد مانجان بخاصة سعيدًا للغاية. فكلُّ ما يتعلَّق بآل دوميني على مدار الخمسة عشَر عامًا الماضية كانت تفوح منه رائحة الفقر. وقد كان يُعاني حقًّا من صعوبة تدبُّرِ أمورِ معيشته. كانت ثَمة مقابلاتٌ

بغيضة مع مستأجرين غاضبين، ومقابلاتٌ رسمية مع أصحاب رهون عقارية غير راضين، وربحٌ ضئيل للغاية في نهاية العام في مواجهة هذه الوقائع البغيضة. كان الوضع الجديد شبه رائع. لعل اللمسة الختامية هي همسة التهنئة من باركنز وهو يضع زجاجتَين على الطاولة.

فيما أَسَرَّ به همسًا: «لقد وجدتُ صندوقًا من نبيذ كوكبيرن «واحد وخمسين»، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «ظننتُ أنك قد ترغب في تجرِبة زجاجتين؛ إذ يبدو السيد مانجان ذواقًا، يا سيدي. يبدو أن السدادة في حالة ممتازة.»

تنهَّد السيد مانجان: «بعد هذا، سيكون من الصعب العودةُ إلى حياة نادي بال مول المتقشفة!»

تحجَّج سيمان، في وقت مبكِّر جدًّا من المساء، بنُعاسٍ غير عادي وأوى إلى الفراش، تاركًا مضيفه ومانجان بمفردهما مع نبيذ بورت. بدا دوميني، على الرغم من كونه مضيفًا يقظًا، شارد الذهن بعض الشيء. حتى السيد مانجان، الذي لم يكن رجلًا شديدَ الانتباه، أدرك أن بعض الصلابة، والغطرسة في الكلام والأسلوب، بدت أنها تخلَّت عن موكله مؤقتًا.

قال وهو يحتسي كأسه الأول من النبيذ: «لا يمكنني، يا سير إيفرارد، أن أصف لك مدى سروري برؤيةِ عائلةٍ قديمة تعود إلى ما كانت عليه. وإذا سمحتَ لي بقول ذلك، فثَمة شيء واحد فقط ضروريٌّ لإعادة الأمر برمَّته، كما كان.»

سأل دوميني دون تفكير: «ما هو؟»

«استعادة الليدي دوميني لصحتها. فقد كنتُ واحدًا من القلائل، ربما تتذكَّر، الذين تشرفوا بالتعرُّف عليها وقتَ زواجك.»

قال دوميني: «هذا الصباحَ زرت الطبيب الذي كان يرعاها منذ زواجها. إنه يتفقُ معي في أنه لا يوجد سبب يمنع الليدي دوميني، بمرور الوقت، من استعادة صحتها الكاملة.»

غمغمَ المحامي: «سأسمح لنفسي بأن أُنهيَ كأسي في نَخب هذا الأمل، يا سير إيفرارد.»

وُضِعت كِلتا الكأسَين فارغة، إلا أن ساق كأس دوميني كُسِرت إلى اثنتين. أعرب السيد مانجان عن أسفه بتهذيب.

وغمغم، وهو ينظر إلى كأسه بإعجاب: «هذه الكأس القديمة أصبحت هشَّةً للغاية.»

لم يردَّ دوميني. كان عقله قد زيَّن له خدعة غريبة. في ظلام الغرفة، كان قد تخيَّل أنه يُمكنه رؤية ستيفاني إيدرستروم وهي تمد ذراعَيها، وتناديه ليفيَ بالتعهدات التي قطعها منذ مدة طويلة، وخلفها ...

سأل دوميني رفيقه: «هل سبق لك أن وقعتَ في الحب يا مانجان؟»

«أنا يا سيدي؟ حسنًا، لستُ متأكدًا»، أجاب الرجل ذو الخبرة الكبيرة، مندهشًا بعضَ الشيء من مفاجأة السؤال. «إنها طريقةٌ قديمة الطِّراز للنظر إلى الأشياء الآن، أليس كذلك؟»

عاد دوميني إلى التفكير.

واعترف: «أظنُّ ذلك.»

في تلك الليلة، هبَّت عاصفة من مكانٍ ما عبر تلك المياه الرمادية الخاوية، عاصفة بشَّرت بها ريحٌ اندفعت مدوِّية فوق المستنقعات، وهزَّت نوافذ قصر دوميني المزودة بشبكة فوقها، مُصدرةً صيحاتٍ ونحيبًا بين مداخنه وحول أركانه العديدة. مالت السحبُ السوداء على الأرض، واندفعت تيارات المطر الغزيرة تضرب إطاراتِ النوافذ غيرَ المحكَمة. أشعل دوميني الشموع الطويلة في غرفة نومه، ولفَّ الروب حوله، وألقى بنفسه على كرسيٍّ مريح، وثبَّت بجانبه مصباحَ قراءةٍ كهربائيًّا وحاول القراءة. وسرعان ما انزلق الكتاب من بين أصابعه. وأصبح فجأة متوترًا ويقظًا. عَدَّت عيناه الألواحَ في الحائط بجوار الجانب الأيسر من الفراش واحدًا تِلو الآخر. تكرَّرت النقرة المألوفة مرتين. للحظةٍ ظهر فراغ مظلم. ثم انحنت امرأةٌ ودخلت إلى الغرفة بسلاسة. اقتربت منه ببطء، مثل فراشةٍ منجذبة نحو لهيب الشمعة الذي اتخذ شكل نصف دائرة. كان شعرها ينسدل على ظهرها مثل شعر فتاة صغيرة، وعلى نحوٍ غير متوقَّع ذكَّره الروب الأبيض الذي كان يرفرف حولها بشارع بوند ستريت.

سألتْه بقلق: «ألستَ خائفًا؟» وأردفت قائلةً: «انظر، لا أحمل شيئًا في يدي. أكاد أظن أن الرغبة قد وَلَّتْ. هل تتذكر الخنجر الصغير الذي كان معي ليلة أمس؟ اليوم ألقيتُ به في البئر. كانت السيدة أنثانك غاضبةً جدًّا مني.»

أكَّد لها: «لستُ خائفًا، ولكن ...»

توسَّلت: «آه، لكنك لن تُؤنبني؟» وتابعت قائلةً: «إن العاصفة هي ما يُخيفني.»

سحب لها مقعدًا منخفضًا في دائرة الضوء الصغيرة ورتَّب بعض الوسائد. عندما جلست، نظرت إليه فجأةً وابتسمَت ابتسامةً ذاتَ جمال نادر ورائع. شعر دوميني للحظة بشيء مثل طعنة سكينٍ في قلبه.

طلب بكِياسة: «اجلسي هنا واستريحي.» وأضاف قائلًا: «لا يوجد ما يدعو للخوف.»

أجابت ببساطة: «أعرف ذلك في قلبي.» وأردفت قائلةً: «فهذه العواصف جزءٌ من حياتنا. تأتي مع الولادة وتهزُّ العالم عندما يستولي علينا الموت. يجب ألا يخافَ المرء، لكني كنت مريضة جدًّا، يا إيفرارد. هل ما زل بإمكاني مُناداتك إيفرارد؟»

سأل: «لمَ لا؟»

قالت له: «لأنك لم تَعُد تُشبه إيفرارد في نظري؛ لأن شيئًا ما فيك قد اختفى، واكتسبتَ شيئًا آخر. أنت لست نفس الرجل. ماذا حدث؟ هل واجهتَ مشكلات في أفريقيا؟ هل تعلَّمت ماهية الحياة هناك؟»

جلس ينظر إليها للحظة، مستلقيًا على مقعده الذي دفعه بضعةَ أقدامٍ في الظل. كان شعرها لامعًا ورائعًا، وجعل بشرتها تبدو أكثرَ بياضًا ونعومة من أي وقت مضى. وكانت عيناها لامعتين، ولكنهما كانتا حزينتَين، وبهما شيء من خوف الطفل من الأذى. بدَت شابة جدًّا وهشة جدًّا بحيث لا يمكن أن يكون قد سيطر عليها شغفٌ شرير عبر السنين.

قال لها بهدوء: «تعلَّمت أشياءَ كثيرة هناك، يا روزاموند.» وأضاف قائلًا: «تعلمتُ القليل عن الفرْق بين فعل الصواب والخطأ. تعلمت أيضًا أن كلَّ أهواء الحياة تحترق، باستثناء واحدٍ فقط.»

لَوَتْ حزامَ روبها في أصابعها للحظة. بدا أن حديثه الأخير كان خارج نطاق فهْمها أو اهتمامها.

قالت بشكل مثير للشفقة قليلًا: «لا داعي للخوف مني بعد الآن، يا إيفرارد.»

أجاب: «لستُ خائفًا منكِ.»

سألت وهي ترفع عينيها: «إذن لماذا لا تجلب مقعدك إلى الأمام وتأتي وتجلسُ أقربَ مني قليلًا؟» وتابعت قائلةً: «هل تسمع الريح، كيف تصرخ فينا؟ أوه، أنا خائفة!»

تقدَّم إلى الأمام بجانبها، وأمسك بيدها برفق. استجابت أصابعها على الفور لضغطته. وعندما تحدَّث، بالكاد تعرَّف على صوته. بدا له غليظًا ومخنوقًا.

قال واعدًا إياها: «الريح لن تُؤذيَكِ، ولا أيُّ شيء آخر.» وأضاف قائلًا: «لقد عُدتُ لأعتنيَ بكِ.»

تنهَّدت، وابتسمَت مثل طفل متعب، وأغلقت عينيها بينما سقط رأسها إلى الوراء بين الوسائد.

توسَّلت: «ابقَ هكذا، من فضلك.» وتابعت قائلةً: «ثمَّة شيء جديد يحدث لي. إنني أستريح. هذه أحلى راحة شعرت بها على الإطلاق. لا تتحرك يا إيفرارد. دعْ أصابعي تبقى في يدك — هكذا.»

احترقت الشموع في أعمدتها، واشتدت حدة الريح، ولم تتلاشَ إلا مع بزوغ الفجر عبر غيوم العاصفة. تسلل ضوء شاحب إلى الغرفة. كانت المرأة لا تزال نائمةً، وبدا أن أصابعها كانت لا تزال تتمسك بيده. كان تنفسُها خفيفًا ومنتظمًا طوال الوقت. وكانت رموشها السوداء الحريرية ساكنةً بلا حَراك على وجنتيها الشاحبتين. استرخى فمُها — ذو الشكل المثالي للغاية — في هدوء. بطريقةٍ ما أدرك أنه كان ثمة شيء جديد في هذا النوم. بعينين ملتهبتَين وأطرافٍ مؤلمة جلس طوال الليل. راوده حلم تلو الآخر ومرَّ أمام تلك الخلفيَّة الصغيرة للجدار المزيَّن باللوحات النسيجية. عندما فتحت عينَيها ونظرت إليه، افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ تُشبه تلك الابتسامة التي كانت عليهما عندما نامت.

تمتمت: «أنا مرتاحةٌ جدًّا.» وتابعت قائلةً: «أشعر أنني بحالة جيدة. لقد راودتني أحلام؛ أحلامٌ جميلة.»

كانت النار قد انطفأت، وكانت الغرفة باردة.

قال: «يجب أن تعودي إلى غرفتك الآن.»

ببطء شديدٍ استرخت أصابعها. ومدَّت ذراعيها.

توسَّلت: «احملني.» وتابعت قائلةً: «إنني شبهُ مستيقظة فحسب. أريد أن أنام مرة أخرى.»

حمَلَها. أُغلِقَت أصابعها حول رقبته، وسقط رأسها إلى الوراء وهي تتنهَّد تنهيدةَ رضًا خفيفة. حاول فتح الأبواب القابلة للطي، ولما وجد صعوبةً في فتحها حملَها للخارج إلى الممر، ثم إلى غرفتها الخاصة، ووضعَها على الفِراش المرتَّب.

سأل: «هل أنتِ مرتاحةٌ تمامًا؟»

تمتمت بنعاس: «تمامًا.» وتابعت قائلةً: «قبِّلني، يا إيفرارد.»

جذبت يداها وجهَه إلى أسفل. واستقرت شفتاه على جبهتها. ثم سحب غِطاء الفِراش فوقها وهرب.

الفصل الثالث عشر

كان وجهُ سيمان المرح عابسًا، بينما كان هو ومضيفه، متدثرَين في معطفَيهما، يسيران جَيئةً وذهابًا في الشرفة في صباح اليوم التالي، بعد رحيل السيد مانجان. وفجأة أفصح عما يدور في عقله.

وقال: «في غضون دقائق قليلة، سأتطرَّق إلى الهدف العظيم من زيارتي. لديَّ أخبار عظيمة ورائعة لك. لكن يمكن تأجيلها.»

سأل دوميني بفضول: «هل حان وقت العمل؟» وأضاف قائلًا: «آمل أن تتذكر أنه حتى الآن أنا لم أكد أستقرُّ هنا.»

أوضح سيمان بطريقةٍ جافة: «فيما يتعلق باستقرارك هنا، أود أن أقول شيئًا.» وأضاف قائلًا: «لقد عرَفْنا الكثير عن بعضنا البعض منذ أن التقينا في كيب تاون. لقد تمكنتُ من الحكم على شغفي والهدف من حياتي. من بين تلك الأوقات الفاصلة التي تُعتبر ضرورية للإنسان، ما لم يكن نظامُه سينهار إلى قطعٍ مثل الغبار الجاف، رأيتَ شيئًا أيضًا. أنا على ثقةٍ من أنك لن تُسيء فهمي عندما أقول إنه بصرف النظر عن ضرورات عملي؛ فأنا رجل عاطفي.»

غمغمَ دوميني بتكاسل: «أنا على استعداد للاعتراف بذلك.»

«لقد أخذتَ على عاتقك مهمةً عظيمة. لقد كانت، بلا شك، ضربةَ حظٍّ خارقةً تلك التي جلبت الرجل الإنجليزي، دوميني، إلى معسكرك في اللحظة التي تلقَّيت فيها أوامرك من المقر الرئيسي. لقد قوبلتْ خُطتك التي وضعتها بنفسك بكل تشجيع منَّا. وستُوضع في موقعٍ فريدٍ لتحقيق هدفك النهائي. الآن تذكَّر كلامي جيدًا ولا تُسِئ فهْمي. إن العامل الرئيسي لتقدمنا هو القسوة. واتخاذ خطوة واحدة للأمام نحو تحقيق هذا الغرض يستحق

التضحية بكلِّ ما يمكن تخيُّله من ضمير وكِياسة. ولكن عندما يكون مسار عملٍ معيَّن بلا فائدة لغرضنا، أرى قبحًا فيه. إنه يُكدرني.»

سأل دوميني: «ماذا تقصد بحق الجحيم؟»

أجاب سيمان: «أنام وإحدى أذنَيَّ مفتوحة.»

«حسنًا؟»

تابع سيمان: «رأيتُك تغادر غرفتك في وقتٍ مبكِّر هذا الصباح، وتحمل الليدي دوميني بين ذراعيك.»

كانت توجد خطوطٌ دقيقة من الشحوب تحت سمرة وجه دوميني. وكانت عيناه تتلألآن مثل المعدن. لم يستطِع التحكُّم في صوته إلا عندما تنفَّس مرةً أو مرتين بسرعة.

سأل: «ما شأنك بهذا الأمر؟»

أمسك سيمان بذراع رفيقه.

وقال: «انظر هنا، نحن في تحالفٍ وثيق جدًّا بحيث لا يمكن أن يخدع أيٌّ منا الآخَر. أنا هنا لمساعدتك لتحلَّ محل رجل آخر، فيما يتعلق بممتلكاته، ومنصبه، وشخصيته التي، بالمناسبة، تتولَّى أنت إعادةَ تأهيلها. سأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. سوف أعترف أنه ليس من شأني التدخلُ في أي علاقة غرامية عادية قد تدخل فيها، ولكن — سأقول لك هذا، يا صديقي، في وجهك — ليس من أفعال النبلاء البروسيين خداعُ سيدة ضعيفة الذكاء، مهما كانت جميلةً، للاستفادة من وضعك بوصفك زوجها المفترض، باستثناء أن يكون ذلك لخدمة المصالح الحيوية لبلده.»

بدا أن شغف دوميني قد انطفأ دون أي تعبير. لم يُظهِر أدنى استياء من كلام رفيقه.

قال: «لا تخفْ يا سيمان.» وأضاف قائلًا: «الوضع حساس، لكن يمكنني التعامل معه كرجلٍ شريف.»

اعترف سيمان: «لقد أرحتَني.» وأضاف قائلًا: «يجب أن تعترف أن مشهد الليلة الماضية كان من شأنه إثارةُ القلق بداخلي.»

أوضح دوميني: «أنا أحترمك على كلماتك الصريحة.» وأضاف قائلًا: «الحقيقة هي أن الليدي دوميني كانت خائفة من العاصفة الليلة الماضية لذا جاءت إلى غرفتي. ربما تكون مُحقًّا من أنني عاملتُها بكل الاحترام والتعاطف الذي تتطلَّبه أوضاعنا.»

علَّق سيمان بعد التفكير مَليًّا: «يبدو أن الليدي دوميني، تتوهَّم أحداثًا معينةً بطريقةٍ مثيرة للفضول.»

«كيف؟»

«الانطباع السائد في الجوار هنا هو أنها مهووسة بشكل رئيسي بموضوع واحد — كُرهها لك. من المعروف أنها أقسمت أن تموت إذا نمتَ في هذا المنزل مرةً أخرى. أنت بطبيعة الحال، لكونك رجلًا شجاعًا، تجاهلتَ كل هذا، ولكن في الصباح بعد ليلتك الأولى هنا كان يوجد دمٌ على منامتِك.»

ارتفع حاجبا دوميني ببطء.

وعلَّق بسخريةٍ لا إرادية: «أنت تتلقَّى المعلومات من مصدرٍ جيد هنا.»

كان الردُّ المقتضب: «هذا — من أجل مصلحتك ومصلحتنا — أمرٌ ضروري.» وأضاف قائلًا: «فلأتابع حديثي؛ الأشخاص الذين يُعانون من عقل غير سليم يتمسَّكون بأفكارهم بشكل ملحوظ. وبالتأكيد لم يكن يوجد أيُّ شيء يدل على القتل في سلوكها تجاهك الليلة الماضية. ألا يمكنُك أن ترى أن الموقف الودود للغاية من جانبها قد يصبح مدمِّرًا لمخططاتنا؟»

«كيف؟»

أوضح سيمان: «إذا صارت هُويتك موضعَ شك في أي وقت — ويجب أن أعترف بأنَّ احتمالية ذلك تقلُّ كل يوم — فإن حقيقة أن الليدي دوميني قد نسيَت كل عدائها لك بهذه السرعة سيكون دليلًا افتراضيًّا قويًّا على أنك لستَ الرجلَ الذي تدَّعيه.»

وافق دوميني: «فكرة بارعة وممكنة جدًّا. ومع ذلك، فإننا نتحدَّث طَوال هذا الوقت عما تُقرُّ أنت نفسك بأنه مشكلة جانبية.»

اعترف سيمان: «أنت مُحِق. حسنًا، إذن، اسمع. هذه لحظة رائعة لك يا صديقي.»

«اشرح لو سمحت.»

«سأفعل ذلك. لقد رأيت دليلًا، خلال الأيام القليلة الماضية، على أن خلفك منظمةً لا يُمثل المالُ لها شيئًا. إنه نفس الشيء في الدبلوماسية كما في الحرب. ستدفع ألمانيا ثمنَ ما تنوي تحقيقه. أمسِ حُوِّل تسعون ألفَ جنيه إلى حسابك للتخلُّص من بعض الرهون العقارية. في غضون أشهر قليلة أو بضع سنوات، سيستفيد أحدُ أقارب آل دوميني البعيدين إلى هذا الحد. لا يمكننا استردادُ المال. إنه مجرد بند في نفقاتنا اليومية.»

اعترف دوميني: «لقد كانت بالتأكيد طريقةً رائعة لتوطيد علاقتي بالآخرين.»

أوضح سيمان: «رائعة، ولكنها الأكثرُ أمانًا على المدى الطويل.» وأضاف قائلًا: «لو أنك كنتَ قد عُدتَ رجلًا فقيرًا، لانقلب الجميع ضدك؛ ولظهرت الشكوكُ التي لم تُثَر حتى

الآن على الإطلاق؛ والأهم من ذلك، ربما لم تكن لتتمكَّن من أخذِ مكانك في المجتمع، وهو أمرٌ ضروري للغاية لتعزيز خطتنا.»

تساءل دوميني: «ألم يَحِن الوقت بعدُ لتصبح الطريقة أوضحَ قليلًا لي؟»

أجاب سيمان: «كانت هذه ستُصبح مهمتي هذا الصباح، لكن من أجل الأخبار التي أحملُها. ومع ذلك، اسمح لي أن أعِدَك بهذا. لن يُطلب منك أبدًا الانحدارُ إلى الطرق الملتوية للجاسوس العادي. نريدك لغرضٍ مختلف.»

«وماذا عن الأخبار؟»

قال سيمان بجدية: «أعظم رغبة في قلبك على وشك أن تتحقَّق. لقد أعرب القيصر عن رغبته في رؤيتك وإعطائك تعليماتِه شخصيًّا.»

توقَّف دوميني فجأةً عند الشرفة. وسحب ذراعه من ذراع رفيقه وحدَّق فيه دون أيِّ تعبير على وجهه.

وصاح: «القيصر؟» وأضاف قائلًا: «هل تقصد أنني سأذهب إلى ألمانيا؟»

أجاب سيمان: «سنبدأ على الفور.» وأضاف قائلًا: «أنا شخصيًّا لا أعتبر الإجراء سِريًّا أو ضروريًّا. ومع ذلك، فقد تُقرِّر ذلك دون استشارتي.»

احتجَّ دوميني قائلًا: «إنني أعتبره انتحارًا.» وأضاف قائلًا: «ما التفسير الذي يمكنني تقديمه للذَّهاب إلى ألمانيا، من بين جميع دول العالم، قبل أن يكون لديَّ وقتٌ للاستقرار هنا؟»

أوضح رفيقُه: «ذلك في حد ذاته لن يكون صعبًا.» وأضاف قائلًا: «فالعديد من المناجم التي اشتُرِيت فيها حصةٌ باسمك تُدار برأس مالٍ ألماني. من السهل أن نتخيَّل حدوث أزمة في إدارة أحدها. ونطلب تصويتَ زملائنا المساهمين. لا داعي لأن تشغل بالك بشأن ذلك. وفكِّر في روعة الأمر! تخيَّل لو رُفِعَت عقوبة النفي عنك يومًا واحدًا فقط. سوف تتنفَّس هواء أرض الوطن مرةً أخرى.»

تمتم دوميني: «سيكون ذلك رائعًا.»

وعد سيمان: «ستكون لك بمثابةِ نَسمةٍ من الأشياء التي ستحدث في المستقبل. والآن، إلى العمل. كم أحب العمل! ها هو ذا الجدول الزمني، يا صديقي، وسائقك.»

رُتِّب لمغادرة الرجلين في الصباح إلى نورويتش بالسيارة ومنها إلى هارويتش. بعد أن أبدل دوميني ملابسَه بملابس السفر، أرسل رسولًا للسيدة أنثانك، التي جاءت إليه على الفور في مكتبه. سحب لها كرسيًّا، لكنها رفضَت أن تجلس.

قال: «سيدة أنثانك، أودُّ أن أعرف لماذا كنتِ راضيةً بالبقاء مرافقةً لزوجتي طوال السنوات العشر الماضية؟»

ذُهِلَت السيدة أنثانك من مفاجأة الهجوم.

وأجابت بعد توقفٍ للحظة: «الليدي دوميني احتاجت إليَّ.»

سأل: «هل تعتقدين أنك كنتِ أفضلَ رفيق ممكن لها؟»

أجابت المرأة: «لم تكن أبدًا مستعدةً لقَبول أي شخص آخر.»

استفسر: «هل أنت مخلصةٌ جدًّا لزوجتي؟»

من الواضح أن السيدة أنثانك، بالرغم من تجهُّمها وشراستها، كانت مرتبكةً من تتابع أسئلة دوميني.

سألت: «لو لم أكن كذلك، هل كنت سأمكث هنا كلَّ هذه السنوات؟»

تابع: «أكادُ لا أفهم ما حقُّ زوجتي عليكِ. علاوة على ذلك، أعلم أنك من أولئك الذين يؤمنون بشدة أنني قتلتُ ابنك. هل رعاية زوجتي عملٌ مسيحي، إذن — ردٌّ للشرِّ بالخير؟»

سألت بقسوة: «ماذا تريد أن تقول لي بالضبط، يا سير إيفرارد؟»

أجاب دوميني: «أودُّ أن أقول إنني عازم على استعادة زوجتي لصحتها. لهذا السبب، سأُحضر متخصصين إلى هنا، وقبل كل شيء سأغيِّر لبعض الوقت مكانَ إقامتها. شعوري الخاص هو أنها ستتمتع بفرصةٍ أفضلَ بكثير للتعافي من دون مرافقتك.»

سألت المرأة: «هل تجرؤ على إبعادي؟»

اعترف دوميني: «ذلك ما أنوي فعْلَه.» وأردف قائلًا: «لم أتحدَّث إلى الليدي دوميني بعد، لكنني آمُل أنه قريبًا جدًّا سيجعلها تأثيري عليها راضيةً بالانصياع لرغباتي. أعتبر نفسي مسئولًا عن مستقبلك من الناحية المالية. لذا سأعطيكِ ثلاثمائة جنيهٍ في السنة.»

أظهرت المرأة أولى علاماتِ ضَعفها. وبدأت ترتجف. كانت ثمةَ نظرةُ خوف غريبة في عينيها.

صاحت: «لا يُمكنني مغادرة هذا المكان، يا سير إيفرارد.» وتابعت قائلةً: «يجب أن أبقى هنا!»

سأل: «لماذا؟»

أجابت بتجهُّم: «الليدي دوميني لا تستطيع الاستغناء عني.»

أجاب: «ذلك القرار يعود إليها. أنا شخصيًّا، من التحقيقات التي أجريتُها، أعتقد أنكِ عزَّزتِ بداخلها تلك الخرافاتِ السخيفةَ حول شبح ابنك. وأعتقد أيضًا أنك أحييتِ فيها روحَ الكراهية غير المنطقية التي شعرَت بها تجاهي.»

صرخت المرأة: «هل تُسميها غير منطقية؟» وتابعت قائلةً: «أنت الذي أتيت إليها ويداك ملطَّختان بدماء الرجل الذي، لو كنت بقيت بعيدًا، لربما أحبَّته يومًا ما؟ هل تُسميها غير منطقية؟»

قال دوميني: «لقد أنهيتُ ما كان عليَّ قولُه، يا سيدة أنثانك. وأجد نفسي مضطرًّا بسبب أعمال هامةٍ إلى المغادرة لمدة يومين أو ثلاثة أيام. وعند عودتي سأشرع في التغييرات التي أطلعتك عليها. وفي غضون ذلك» أضاف وهو يشاهد تغيُّرًا غريبًا في تعبيرات وجه المرأة: «لقد أرسلتُ هذا الصباح رسالةً إلى الطبيب هاريسون، وطلبتُ منه أن يأتيَ بعد ظهر اليوم وأن يعتنيَ شخصيًّا بالليدي دوميني حتى عودتي.»

وقفت ساكنة تمامًا تنظرُ إليه. ثم اقتربت قليلًا وانحنت إلى الأمام، كما لو كانت تدرسُ وجهه.

وتمتمت قائلة: «أحد عشر عامًا تُغيِّر الكثيرَ من الرجال، لكنني لم أعرف قط رجلًا يتبدل حالُه من ضعيفٍ إلى قوي.»

أجاب دوميني: «لم يتبقَّ لديَّ ما أقوله لك، باستثناء أن أخبرك بأني قادم لرؤية زوجتي في غضون بضع دقائق.»

أُطلق بوق السيارة بالفعل بالأسفل عندما دخل دوميني جناح زوجته. كانت ترتدي ثوبًا فضفاضًا من اللون القرمزي الدافئ، وكانت كأنها تنتظر وصولَه بترقُّب. بدا أن شعور الكراهية قد اختفى من وجهها الشاحب، ومن أعماقِ عينيها الناعمتين بغرابة. مدَّت يدَيها تجاهه. كان حاجباها مجعَّدين قليلًا. كان يكمن في أسلوبها خيبةُ أملِ طفلة.

تمتمت: «هل أنت ذاهبٌ بعيدًا؟»

قال لها: «بعد لحظاتٍ قليلة.» وأضاف قائلًا: «كنت أنتظر رؤيتكِ لمدة ساعة.»

ظهر التجهُّم على وجهِها.

«السيدة أنثانك هي السبب. أظن أنها أخفت أشيائي عن قصد. كنتُ متلهفة جدًّا لرؤيتك.»

قال: «أريد أن أتحدثَ معك عن السيدة أنثانك.» وأضاف قائلًا: «هل ستحزنين إذا أبعدتُها ووجدتُ شخصًا أصغر منها وألطف ليكون رفيقك؟»

بدت الفكرةُ خارج حدود فهمها.

أعلنت: «السيدة أنثانك لن ترحل أبدًا.» وأردفت قائلةً: «فهي تبقى هنا لتستمع إلى الصوت. وتنتظر أحيانًا طوال الليل لتستمع، ولا يأتي. ثم تسمعُه، فتستريح.»

سأل: «وأنتِ؟»

اعترفت: «أنا خائفة.» وأردفت قائلةً: «ولكن، كما ترى، أنا لستُ قويةً جدًّا.»

استفسر بقلق: «هل تُحبين السيدة أنثانك؟»

أجابت بنبرة متحيرة: «لا أظنُّ ذلك.» وتابعت قائلةً: «أظن أنني أخاف منها كثيرًا. ولكن لا فائدة من ذلك، يا إيفرارد! فلن ترحل.»

قال دوميني: «سنرى عندما أعود.»

وضعت يدَيها على ذراعه.

وتمتمت: «يؤسفُني جدًّا أنك ذاهب.» وتابعت قائلةً: «أتمنى أن تعود قريبًا. هل ستعود ... يا زوجي؟»

كانت أظافرُ دوميني مغروزةً في يديه المضمومتين.

ردَّ واعدًا: «سأعود في غضون ثلاثة أيام.»

تابعت بسرية: «هل تعلم، شيءٌ ما خطر ببالي مؤخرًا. لقد تحدثتُ عنه أمس، لكنني لم أخبرك به. لا داعيَ للخوف مني بعد الآن. أنا أفهم.»

سأل بصوتٍ أجش: «ماذا تفهمين؟»

استطردت قائلةً وهي تخفض صوتها قليلًا وكأنها تهمس في أذنه: «لا بد أنني علمتُ هذا في نفس اللحظة التي وضعت فيها خنجري على حلقِك، عندها اختفت فجأةً الرغبةُ في قتلك. أنت تُشبهه كثيرًا في بعض الأحيان، لكنك لست إيفرارد. أنت لستَ زوجي على الإطلاق. أنت رجلٌ آخر.»

شهق دوميني شهقةً صغيرة. واستدار كلاهما نحو الباب. كانت السيدة أنثانك تقفُ هناك، ووجهها الهزيل القاسي مُضاءٌ ببريق شيء يُشبه الانتصار، وعيناها تلمعان. كرَّرت شفتاها، لا إراديًّا، الكلماتِ الأخيرةَ لسيدتها.

«رجل آخر!»

الفصل الرابع عشر

كانت ثمةَ أوقاتٌ خلال رحلتهما السريعة غرق فيها سيمان في التفكير وهو يدرس رفيقَه. بدا أن دوميني، في الواقع، قد تجاوز حدود أيِّ تحفُّظ عادي، وأصبح مثل رجل منغمسٍ في شَرَك متاعبِ الماضي، لدرجةِ أنه كان يتحرك كما لو كان في حُلم، ويتحدَّث فقط عند الضرورة ويتصرَّف بشكل عام وكأنه شخصٌ غير مهتم بجميع ما يُحيط به. عندما شرَعا في المرحلة الأخيرة من رحلتهما، انحنى سيمان إلى الأمام في مقعده في المقصورة المنجَّدة الشديدة الحرارة.

وقال: «يبدو أنَّ مجيئك إلى الوطن يزعجك، يا فون راجاشتين.»

أجاب دوميني: «لم أكن أنوي أن تطَأ قدماي ألمانيا مرةً أخرى لسنوات عديدة.»

«ألا يزال الماضي يُضايقك؟»

«دائمًا.»

انطلق القطار سريعًا عبر سلاسل طويلة من التلال المغطاة بكروم العنب، مرورًا بامتدادٍ من الأراضي الريفية المسطَّحة، إلى غابات أشجار الصَّنَوبر، التي كان في وسطها مساحات كبيرة خالية، وعلى الرغم من النوافذ المغلقة بإحكام، بدا أن رائحة الصمغ القادمةَ من الجذوع المقطوعة تتخلل المقصورة. بعد وقتٍ قصير تباطأت السرعة. نظر سيمان إلى ساعته ونهض.

قال: «استعِدَّ يا صديقي. سننزل بعد بضع دقائق.»

نظر دوميني من النافذة.

استفسر: «ولكن أين نحن؟»

«على بُعد خمسِ دقائق من وجهتنا.»

علَّق دوميني متعجبًا: «لكن لا يوجد منزل على مرأى البصر.»

أعلن سيمان: «ستُستقبَل على متن قطار جلالته الخاص.» وأضاف قائلًا: «فالقيصر، وموظَّفوه، يقومون بإحدى جولاته العسكرية. وأنعَموا علينا بشرف السفر معه حتى الحدود البلجيكية.»

عندئذٍ كان القطار قد توقَّف. فتح مسئولٌ ملتحٍ يرتدي زيًّا رسميًّا بابَ مقصورتهما، وصعدا إلى المنصة الخشبية الضيقة لمحطة صغيرةٍ بدا أنها بُنيت حديثًا من ألواحِ صنوبرٍ جديدة. انطلق القطار، فور نزولهما. وانتهت رحلتهما.

جرت محادثةٌ قصيرة بين سيمان والمسئول، لاحظ خلالها دوميني بفضولٍ ما حوله. حول المحطة، انتشر كردون كامل من الجنود، شبهَ مختبئين في بعض الأماكن بالقرب من الأشجار والشجيرات، وبدا أنهم نزَلوا مؤخرًا من قطارٍ عسكري يقف على خطٍّ جانبي. في منتصفه كانت توجد عربةٌ وحيدة، مطليَّة باللون الأسود، ومزوَّدة بالكثير من الزخارف الذهبية، ومزينة بشعار النبالة الملكيِّ لألمانيا على اللوحة المركزية. عندما أنهى سيمان حديثه، أخذ دوميني من ذراعه وقاده عبر خط السكة الحديدية نحوها. استقبلَهما ضابطٌ على الدرجات وانحنى بانضباطٍ لدوميني، الذي كان يُحدِّق فيه باهتمام كبير.

وأعلن: «سيستقبلُكما صاحب الجلالة في الحال.» وأضاف قائلًا: «اتبَعاني.»

صعدا إلى القطار ومرَّا عبر ممر مفروش بالسجاد. توقَّف مرشدهما وأشار إلى غرفة استراحة صغيرة، حيث جلس عدة رجال.

قال: «هير سيمان سيجدُ أصدقاء هناك.» وأضاف قائلًا: «صاحب الجلالة سيستقبله بعد بضع دقائق. سيأتي البارون فون راجاشتين من هذا الطريق.»

عندئذٍ أُرشِد دوميني إلى الصالون الرئيسي. أشار إليه مرشده أن يظل بالقرب من المدخل، بينما تقدَّم هو بضع خطوات، ووقف لتقديم التحية أمام شخصٍ جالس كان منحنيًا على خريطة، بسطها أمامه رجلٌ ذو وجهٍ صارم يرتدي زيَّ جنرال. نظر القيصر عندما سمع صوتَ وقْعِ الأقدام، وهمس بشيء في أذن الجنرال. ضرب الأخيرُ كعبَيه معًا وانصرف. دعا القيصر دوميني للتقدم.

غمغم الضابطُ الشاب: «البارون فون راجاشتين، يا جلالة الملك.»

وقف دوميني في وضع انتباهٍ للحظة وانحنى بشكلٍ غريب بعض الشيء. ابتسم القيصر.

وقال: «يُسعدني أن أرى ضابطًا ألمانيًّا لا يشعر بالراحة دون زيِّه العسكري. أيها الكونت، يُمكنك أن تتركنا. بارون فون راجاشتين، اجلس.»

أجاب دوميني وهو يجلس على المقعد الذي أشار إليه مضيفه المهيب: «السير إيفرارد دوميني، في خدمتك، جلالة الملك.»

علَّق الأخير: «أرى أنك دقيقٌ في كل شيء.» وأضاف قائلًا: «اجلس هناك وكن على راحتك. وصلتني تقاريرُ جيدة عن عملك في أفريقيا.»

قال دوميني مترددًا: «لقد بذلتُ قصارى جهدي لتنفيذ مشيئة جلالتك.»

قال القيصر: «لقد أبليتَ بلاءً حسنًا، لدرجةِ أن مستشاريَّ جميعًا نصحوا بسحبك إلى ما سيُصبح قريبًا مركزَ الاهتمام الكبير. من لحظةِ تلقِّيك أوامرَنا، يبدو أنك أبديتَ روح المبادرة. نما إلى علمي أن تجسيدك شخصيةَ هذا البارون الإنجليزي قد نُفِّذ بنجاح، أليس كذلك؟»

«حتى الوقت الحاضر، جلالة الملك.»

تابع القيصر: «على الرغم من أهمية عملك في أفريقيا، فإن مهمتك الحاليَّة أهمُّ بكثير. أود أن أتحدَّث إليك في هذه الدقائق القليلة دون تحفُّظ. ومع ذلك، فلتشرب أولًا نَخبًا معي.»

من طاولةٍ من الخشب الماهوجني بجواره، أخذ القيصر زجاجةَ موسيل طويلة العنق، وملأ كأسَين جميلتين للغاية، ومرَّر إحداهما إلى رفيقه ورفع الأخرى.

قال: «في صحة الوطن!»

كرَّر دوميني: «في صحة الوطن!»

وضعا كأسَيهما فارغَتين. ألقى القيصر المِعطف العسكري الرمادي الذي كان يرتديه إلى الوراء، مُبديًا صفًّا طويلًا من الميداليات والأوسمة. كانت أصابعه لا تزال تُداعب ساق كأسه. وبدا للحظة غارقًا في التفكير. كان فمُه الجامد والقاسي نوعًا ما مغلقًا بإحكام؛ وكان ثَمة عبوسٌ خفيف على جبهته. كان جالسًا منتصبًا، ولم يستفِد من الظهر المبطَّن لكرسيه المريح، وعيناه مثبتتان لأعلى، والعبوس يزدادُ عمقًا. ساد صمتٌ تام لمدة خمس دقائق. ربما استوعب المرءُ أنه، بعيدًا عن الأمور العظيمة، كان منغمسًا بالكامل في الخُطة التي كان دوميني مَعنيًّا بها.

قال أخيرًا: «فون راجاشتين، لقد أرسلتُ إليك للتحدُّث قليلًا عن إقامتك في إنجلترا. أتمنى أن تستقبل انطباعاتِك عن مهمتك من شفتَيَّ أنا.»

تمتم دوميني: «جلالة الملك يمنحني شرفًا عظيمًا.»

تابع القيصر: «أتمنى أن تعتبرَ نفسك بعيدًا تمامًا عن الحدود، والسلطة، وواجبات نظام التجسُّس التابع لي. فأنا أنتظر منك أشياءَ أخرى. وأرغب في أن تنخرطَ في روح منصبك

المزمَع. وبصفتك نموذجًا لرجلٍ نبيل من الريف الإنجليزي، أريد منك أن تدرس مسألةَ العمل، والمسألةَ الأيرلندية، والتقدُّمَ المحرَز في مخطَّط الخدمة الوطنية هذا، والحركاتِ الاجتماعيةَ الأخرى التي ستتلقى إشعارًا بها في الوقت المناسب. وأرغب في إعداد قائمة بأسماء هؤلاء الكتَّاب الذين، في المقالات أو من خلال الأدب، يُشجِّعون الشكوكَ التي أميل إلى تخيُّلِ أن إنجلترا قد بدأت تُضمِرها تجاه الوطن. كل هذه الأشياء على هامش مهمتك الحقيقية. أعتقد أن صديقنا الرائع سيمان قد أفضى بها إليك بالفعل. إنها السعيُ وراء صداقة الأمير تيرنيلوف، وأن تكون صداقةً حميميةً إن أمكن.»

توقَّف القيصر، ومرةً أخرى تجوَّلت عيناه في المناظر الطبيعية التي كانت تمر بعيدًا من نوافذ العربة ذات الزجاج السميك. لم تكن بالتأكيد عينَيْ رجلٍ حالم، ولكن في تلك اللحظات كانتا مليئتين بالصور الحزينة.

أسرَّ دوميني: «لقد استقبلتني الأميرة بلطفٍ بالفعل.»

أعلن القيصر: «تيرنيلوف هو حمامة السلام.» وأضاف قائلًا: «فهو يحمل غصن الزيتون في فمِه. كان رجال الدولة والمستشارون سيُرسِلون إلى لندن سفيرًا يتمتَّع بصفاتٍ أكثرَ صرامة. لكنني لم أفضِّل ذلك. تيرنيلوف هو الرجلُ الذي يخدع الحمقى؛ لأنه هو نفسه أحمق. إنه سفيرٌ لائقٌ لبلدٍ لا يملِك من الذكاء ما يمكِّنه من تسليحِ نفسِه برًّا مثلما يسلِّح نفسَه بحرًا، عندما يرى أمَّةً، أكثرَ قوةً وأكثرَ ثقافة وقيادتها أكثرُ روعة، تزحف بالقرب منه كلَّ يوم.»

علَّق دوميني بتردُّد: «يبدو أن الإنجليز يضعون ثقتهم الكاملة في أسطولهم البحري، يا جلالة الملك.»

برَقتْ عينا رفيقه. ولوى شفتيه بازدراء.

صاح: «حمقى!» وأضاف قائلًا: «ما الفائدة التي سيكون عليها أسطولهم البحري عندما يُسحب سيفي، عندما أستولي على مدينتَي كاليه وبولون الساحليتَين، عندما يتحكَّم مدفعي في مضيق دوفر! لقد ولَّت أيام الدول المعزولة، كما ولَّت بالتأكيد أيام هيمنة إنجلترا المتغطرسة على البِحار.»

أعاد القيصرُ مَلء كأسه وكأس دوميني.

وتابع: «في غضون بضعة أشهر، ستفهم لماذا طُلِب منك أن تصبح صديقًا ورفيقًا لتيرنيلوف، يا فون راجاشتين. ستفهم مهمتك على نحوٍ أوضح قليلًا من الآن. تنتظر طبيعتها الدقيقة تطورات. يمكنك أن تثقَ في سيمان طوال الوقت.»

انحنى دوميني وظلَّ صامتًا. واصل رفيقه الحديث بعد مدةٍ وجيزة أخرى من التفكير الصامت.

وقال: «فون راجاشتين، لقد كان حُكمي بنفيك عادلًا. إن أخلاق شعبي شيءٌ مقدَّس لي، مثل قسَمي بأن أظفر بإمبراطوريةٍ أقوى من أجلِهم. لقد أقمتَ أولًا علاقةً غير شرعية مع زوجة أحدِ النبلاء الأكثرِ نفوذًا في دولةٍ متحالفةٍ مع بلدي، ثم قتلتَه في المبارزة التي تلَت ذلك الأمر.»

قال دوميني متحججًا: «لقد كانت حادثة، يا جلالة الملك. لم يكن لديَّ أيُّ نية حتى في إصابة الأمير.»

عبَس القيصر. فقد كان يمقت كلَّ أنواع الأعذار.

وردَّ بحدة: «الحادث كان يجب أن يحدث عكس ذلك تمامًا.» وأضاف قائلًا: «كان يجب أن أفقدَ خادمًا ثمينًا، لكنك خسرت حياتك وليس حياته. ومع ذلك، فقد أخبَروني أن عملك في أفريقيا تم بشكل جيد ودقيق. أعطيك هذه الفرصةَ العظيمة لرد اعتبارك. إذا أعجبني عملك في إنجلترا، فستُلغى عقوبة النفي التي حُكِم عليك بها.»

غمغم دوميني: «جلالتك كريمٌ للغاية.» وأضاف قائلًا: «فالعمل، في حد ذاته، سيتحكم في كل جهد أبذلُه، حتى من دون رجاء المكافأة.»

قال القيصر: «هذا كلامٌ جيد. إنها الروح، في اعتقادي، التي ينظر بها كلُّ أبناء إمبراطوريتي إلى المستقبل. أظن أنهم أيضًا، وخاصة أولئك الذين يُحيطون بي شخصيًّا، يشعرون بشيء من تلك الرسالة الإلهية التي كُلِّفتُ بها. لسنواتٍ عديدة أردت السلام من أجل شعبي. الآن بعد أن اقتربَ الوقت وأظهر لي الربُّ واجبًا آخر، ليس لديَّ أيُّ خوف من أن كل ألماني مخلص سوف يحني رأسه أمام البرق الذي سينطلق من سيفي، ويُشاركني الإرادة الحديدية لاستخدامه. انتهت مقابلتك، أيها البارون فون راجاشتين. ستجلس مع السادة في جَناحي في غرفة الاستراحة. سنمضي في غضون بضع دقائق ونتركُك عند الحدود البلجيكية.»

نهض دوميني، وانحنى بقوةٍ وعاد من الطريق المفروشة بالسجاد. كان القيصر قد انحنى بالفعل مرةً أخرى على الخريطة. نادى عليه سيمان، الذي كان ينتظر خارج باب غرفة الانتظار، وقدَّمه إلى العديد من أعضاء الجناح. نظر إليه ببعض الغرابة شابٌّ ذو عدسة أحاديةٍ ثابتة، وندوب على وجهه، كان يجلس بطريقةٍ غريبة مثل الدُّمَى.

لاحظ قائلًا: «لقد التقينا قبل بِضع سنوات في ميونيخ، أيها البارون.»

أجاب دوميني بصلابة: «لا أتذكَّر أيَّ اجتماعات سابقة مع أيِّ شخص في هذا البلد.» وأضاف قائلًا: «أطيع أوامرَ سيدي الإمبراطور عندما أمسح من ذهني كلَّ واقعة أو ذكريات من أيامي السابقة.»

خلا وجه الشاب من أيِّ تعبير، وكان بجانبه سيمان، الذي قطَّبَ حاجبَيه متأملًا، وأومأ برأسه متفهمًا.

أوضح: «أنت بالتأكيد ممثلٌ جيد أيها البارون.» وأضاف قائلًا: «حتى لغتك الألمانية أصبحَت إنجليزية قليلًا. اجلس وانضم إلينا لتناول كأس من الجِعَة. ستُقَدَّم مأدُبة غداء لنا هنا في غضون بضع دقائق. لن تُستدعى للمجموعة حتى تجلس.»

انحنى دوميني بصلابةٍ وجلس مع الآخرين. كان القطار قد بدأ يتحرَّك بالفعل. حدَّق دوميني بتمعُّن من النافذة. ربَّت سيمان، الذي كان ينتظر قدوم المجتمعين، على ذراعه.

وقال: «صديقي العزيز، أنا أتعاطفُ معك. أنت حزين لأنك الآن تغادر برلين. ومع ذلك، تذكَّر هذا أن اليوم الذي ستُلغى فيه عقوبة نفيك ليس ببعيد. ستكون قد كفَّرتَ عن تلك الجريمة التي، صدِّقني، لم ينظر إليها أيٌّ من أصدقائك أو نظرائك، على الرغم من أنني لا أجرؤ على ادِّعاء أنني واحد منهم، كما نظر إليها جلالة الإمبراطور.»

ظهر خادم مبتسم، يرتدي زيًّا أسودَ بياقة وأكمام بيضاء، وقدَّم لهم الجِعَة في كئوس طويلة. رفع كبير الضباط هناك، الذي كان يجلس الآن أمام دوميني، كأسه وانحنى.

وقال: «نَخب البارون فون راجاشتين، الذي يؤسفني أنني لم أتعرَّف به قبل اليوم. نرجو أن نُرحِّب قريبًا بعودته، رفيقَ سلاح، وزميلًا في الأعمال العظيمة! هوخ!» (هتاف باللغة الألمانية.)

الفصل الخامس عشر

وقف البارون سير إيفرارد دوميني، أحدثُ وأشهر المجنَّدين في مجتمع نورفولك الرياضي، بعد ظُهر أحد الأيام، بعد بضعة أشهر من عودته من ألمانيا، عند زاوية الغابة الطويلة التي امتدَّت من سلسلة التلال خلفها إلى حدائق مطبخ القصر تقريبًا. على مسافةٍ معقولة على يساره، انتشر أربعةُ قنَّاصين آخَرين. على أحد جانبيه وقف ميدلتون، متكئًا على عصا خشب الدردار الخاصة به، ويستمع إلى اقتراب مثيري الطرائد؛ في الجانب الآخر، كان سيمان في بدلته الرمادية الداكنة وقبَّعته السوداء المستديرة غير المناسبتَين للمكان. أما الحارس العجوز، الذي بدا أن الوقت قد شفاه من كلِّ مخاوفه، فأخذ يُثرثر برقةٍ وسعادة بالغة.

علَّق، وهو يُشاهد طائرَ دُرَّاج يسقط فوق رءوسهم: «يبدو أنه من الصواب أن يكون لدينا سيدٌ من آل دوميني في هذه الزاوية.» وأضاف قائلًا: «اعترضت عندما تخلَّى والدك، يا سيدي، عن هذه الزاوية يومًا ما للورد وندرمير، الذي كان يُطلق عليه أحدُ أفضل صائدي طيور الدُّرَّاج في إنجلترا، وعلى الرغم من أنها كانت تطير فوق رأسه مثل طيور الزُّرزور، لم يكن يحصل إلا على عدد قليل من الطيور المعاقة ليستعرضَهم لعمله الصباحي.»

علَّق دوميني، مكرِّرًا اكتشافَه الأخير: «إنها تأتي منحرفةً قليلًا من ناحية اليسار، أليس كذلك؟»

وافق الرجل العجوز: «نعم يا سيدي، ويبدو أنْ لا أحدَ سوى آل دوميني قد عرَف براعةَ التعامل معها بشكل صحيح. يقولون إن هذا الأمير الأجنبي جيد مع طيوره، لكنني لن أثقَ به في هذه الزاوية.»

تحرَّك الرجل العجوز مبتعدًا بضعَ خطوات إلى أرضٍ أعلى، لمشاهدةِ تقدُّم مثيري الطرائد في الغابة. التفت سيمان إلى رفيقه، وكان ثمة إعجابٌ حقيقي في نبرة صوته.

وأعلن: «صديقي، أنت معجزة. يبدو أنك طورتَ لمسة آل دومينيي حتى في قتلِ طيور الدُّرَّاج.»

كان الرد السهل: «يجب أن تتذكَّر أنني أطلقتُ النار على طيورٍ أعلى في المجر.»

اعترف سيمان: «أنا لستُ رياضيًّا.» وأضاف قائلًا: «فأنا لا أفهم الرياضة. لكنني أعلم ما يلي: ثَمة رجل عجوز عاش على هذه الأرض منذ يوم ولادته، وراقبَك تُطلق النار، بوقار، ويجد طريقتَك حتى في حمْل البندقية مألوفة.»

أوضح دومينيي: «انحراف الطيور هو مجردُ خرافة محليَّة. تنتهي الغابة عند المنحدر؛ لذا تبدو أنها تطير ناحيةَ اليسار أكثرَ مما هي عليه بالفعل.»

حدَّق سيمان بثباتٍ للحظة على طول جانب الغابة.

وقال: «سيادتها قادمة. يبدو أنها تُشارك الدوق في كراهيته لي، وهي سيدة رائعة جدًّا بحيث لا يُمكنها إخفاءُ مشاعرها. سأقول لك كلمةً واحدة فقط قبل أن أذهب. الأميرة إيدرستروم ستصل بعد ظهر اليوم.»

عبَس دومينيي، ثم حذَّره صراخُ الحارس، فاستدار وقتل أرنبًا.

قال بنبرةِ تحدٍّ في صوته: «يا صديقي، لست متأكدًا من أنك أخبرتني بكلِّ ما تعرفه بخصوص زيارة الأميرة.»

استغرق سيمان في التفكير مدةً وجيزة من الوقت.

واعترف قائلًا: «أنت على حق، لم أفعل. إنه خطأ سأصلحه بعد وقتٍ قصير.»

وتجوَّل بعيدًا إلى مجموعة الأشجار التالية، حيث كان السيد مانجان يُظْهِر مستوًى مختلفًا تمامًا من الكفاءة. أقبلت الدوقة على دومينيي بعد بِضع دقائق.

وقالت: «أخبرتُ هنري أنني يجب ألا أقف معه لحظةً أخرى.» وأضافت قائلةً: «لقد أطلق نحوَ أربعين طلقةً وجرح أرنبًا واحدًا.»

قال دومينيي: «هنري ليس ثاقبَ النظر، على الرغم من أنني أعتقد أنكِ قاسيةٌ عليه قليلًا، أليس كذلك؟ رأيته يُسقط طائرًا جيدًا الآن. حتى الآن فيما يتعلَّق بالطيور، الأمر لا يستحقُّ حقًّا. فكلُّها ذاهبة إلى أعشاشها.»

كانت الدوقة ترتدي ملابسَ غايةً في الأناقة مصنوعةً من جلدٍ بني. ارتدَت قبعةً صغيرة وحذاءً سَميكًا فوقه وقاء. وكانت تبدو في حالةٍ جيدة للغاية لكنها منزعجة قليلًا.

قالت: «سمعتُ أن ستيفاني قادمة اليوم.»

أومأ دومينيي برأسه، وبدا للحظةٍ أنه عازمٌ على مشاهدة طيران حمامة ظلَّت خارج النطاق بشكل مشوق.

وأقرَّ قائلًا: «ستأتي لتُمضي بضعة أيام.» وتابع قائلًا: «أخشى أنها ستشعر بملل شديد.»

سألته ابنةُ عمه بفضول: «متى أصبحت وَدودًا معها؟»

أجاب دوميني: «كانت أول مرة التقينا فيها في مطعم المشويات بفندق كارلتون، بعد أيام قليلة من وصولي إلى إنجلترا. ظنَّت بالخطأ أنني شخصٌ آخر، وانصرفنا بعد تبادل الاعتذارات المعتادة. والتقيتها في الليلة ذاتِها في كارلتون هاوس تيراس — فهي قريبة لعائلة تيرنيلوف — وتقابلنا صدفةً كثيرًا بعد ذلك، خلال المدة القصيرة التي قضيتها في المدينة.»

تمتمت الدوقة وهي تُفكِّر: «حسنًا.» وأردفت قائلةً: «هذه مفاجأة أخرى من المفاجآت الصغيرة التي يبدو أنك قد أعددتَها لنا جميعًا. كيف بحق السماء أصبحتَ ودودًا للغاية مع السفير الألماني؟»

ابتسم دوميني بتسامح.

وأجاب: «حقًّا، لا يوجد أيُّ شيء غير عادي في هذا الأمر، أليس كذلك؟ السيد سيمان، شريكي في واحدةٍ أو اثنتين من شركات التعدين، أخذني لزيارته. إنه مهتمٌّ جدًّا بشرق أفريقيا، سياسيًّا وبوصفه رجلًا رياضيًّا. بدا أن محادثاتنا تُثير اهتمامه وأدَّت إلى نوعٍ من الحميمية — التي يمكنني القول إنني فخور بها. فأنا أكنُّ فائق الاحترام والإعجاب للأمير.»

وافقت كارولين: «وأنا كذلك.» وتابعت قائلةً: «أظن أنه جذَّاب. يقول هنري إنه إما أن يكون أحمقَ أو محتالًا.»

أعلن دوميني بصبرٍ نافدٍ: «هنري يُعميه التحيز. لا يستطيع أن يتخيلَ ألمانيًّا يستمتع مع أي شخص آخر غير الشيطان.»

قالت متوسلةً، وهي تضع أصابعها للحظةٍ على كمِّ معطفه: «لا تتضايقْ يا عزيزي.» وأضافت قائلةً: «فأنا معجبة للغاية بالأمير. إنه بالتأكيد الألمانيُّ الوحيد الذي قابلته وشعرت أنه رجلٌ نبيل بالفطرة. الآن ما الذي يدعوك للابتسام؟»

التفتَ دوميني نحوها بوجهٍ جادٍّ تمامًا. وقال: «لستُ مدانًا بتلك التهمة.»

«رأيتك تبتسم.»

«كانت مجردَ فكرة غريبة. أنتِ بالأحرى تبحثين عن شيءٍ ما، أليس كذلك، كارولين؟»

صرَّحت: «أنا على حقٍّ بشكل عام.» وأضافت قائلةً: «فلنَعُد لموضوع ستيفاني.»

«ماذا بشأنه؟»

«هل تعرف مَن حسبَتْك في مطعم المشويات بكارلتون؟»

أجاب مراوغًا: «مَن؟»

واصلت كارولين بطريقة جافة: «لقد حسبتْك البارون ليوبولد فون راجاشتين. كان فون راجاشتين عشيقَها في المجر. تشاجر مع زوجها وقتلَه. غضب القيصر ونفاه إلى شرق أفريقيا.»

حمل دوميني عصا الرماية وسلَّم بندقيته إلى ميدلتون. كان مثيرو الطرائد منتشرين في الغابة.

قال: «نعم، أتذكَّر الآن. لقد خاطبتْني باسم ليوبولد.»

علَّقت رفيقته ببعض الفظاظة: «ما زلتُ لا أفهم لماذا كان من الضروري دعوتُها هنا. قد ... تناديك ليوبولد مرةً أخرى!»

وعَدها دوميني قائلًا: «إن فعلَت ذلك، فلن أردَّ عليها.» وأردف قائلًا: «لكن بجدية، إنها ابنة عمِّ الأميرة تيرنيلوف، والمرأتان مخلصتان إحداهما للأخرى. الأميرة تكرهُ حفلات الصيد، لذلك ظننت أنه يمكنهما تسلية بعضهما بعضًا.»

«هراء! ستحتكرُك ستيفاني طوالَ الوقت! ذلك ما هي قادمة من أجله.»

سأل دوميني بقلقٍ زائف: «أنتِ لا تُشيرين إلى أنها تنوي بجدية أن تضعَني مكان شبيهي؟»

«أوه، لن أستغرب ذلك! وهي امرأة جذابة بصورة استثنائية. لديَّ العديد من الشكاوى، يا إيفرارد. فهناك ذلك الرجل القصير الرهيب الآخر، سيمان. أنت تعلم أن رؤيته تجعل هنري غاضبًا. أنا متأكدةٌ تمامًا من أنه لم يتوقَّع أبدًا الجلوسَ على الطاولة ذاتِها معه.»

أكَّد لها دوميني: «أنا آسفٌ حقًّا لذلك، لكن كما ترين فسيادته يهتمُّ به كثيرًا بسبب رابطة الصداقة هذه، التي يشغل سيمان منصبَ سكرتيرها، وقد طلب تحديدًا حضوره إلى هنا.»

اشتكت قائلةً: «حسنًا، يجب أن تعترف أن الوضع محرج بعض الشيء لهنري.» وأضافت قائلةً: «بجانب اللورد روبرتس، هنري هو عمليًّا زعيم حركة الخدمة الوطنية هنا؛ وهو يكره ألمانيا ولا يثق في أيِّ ألماني قابله، وفي حفلة منزلية صغيرة كهذه، نلتقي بالسفير الألماني والرجلِ الذي يعمل بجدٍّ لتسكين المشاعر التي يحاول هنري إثارتَها.»

اعترف دوميني بابتسامة: «يبدو الأمر مثيرًا للشفقة، لكن حتى هنري يحب تيرنيلوف، وفي النهاية من المشوق أن يلتقيَ المرء بخصومه في بعض الأحيان.»

أقرَّت كارولين: «بالطبع يحب تيرنيلوف، لكنه يكرهُ الأشياء التي يُمثلها. ومع ذلك، كنت سأغفر لك كل شيء لو لم تكن ستيفاني آتيةً. لقد بدأت تلك المرأة تزعجني حقًّا. يبدو

أنها تشير دائمًا بإشاراتٍ غامضة إلى بعض عواطف الماضي المتعلقة بكما التي لا يمكن أن يكون لها أيُّ أساس على الإطلاق، باستثناء شبَهِك المفترض مع حبيبها المنفي. عجبًا، أنت لم تُقابلها أبدًا قبل ذلك اليوم في كارلتون!»

أكَّد دوميني: «لقد كانت غريبة تمامًا عني.»

أعلنَت كارولين بريبة: «إذن كلُّ ما يمكنني قوله أنك كنتَ سريعًا بشكل غير عادي إذا تمكنت من إنشاء ماضٍ في أقلَّ من ثلاثة أشهر! أعتبرُ مجيئها إلى هنا تصرفًا سافرًا للغاية، خاصة وأن هذا عمليًّا منزلُ رجل أعزب.»

كانا قد وصلا إلى مجموعة الأشجار التالية، وتوقَّفت المحادثة مؤقتًا. أُنهيَت رحلةُ بطة برية من بِركة في الغابة، وكان الجميع مشغولًا لبضع دقائق. راقب ميدلتون سيده باستحسان لا ينقطع.

وقال: «إنك تكادُ تُضاهي سيدي الكبير في براعته فيما يخص البط الذي يُحلِّق عاليًا، يا سير إيفرارد.» وتابع قائلًا: «صحيحٌ أن قلةً قليلة يمكنهم أن يُصيبوها عندما تأتي بالقرب من طيور الدُّرَّاج. لا يمكنهم تصديقُ سرعتها.»

سألت كارولين: «هل تعتقد أن السير إيفرارد يُطلق النار جيدًا كما كان يفعل قبل ذَهابه إلى أفريقيا؟»

لمس ميدلتون قبَّعته والتفتَ إلى سيمان، الذي كان يقف في الخلفية.

أجاب: «أفضل، نيافتكِ، كما كنتُ أقول لهذا الرجل النبيل هنا، في وقتٍ مبكر من هذا الصباح. إنه أكثرُ هدوءًا ويُصوِّب بشكلٍ مستوٍ أكثر. ومع ذلك، كنت سأعرف لمستَه على البندقية في أي مكان.»

كان ثَمة بريقُ إعجاب في عينَي سيمان. جاء مثيرو الطرائد من الغابة، وثرثرت مجموعةٌ صغيرة من القناصين معًا أثناء جمع الطرائد. بعد أن اختفى شحوبُ تيرنيلوف المعتاد بسبب الرياح المنعشة ومتعة الرياضة، أصبح ودودًا وثرثارًا أيضًا. كان لديه ضِياعٌ كبيرة خاصةٌ به في ساكسوني وكان يشرح للدوق طريقته في إطلاق النار. نظر ميدلتون إلى ساعته ذات الإطار.

وقال: «ثمة ساعةٌ أخرى من الضوء الجيد يا سيدي.» وتابع قائلًا: «هل ترغب في مطاردة طيور الحَجَل، أم ينبغي علينا الذَّهابُ عبر شجيرات المنزل؟»

علَّق تيرنيلوف باستحياء: «إذا كان بإمكاني تقديم اقتراح، فقد ذهبت معظمُ طيور الدُّرَّاج إلى تلك الغابة القاتمة المظهر عبر المستنقعات.»

سادت لحظة صمتٍ غريب نوعًا ما. استدار دوميني ونظر نحو الغابة المقصودة، كما لو كان مفتونًا بظُلمتِها وكثافتها المشئومة. كان ميدلتون قد أسقط بعض الطرائد التي كان يحملها ويُتمتم في نفسه.

قال دوميني بهدوء: «نحن نُطلق عليها الغابة السوداء، وأخشى أن طيور الدُّرَّاج التي ستذهب إلى هناك ستتَّخذها ملاذًا. ما رأيك يا ميدلتون؟»

أدار الرجل العجوز رأسه ببطءٍ ونظر إلى سيده. بطريقة أو بأخرى، بدا أن كل لون من ألوان وجهه البرونزي قد تلاشى. وامتلأت عيناه بهذا الرعب الغامض من الأمر الخارق للطبيعة الشائع بين الفلاحين في مختلِف المناطق. اهتز صوته. وعاد الخوف القديم مرةً أخرى.

قال متلعثمًا: «هل ستُرسل مثيري الطرائد إلى هناك، يا سيدي؟ لن يوافق أيٌّ منهم على الذهاب إلى هناك.»

استفسر الدوق: «هل نحن بصدد خرافةٍ محلية؟»

أجاب ميدلتون: «إنها ليست محليةً تمامًا، سُموَّك، كما سيخبرك سيدي بنفسه. أشكُّ في وجود مثير للطرائد في جميع أنحاء نورفولك سيوافق على عبور الغابة السوداء، حتى إذا دفعت له ذهبًا أحمرَ مقابل ذلك. تعالَوا، أيها الشباب.»

استدار إلى مُثيري الطرائد الذين كانوا يقفون على بُعد ياردات قليلة ينتظرون التعليمات. كان يوجد العشرات منهم، معظمهم من الرجال الأقوياء، وكانوا يرتدون بناطيل وسترات خشنة ويحملون عصيًا سميكة.

أعلن ميدلتون، مخاطبًا إياهم: «أحد السادة هنا يريد أن يعرف إن كنتم ستمضون عبر غابة دوميني السوداء مقابل جنيه ذهبي؟ شاهِدْ وجوههم، نيافتَك. والآن، ما رأيكم يا شباب؟»

لم يكن ثمة احتمالٌ لأيِّ خطأ. بدا أن الاقتراح ذاته قد تسبَّب في اختفاء سفعة الشمس الصِّحية من على خدودهم. أمسكوا عصيهم بارتباك. لمس أحدهم قبَّعته وتحدَّث إلى دوميني.

قال: «أنا واحد رأيته، يا سيدي، وسمعته.» وتابع قائلًا: «أفضِّل أن أتخلى عن مزرعتي عن الاقتراب من المكان.»

مرَّرَت كارولين ذراعها فجأة عبر ذراع دوميني. كانت ثمة نبرةُ استياء في صوتها.

صاحت: «هنري، أنت أحمق!» وأضافت قائلةً: «لقد كان خطئي، يا إيفرارد. أنا آسفة جدًّا. لقد نسيت للحظة واحدة فقط. كان يجب أن أوقف هنري في الحال. الرجل المسكين لا يتذكَّر.»

استجابت ذراعُ دوميني للحظة لضغط أصابعها. ثم التفت إلى مثيري الطرائد.

قال واعدًا: «حسنًا، لن يطلب منكم أحدٌ أن تذهبوا إلى الغابة السوداء. انطلِقوا إلى الجزء الخلفي من حشائش هَنْت، واقتلِعوها من جذورها ثم انتقلوا إلى الحديقة. سنضع سياجَ الحديقة. ما رأيك، يا ميدلتون؟»

لمس الحارس قبَّعته وانطلق بخِفَّة.

قال: «سأسير معهم بنفسي، يا سيدي.» وأردف قائلًا: «فالطيور تتوقَّف عند زاوية فولر. سأرى ما إذا كان يُمكنني أن أحاوطها. ستعرف أين تضع القناصين، يا سيدي.»

أومأ دوميني. سار جميعُ مثيري الطرائد بأقصى سرعة غير معتادة نحو وجهتهم. وكانت ظهورُهم نحو الغابة السوداء. جاء تيرنيلوف إلى مضيفه.

سأل: «هل كنتُ، دون قصدٍ، أخرقَ بشكل رهيب؟»

هزَّ دوميني رأسه.

وأجاب: «لقد سألتَ سؤالًا طبيعيًّا تمامًا، أيها الأمير.» وأردف قائلًا: «لا يوجد سبب يمنعك من معرفة الحقيقة. فبالقرب من هذه الغابة وقعت المأساة التي أبعدَتني عن إنجلترا سنوات عديدة.»

قال الأمير قائلًا: «أنا آسفٌ للغاية.»

قاطعه دوميني: «من المشاعر الزائفة تجنُّبُ التلميح إلى هذا الأمر. لقد هوجمتُ هناك ذاتَ ليلة من قِبل رجلٍ كان لديه سببٌ ما للإساءة إليَّ. تقاتلنا، ووصلت إلى البيت في حالةٍ مرعبة نوعًا ما. أرعبَت حالتي زوجتي لدرجةِ أنها أصبحت مريضةً منذ ذلك الحين. لكن ها هي ذي النقطة التي ولَّدتْ كلَّ هذه الخرافات، والتي جعلتني سنواتٍ عديدةً شخصًا مشتبهًا به. الرجل الذي قاتلتُه لم يُرَ منذ ذلك الحين.»

كان تيرنيلوف مفتونًا جدًّا بالقصة في الحال، ومرتبكًا من طريقة مضيفه في سردها للحفاظ على موقفه الدفاعي.

كرَّر: «لم يُرَ منذ ذلك الحين!»

تابع دوميني: «ذاكرتي فيما يتعلَّق بنهاية معركتنا غير مؤكدة.» وتابع قائلًا: «انطباعي أنني تركتُ المعتديَ فاقدًا للوعي على الأرض.»

«إذن فشبحه، كما أتخيَّل، هو الذي يسكن الغابة السوداء؟»

هزَّ دوميني نفسه كأنه يتخلَّص من فكرة سيئة.

أوضح أثناء سيرهما: «الغابة ذاتها، أيها الأمير، مكانٌ مؤذٍ. فهناك مستنقعات حتى في وسطها، حيث قد يغرق الرجل ولا يُسمع عنه مرةً أخرى. وتكثر هناك كل أنواع الحيوانات الضارة؛ فستجد في هذه الغابة كلَّ حشرة وطائر قذر. أظن أن خصائص المكان قد شجَّعت ظهورَ الخرافات المحلية التي يؤمن بها كل واحد من هؤلاء الرجال إيمانًا راسخًا.»

«إذن هم يؤمنون إيمانًا تامًّا بأن المكان مسكون؟»

تابع دوميني «الخرافة تذهب إلى أبعدَ من ذلك.» وتابع قائلًا: «يقول سكاننا المحليون إنه في مكانٍ ما في قلب الغابة، حيث أعتقد أنه لم يجرؤ أيُّ إنسان منذ سنوات عديدة على التغلغل، يعيش بالمعنى الروحيِّ شيطانٌ ما، لا يخرج إلا في الليل ويعوي تحت نوافذي.»

«هل شاهده أحدٌ من قبل؟»

أجاب دوميني: «واحد أو اثنان من القرويين؛ لا أحد آخر على ما أعتقد.»

بدا تيرنيلوف على وشك طرح المزيد من الأسئلة، لكن الدوق لمس ذراعه وجذبه إلى أحد الجوانب، كما لو كان يَلفتُ انتباهه إلى ضباب البحر الذي كان يتدحرج من المستنقعات.

همس: «أيها الأمير، تفاصيلُ تلك القصة تختلط بشكل معقَّد مع جنون الليدي دوميني. أنا متأكدٌ من أنك تفهم.»

بدا الأمير، الذي كان دبلوماسيًّا بكلِّ ما في الكلمة من معنًى، مصدومًا، على الرغم من أنَّ ابتسامةً خفية كانت لا تزال باقية على شفتَيه.

تمتم قائلًا: «إنني نادمٌ بشدة على زلتي.» وتابع: «سير إيفرارد، لقد وعدتني أن تُخبرني عن بعض الأيام التي قضيتها مع بندقيتك في جنوب أفريقيا. ألا يوجد طائر هناك يشبه طيور الحَجَل؟»

ابتسم دوميني.

وقال: «إذا كان بإمكانك قتلُ طيور الحَجَل التي سيرسلها ميدلتون في الدقائق العشر القادمة، فيمكنك إطلاقُ النار على أي شيء من النوع الذي يظهر في شرق أفريقيا، باستخدام مقلاع. إذا وقفتَ على بُعد خطوات قليلة هناك على اليسار، وهنري، وتيرنيلوف بجانب البوابة، وستيلويل فوق عند الزاوية اليسرى، ومانجان بجانبه، ثم إيدي، سأكون بالخلف نحو مجموعة أشجار البلوط. هل ستَمْشين معي، يا كارولين؟»

أخذَت ابنةُ عمه ذراعَه وهما يسيران مبتعدَين وضغطت عليها.

قالت: «إيفرارد، أهنئك.» وأضافت قائلةً: «لقد تحكَّمتَ في مشاعرك بالتأكيد. لقد فعلت شيئًا بسيطًا ورائعًا بروايتك للقصة كاملة. يا إلهي، لقد كنتَ شِبهَ واقعي. كان بإمكاني تخيلُ أنك تحكيها عن شخصٍ آخر.»

ابتسم مضيفُها بغموض.

وقال: «من الغريب أنك شعرتِ بهذا.» وأردف قائلًا: «هل تعلمين، عندما كنتُ أسرد القصة، كان لديَّ الشعور ذاتُه. هل تُمانعين في الانحناء قليلًا الآن؟ سأطلق الصافرة.»

الفصل السادس عشر

حتى في غرفة الطعام الكبيرة في قصر دوميني، جُهزت في ذلك المساء تلك الطاولة من الخشب الماهوجني التي كان يتألَّق القصر بعظمتها إلى أقصى طاقتها. إلى جانب الحفلة المنزلية، التي ضمَّت الرايت أونرابل جيرالد واتسون، وهو وزيرٌ عُيِّن مؤخرًا، كان يوجد العديد من الضيوف من الجوار — ممثِّل الملك في المقاطعة وغيرُه من النبلاء. لعبت كارولين، التي كان يجلس ممثل الملك على أحد جانبيها وتيرنيلوف على الجانب الآخر، دورَ المضيفة على نحوٍ ملائم ولكن دون حماس. نادرًا ما تركت عيناها الطرفَ الآخر من الطاولة مدةً طويلة، حيث بدَت ستيفاني، التي كانت تجلس على يسار دوميني، بشَعرها الأحمر الذهبيِّ المصفَّف بإتقان، ومجوهراتها الرائعة، وأسلوبها المتكاسل، أشبهَ بواحدةٍ من جميلات البلاط الملكي في فينيسيا القديمة، وليست أميرةً مجَرية حديثةً ترتدي ملابسها من أشهر شوارع باريس. ظلت المحادثات تدور حول الشئون المحلية بشكل رئيسي، وتناولت الصيدَ الذي حدث بالنهار والمواضيعَ ذاتَ الصلة. لم ينجح الدوق في الإفصاح عن فكرته الرائعة المفضَّلة إلا قرب انتهاء الوجبة.

قال وهو يرفع صوته قليلًا متَّجهًا نحو مضيفه: «أنا واثقٌ يا إيفرارد من أنك تبذلُ قصارى جهدك في غرس مبادئ الخدمة الوطنية في المستأجرين هنا.»

تردَّد دوميني في الردِّ بعض الشيء.

واعترف قائلًا: «أخشى أن الفكرة لا تعجبهم في هذا الجزء من العالم.» وأردف قائلًا: «فالمناطق الزراعية تمامًا دائمًا ما تكون صعبة بعض الشيء.»

أصرَّ الدوق: «من واجبك بوصفك مالكًا للأرض تغييرُ وجهة نظرهم.» وأضاف، وهو ينظر بشراسة من فوق نظارته المثبتة على أنفه إلى سيمان، الذي كان يجلس على الجانب

الآخر من الطاولة: «لا يوجد أدنى شكٍّ في أننا قريبًا سنجد أنفسنا في حالةِ حرب مع ألمانيا، وضَعْ في اعتبارك أننا سنكون في حالةٍ مروعة من عدم الاستعداد.»

بدَت الليدي مادلي، زوجةُ ممثل الملك، التي جلست إلى جانبه، مذهولةً بعض الشيء. ربما كانت واحدة من قلةٍ قليلةٍ جدًّا من الحاضرين الذين لم يكونوا على علم بنقطة ضعف الدوق.

سألت: «هل حقًّا تظن ذلك؟» وتابعت قائلةً: «فالألمان يبدون شعبًا متحضرًا، مسالمين ووطنيِّين في حياتهم، وهذا النوع من الأشياء.»

تذمَّر الدوق. وألقى نظرةً خاطفة على الطاولة للتأكد من أن الأمير تيرنيلوف لا يسمعهم.

وصرَّح: «عزيزتي ليدي مادلي، ألمانيا ليست محكومةً مثل إنجلترا. عندما تأتي الحرب، لن يكون للناس أيُّ علاقة بها. سوف يُفاجأ عددٌ كبير منهم كما ستُفاجَئين، لكنهم سيُقاتلون جميعًا على قدَم المساواة.»

حينئذٍ قَبِل سيمان، الذي ظل صامتًا خلال اللحظات القليلة الماضية بصعوبة كبيرة، تحدِّيَ الدوق.

وقال وهو ينحني على الطاولة: «اسمحي لي أن أؤكد لك، يا سيدتي، أن الحرب مع ألمانيا التي يخشى الدوق منها بشدة لن تأتيَ أبدًا. أتحدَّث بقدرٍ من المعرفة لأنني ألمانيُّ المولد، على الرغم من أنني أحمل جنسيةَ هذا البلد. لديَّ العديد من الأصدقاء الأعزاء في برلين كما هو الحال في لندن، وباستثناء غيابي مؤخرًا في أفريقيا، حيث كان من دواعي سروري مقابلةُ مضيفنا، قضيت قسمًا كبيرًا من وقتي في التنقل ذَهابًا وإيابًا بين العاصمتين. كما يُشرفني أن أكون سكرتيرًا لجمعيةٍ تُعزِّز تحسين التفاهم بين مواطني ألمانيا وإنجلترا.»

صاح الدوق: «هُراء!» وأضاف قائلًا: «لا يريد الألمانُ تحسين التفاهم. يريدون فقط خداعَنا للاعتقاد بأنهم يفعلون ذلك.»

بدا سيمان منزعجًا قليلًا. ومع ذلك، تمسَّك برأيه.

علَّق قائلًا: «نيافته وأنا خَصْمان قديمان في هذا الموضوع.»

وافق الدوق على ذلك قائلًا: «نحن كذلك بالفعل.» وأضاف قائلًا: «قد تكون رجلًا أمينًا، سيد سيمان، لكنك جاهلٌ جدًّا بشأن هذا الموضوع بالذات.»

«من المحتمل أن يكون كلاكما على حق» تدخَّل دوميني، إلى حدٍّ كبير بطريقةِ مضيفٍ مهذَّب يبذل جهدَه المعتاد لتهدئة وجهتَي نظرٍ متباينتَين بشدة. «لا يوجد شكٌّ في وجود

طائفة مؤيدة للحرب في ألمانيا وأخرى مؤيدةٍ للسلام، رجالِ الدولة الذين يضَعون التقدُّمَ الاقتصاديَّ في المقام الأول، وآخَرين موصومين برغبةٍ عسكرية بحتة للغزو. في هذا البلد، من الصعب جدًّا علينا تحقيقُ توازنٍ بين الاثنين.»

وجَّه سيمان شكرَه إلى مضيفه.

وقال بأسلوبٍ مثيرٍ للإعجاب: «لدي أصدقاء، في أعلى دوائر ألمانيا، يُشجِّعون باستمرارٍ عملي هنا، وقد تلقَّيت مباركةَ القيصر نفسِه على جهودي لتعزيز شعورٍ أفضل في هذا البلد. واعذرني لقول هذا، أيها الدوق؛ فالتصريحاتُ التي تُدلي بها باستمرارٍ حول بلدي غيرُ حكيمة، ولا أساس لها من الصحة، وهذا هو العائق الوحيد لتحسين التفاهم بيننا.»

قال الدوق غاضبًا: «لديَّ آرائي، وقد أصبحَت قناعات. وسأستمرُّ في التعبير عنها في جميع الأوقات وبكل طلاقة أملكها.»

انحنى السفير، الذي كانت قد وصلَت إلى مسامعه حينئذٍ أجزاء من هذه المحادثة، إلى الأمام قليلًا في مكانه.

وتوسَّل قائلًا: «دعني أتحدثْ أولًا بصفتي فردًا عاديًّا، وأعبِّر عن رأيي المدروس جيدًا بأن الحرب بين بلدينا ستكون مجرد انتحار عِرقي، وجريمة شنيعة لا تُوصف. ثم سأتذكَّر ما أُمثِّله هنا، وسأجرؤ على أن أضيفَ على أنه بصفتي سفيرًا فقد أتيت بتفويضٍ مطلَق وصادق للسلام. مهمتي هنا هي تأمينه وضمان حدوثه.»

ألقت كارولين نظرةَ تحذير لزوجها.

وقالت: «كم هو لطيفٌ منك أن تكون صريحًا جدًّا، أيها الأمير!» وأردفت قائلةً: «ينسى الدوقُ أحيانًا، في سعيه وراء هوايته، أن طاولة العَشاء الخاصة ليست منصة. أصرُّ على أن نناقش أمرًا مثيرًا للاهتمام الحقيقي أكثرَ من ذلك.»

«لا يوجد موضوع أكثر أهمية في العالم من ذلك»، أعلن الدوق مستسلمًا، مع ذلك، للصمت.

اقترح السفير: «سنتحدَّث عن الطريقة التي أسقط بها مضيفنا طيورَ الدُّرَّاج الطويلة تلك.»

قال سيمان مقترحًا للسيدة التي على يمينه: «ربما ستُخبرينني كيف استطاعت النساء الإنجليزيات أن يُؤمِّن لأنفسهنَّ حريةً أكبر بكثير مما تتمتع به زوجاتنا الألمان؟»

همسَت ستيفاني لمضيفها، برجفةٍ بسيطة في صوتها: «لاحقًا، لديَّ مفاجأة لك.»

بعد العَشاء، اتجه ضيوفُ دوميني تلقائيًّا للتسلية التي يُفضِّلها كلٌّ منهم. كانت هناك طاولتان للعب الورق، ولعب تيرنيلوف والوزير البلياردو، أما سيمان الذي كان يتمتَّع بلمسةٍ أذهلَت الجميع، فقد عزفَ موسيقى من الغريب أن تخرجَ من المفاتيح الصفراء للبيانو القديمِ الطِّراز في قاعة الاستقبال. سارت ستيفاني ومضيفها ببطءٍ عبر القاعة ومعرض الصور. لبعض الوقت، انصرفت محادثتُهما فقط إلى المواضيع التي لفت دوميني انتباهَ رفيقته إليها. ولكن، عندما ابتعدا عن الضيوف الآخرين، ضغطَت ستيفاني بأصابعها على ذراع رفيقها.

وقالت: «أودُّ أن أتحدَّث معك بمفردنا، دون أن يسمعَنا أحد.»

تردَّد دوميني ونظر إلى الخلف.

تابعت بنفادِ صبر قليلًا: «ضيوفك مشغولون، وعلى أيِّ حال أنا واحدة منهم. وأريد اهتمامك.»

فتح دوميني باب المكتبة وأشعل بعضًا من المصابيح الكهربائية. شقَّت طريقها إلى المدفأة الكبيرة المفتوحة، التي كان يحترق فيها جذع شجرة، ونظرَت إلى الظلال في الغرفة ثم نظرت إلى وجه مضيفها.

وتوسلَت: «للحظة واحدة، أشعل كل الأنوار. أريد أن أتأكد من أننا وحدنا.»

فعل دوميني كما طُلب منه. أُضيئت زوايا الغرفة البعيدة، المزيَّنة بالعديد من الأرفف المليئة بالكتب على جانبيها. أومأت برأسها.

أمرتْه قائلةً: «الآن أطفِئْهم جميعًا مرةً أخرى باستثناء هذا، ووجَّهني إلى كرسيٍّ مريح. لا، لقد اخترت هذه الأريكة. من فضلك اجلس بجانبي.»

سأل بقليلٍ من القلق: «هل سيكون هذا أمرًا خطيرًا؟»

تمتمَت وهي ترفع عينيها نحو عينَيه: «خطير، لكنه رائع.» وأردفت قائلةً: «هلا تصغي إليَّ من فضلك يا ليوبولد؟»

كانت نصف مستلقيةٍ في ركن الأريكة، ورأسها مستريحٌ قليلًا على أصابعها الطويلة، وعيناها البنيتان مسلَّطتان على رفيقها. كانت طريقتها توحي بأنها ستقول أشياءَ جادة، ولكن لطيفة. بدا وجه دوميني أكثرَ صرامة عندما أدرك جاذبية عينيها.

بدأت قائلةً: «ليوبولد، لقد غادرتُ هذا البلد منذ بضعة أسابيع، شاعرةً بأنك كنتَ متوحشًا، وقررتُ ألا أراك مرةً أخرى أبدًا، وكنتُ أميل قليلًا إلى فضْحِ أمرك قبل أن أغادر وأن أقول إنك محتالٌ ودجَّال. ألمانيا لا تعني الكثيرَ لي، والوطنية التي لم تأخذ بعين الاعتبار

الالتزاماتِ الإنسانيةَ جعلتْني غيرَ مستجيبة لها على الإطلاق. أزمعتُ العودة إلى الوطن وعدم العودة إلى لندن أبدًا. كان قلبي مجروحًا، وكنت حزينة للغاية.»

توقَّفَت، لكن رفيقها لم يُبدِ أي إشارة. ولكنها توقَّفت مدةً طويلة؛ لذا أصبح الكلام ضروريًّا.

قال بهدوء: «أنت تتحدَّثين، أيتها الأميرة، إلى شخصٍ غير موجود. لم يَعُد اسمي ليوبولد.»

ضحكَت من كلامه بمزيج غريب من الرقة والمرارة.

وتابعت: «صديقي، أنا خائفةٌ من التفكير في الإنسانية التي فقدتها مع هويتِك الجديدة، إلى جانب اسمك. وللمضيِّ قُدمًا، كان من المناسب لي البقاءُ بضعةَ أيام في برلين، ولذلك اضطُرِرتُ إلى الذهاب إلى بوتسدام. وهناك تلقيتُ مفاجأة كبيرة. تحدث فيلهلم معي عنك، وبالرغم من أن قلبي، للأسف! لا يزال مجروحًا، فقد ساعدَني على الفهم.»

سأل بقليلٍ من اليأس: «هل تعتقدين أن هذا من الحكمة؟»

تجاهلَت كلماته.

ومضَت قائلة: «عُدت مرةً أخرى للبلاط الملكي.» وأردفت: «لذلك فأنا مَدينةٌ لك بالشكر. لقد تأثَّر فيلهلم كثيرًا بزيارتك الأخيرة له، وبالطريقة التي برهنتَ بها أنت نفسك هنا. أشاد أيضًا بجهودك في أفريقيا، التي بدا أنه يُقدرها بشدة لأنك كنتَ منفيًّا هناك. سألني، يا ليوبولد» أضافت، خافضةً صوتها قليلًا: «إن كانت مشاعري تجاهَك باقية على حالها.»

ظلَّ وجهُ دوميني غير مرتاح. ورفض بإصرار أن ينظر إلى عينيها.

واصلَت: «قلتُ له الحقيقة.» وأردفت: «أخبرتُه كيف بدأ كل شيء، وكيف استمرَّ معي — حتى النهاية. حتى إننا تحدَّثنا عن المبارزة. أخبرتُه بما أوضحه لي كِلا مُعاونَيك — التواء الرُّسغ، واندفاع كونراد الجامح، وكيف أنه ألقى بنفسه حَرفيًّا على حدِّ سيفك. فهِم فيلهلم وغفَر، وقد أرسل لك هذه الرسالة.»

سحبَت ظرفًا رَماديًّا صغيرًا من جيبها. على الختم كان شعار نبالة إمبراطورية هوهنتسولرن. مرَّرته إليه.

وهمست: «ليوبولد، من فضلك اقرأ هذا.»

هز رأسه، رغم أنه قبِل الرسالةَ بأصابع مترددة.

أمرَته: «اقرأ العنوان.»

أطاعها. كانت موجهةً بخط يدٍ غريب وشاذٍّ إلى «البارون السير إيفرارد دوميني». كسر الختم عن غير قصد وسحب الرسالة. كانت مؤرَّخةً قبل أسبوعين. لم تكن توجد بداية ولا نهاية، فقط بضع جمل مكتوبة على عجلٍ على ورقة رسائل سميكة:

«إنها رغبتي أن تطلب يدَ الأميرة ستيفاني من إيدرستروم للزواج منك. ستُبارك الكنيسة زواجكما وسيُوافق عليه البلاط الملكي.»

فيلهلم

جلس دوميني كرجلٍ أسَرَه الصمت. أخذت تُراقبه.

سألت بسخريةٍ خفيفة لكن باستياء إلى حدٍّ ما: «لم تنزل على رُكبتَيك بعدُ؟» وأردفت قائلةً: «هل يمكن، يا ليوبولد، أن تكون قد فقدتَ حبَّك لي؟ لقد تغيرتَ كثيرًا وبطرقٍ عديدة. هل اختفى الحب؟»

حتى لنفسه بدا صوتُه قاسيًا وغيرَ طبيعي، وكانت كلماته غريزية ممزوجة بقسوة مهرج لا يرحم.

أعلن: «هذا ليس عمَليًّا.» وأضاف قائلًا: «فكِّري! أنا كما أُنادَى هنا، وكما يجب أن أبقى أشهُرًا قادمة — إيفرارد دوميني، رجل إنجليزي وصاحب هذا المنزل — زوجُ الليدي دوميني.»

سألت ستيفاني، عابسة: «أين زوجتُك حسَنةُ السمعة؟»

أجاب: «في دار الرعاية حيث كانت في الأشهر القليلة الماضية.» وأضاف قائلًا: «لقد تعافَت بالفعل عمَليًّا. لا يمكنها البقاء هناك مدةً أطول.»

«يجب أن تُصر على أن تبقى هناك.»

ناشد دوميني بجدِّية: «أطلب منك التفكير في الشكوك التي قد يُثيرها مثلُ هذا التصرف، وعلاوة على ذلك، هل يمكنكِ أن تشرحي لي كيف يمكنني، في وجود زوجةٍ أخرى على قيد الحياة وفقًا لاعتقاد الجميع، الاستفادةُ من هذا التفويض؟»

نظرَت إليه متعجبة.

«هل تضع عقباتٍ أمامَ الأمر؟ أنت تجلس هناك مثل الرجل الإنجليزي البارد الذي تأخذ مكانَه، أنت الذي سقطَت دموعه قبل الآن على يدي، وشفتاه ...»

قاطعها دوميني قائلًا: «إنكِ تتحدَّثين عن شخصٍ ميت، ميت حتى قدوم أحداثٍ عظيمة قد تُعيده إلى الحياة مرة أخرى. حتى ذلك الحين يجب أن يكون حبيبُك صامتًا.»

حينها اشتعَل غضبها. وتحدثَت بشكلٍ غيرِ مترابط وبانفعال، وجذبَت وجهه إلى وجهها وضمَّت قبضتها في اللحظة التالية كما لو كانت ستضربه. انهارت في عاصفة من الدموع.

ناشدته: «ليس بهذه الصعوبة ... ليس بهذه الصعوبة، يا ليوبولد!» وتابعت قائلةً: «أوه! مهمتك مهمةٌ عظيمة، ويجب عليك تنفيذُها حتى النهاية، لكننا حصلنا على إذنه ... يمكن العثور على طريقة ... يمكن أن نتزوج سرًّا. على الأقل شفتاك، ذراعاك! قلبي مشتاقٌ يا ليوبولد.»

نهض واقفًا. كانت ذراعاها لا تزالان ملفوفتَين حول رقبته، وشفتاها مشتاقتَين إلى قُبلة، وعيناها تلمعان وهما تنظران إلى عينيه.

توسَّل إليها: «ارحميني يا ستيفاني.» وأردف قائلًا: «حتى يحين وقتُنا، من العار أن أعطيكِ حتى قُبلة واحدة. انتظري اليوم، اليوم الذي تعرفينه.»

فتحَت ذراعيها وارتجفت قليلًا. ونظرت عيناها المتألمتان نحوه بدهشة.

قالت متلعثمةً: «ليوبولد، ما الذي غيَّرك على هذا النحو؟ ما الذي أنضبَ كلَّ شغَفِك؟ أنت رجل مختلف. دعني أنظر إليك.»

أمسكَت به من كتفيه، وجرَّته تحت المصباح الكهربائي، ووقفت هناك محدقةً في وجهه. كان الجِذع العظيم في المدفأة يُصدِر صوتًا وأزيزًا. عبر الباب المغلق جاءت موجةٌ خافتة من الحديث والضحك من الخارج. كان تنفسُها غيرَ مستقر، وكانت عيناها تسعيان لنزع القناع عن وجهه.

تمتمَت: «هل تعلمتَ الاهتمام بأي شخص آخر؟» وتابعت قائلةً: «لم تكن ثمةَ نساءٌ في أفريقيا. هذه التي تُدعى روزاموند دوميني، زوجتك حسَنة السمعة — أخبَروني أنها جميلة، وأنك كنت لطيفًا معها، وأن صحَّتها قد تحسَّنت منذ قدومك، وأنها تعشقُك. لن تجرؤ على ...»

قاطعها قائلًا: «لا، لن أجرؤ.»

سألَت: «إذن ما الذي تفكر فيه؟» وأضافت: «أخبرني.»

كانت عيناها تتبعان الصورةَ المظللة التي عبَرَت خارج الغرفة. لقد رأى مرةً أخرى الجسدَ الضعيف الصِّبياني، الضوء الساعيَ للحب في تلك العينين الداكنتين المتوسلتين، والشفتين المرتعشتين، ومناشدةَ طفلةٍ خائفة له، الرجل القوي، من أجل الحصول على الأمان. شعر بلمسةِ تشبُّث تلك الأصابع الناعمة الموضوعة عليه، وحلاوة تلك المشاعر المثارة

بشكلٍ رائع، التي كبتَها بقسوةٍ وكآبة عددٌ من السنوات. فجأة بدا شغف المرأة التي إلى جانبه رخيصًا وغيرَ واقعي، وسعيُ شفتيها إلى شفتيه شيئًا فظيعًا. كان ظهره للباب، وكانت صرخةُ استيائها الغاضبِ هي التي أعلَمَته أولًا بوجود دخيلٍ مرحَّب به. التفت ليجد سيمان واقفًا عند العتبة — سيمان، الذي كان بالنسبة إليه ملاكًا منقذًا.

صرَّح الوافد الجديد بقليلٍ من القلق الحقيقي على وجهه المستدير المرح: «أنا آسفٌ حقًّا على التطفل، يا سير إيفرارد.» وتابع قائلًا: «لقد حدث شيءٌ اعتقدت أنه يجب عليك معرفتُه في الحال. هل يمكنك أن تمنحَني لحظة؟»

اندفعت الأميرة دون كلمةِ وداعٍ أو نظرةٍ إلى الوراء. خرجت وكأنها ملكةٌ تعرضَت للإهانة. ظهر ضيقٌ عميق على وجه سيمان وهو يتنحَّى باحترام جانبًا.

سأل دوميني: «ماذا حدث؟»

كان الرد الهادئ: «لقد عادت الليدي دوميني.»

الفصل السابع عشر

بدا لدوميني أنه لم يرَ مطلقًا شيئًا مثيرًا للشفقةِ أكثرَ من تلك النظرة الشغوفة، المليئةِ بالأمل والتخوُّف، التي نظرَت بها إليه تلك العينان الغريبتان المتعَبتان للمرأة التي كانت تقف أمام المدفأة في أحد الأركان الخفيَّة في القاعة الرئيسية. إلى جانبها كانت تقف امرأةٌ لطيفة وودودةُ المظهر ترتدي زيًّ ممرضة؛ وخلفها بقليل خادمةٌ تحمل علبة مجوهرات. كانت روزاموند، التي كانت قد ألقت غِطاء وجهها للوراء، واقفة ورجلها على سياج المدفأة. تغيرت تعابيرُ وجهها بالكامل عندما أسرع دوميني نحوها بيدَين ممدودتين.

وصاح قائلًا: «عزيزتي، أهلًا بك في بيتك!»

كرَّرت، بغصَّة سعيدة في حلقها: «أهلًا؟» وأضافت: «هل تعني ذلك حقًّا؟»

بتحكُّم في نفسه لم يُبدِ له أيَّ أمارة، لمس بحنانٍ ووقار الشفتَين اللتين ارتفعَتا بشغفٍ شديد إلى شفتيه كما لو كانت طفلةً غريبة يلتزم برعايتها.

أجاب بحرارة: «بالطبع أعني ذلك.» وتابع: «ولكن ما الذي جعلكِ تأتين دون إخطارنا؟ كيف حدث هذا، أيتها المرضة؟»

أجابت الأخيرة: «سيادتها لم تنَم منذ ليلتَين.» وتابعت قائلةً: «لقد كانت أفضلَ بكثير لدرجةِ أننا خشينا من فكرة الانتكاس؛ لذلك اعتقدَت السيدة كولسون، رئيسةُ الممرضات، أنه من الأفضل أن ندَعَها تعود لمنزلها. وبدلًا من إرسال برقيةٍ إليك، لسوء الحظ، أرسلنا برقيةً إلى الدكتور هاريسون، وأعتقد أنه لم يكن موجودًا.»

سألت روزاموند، متشبثةً بذراع دوميني: «هل ارتكبت خطأً فادحًا؟» وتابعت قائلةً: «شعرت فجأةً أنني يجب أن أعود إلى هنا. أردت أن أراك مرةً أخرى. كان الجميع لطيفًا

وطيبًا في فالماوث، خاصة الممرضة أليس هنا، لكنهم لم يكونوا مثلها تمامًا. هل أنت غاضب؟ هل سيُمانع هؤلاء الناس الذين يقيمون هنا؟»

طمأنها بمرح: «بالطبع لا.» وأضاف قائلًا: «سيكونون ضيوفَكِ. غدًا عليك تكوينُ صداقات معهم جميعًا.»

قالت بخجل: «كانت ثَمة امرأةٌ جميلة جدًّا، شعرها أحمر، مرت الآن. بدَت غاضبة جدًّا. هل كان ذلك بسبب قدومي؟»

أجاب: «لماذا يجب أن يكون بسبب ذلك؟» وأضاف قائلًا: «لديك حقٌّ هنا — حق أفضل من أي شخص آخر.»

تنهدَت تنهيدةً طويلة تنمُّ عن اقتناعها.

وصاحت: «أوه، هذا رائع!» وأردفت قائلةً: «وأنت يا عزيزي، سأدعوك إيفرارد، هل يُمكنني ذلك؟ تبدو كما كنت أتمنَّى. هلا تأخذني إلى الطابق العلوي من فضلك؟ أيتها الممرضة، يمكنكِ اللَّحاقُ بنا.»

اتَّكأت بشدةٍ على ذراعه حتى إنها تباطأتْ في الطريق، لكن خطواتها أصبحت أخفَّ عندما اقتربت من جناحها الخاص. أخيرًا، عندما وصلا إلى الممر، انفصلتْ عنه وأسرعت ببهجة وكأنها طفلةٌ إلى باب غرفتها. وعندما فتحتِ البابَ أطلقتْ صيحةً خافتةً تنمُّ عن خيبةِ أملٍ. كان يوجد العديد من الخادمات، مشغولاتٍ بالمدفأة التي كان يصعبُ إشعالها وإزالةُ الأغطية من على الأثاث، وكانت الغرفة نصف مليئة بالدخان وغيرَ مهيَّأة تمامًا.

«أوه، كم هذا بائس!» وتابعت قائلةً: «إيفرارد، ماذا أفعل؟»

فتح باب جناحه. كانت النيران مشتعلةً في المدفأة، وكانت الغرفة دافئةً ومريحة. ألقت بنفسها وهي تُطلِق صيحةَ فرح خافتة على الأريكة الضخمة الموضوعة عند حافة السجادة المفروشة أمام المدفأة.

قالت مناشِدةً: «يمكنني البقاءُ هنا، يا إيفرارد، حتى تدلفَ إلى الفراش، أليس كذلك؟» وتابعت قائلةً: «وحينها يمكنك الجلوسُ والتحدُّث معي، وإخباري مَن هنا وكلَّ شيء عن الناس. ليس لديك فكرةٌ كم تحسنتُ كثيرًا. كل موسيقاي عادت إليَّ، ويقولون إنني ألعب البريدج بشكل جيد. سأحب مساعدتك في التسلية.»

كانت الخادمة تفكُّ ببطء رباطَ حذاء سيدتها طويلِ الرقبة. رفعَت روزاموند قدَمها له ليتحسسَها.

قالت شاكيةً: «انظر كم أشعر بالبرد!» وتابعت قائلةً: «دلِّكها لي من فضلك. سأتناول العشاءَ هنا مع الممرضة. هل يمكن أن تنزل إحدى الخادمات لتدبِّر هذا الأمر؟» أضافت

وهي تنظر حولها: «كم لديك الكثير من الأشياء الجديدة الرائعة، يا إيفرارد!» صاحت والفرحُ يغمر عينَيها: «وتلك الصورة لي من قاعة الاستقبال، على المنضدة! عزيزي! ما الذي دفعك إلى إحضارها؟»

قال لها: «أردتُ أن تكون لديَّ هنا.»

تنهدَت بقليل من الحزن: «أنا لستُ جميلة جدًّا هكذا الآن.»

أجاب: «لا أصدِّق هذا.» وأضاف قائلًا: «فأنتِ لم تتغيَّري على الإطلاق. وستُصبحين أجملَ عندما تمكثين هنا بضعة أشهر.»

نظرت إليه بخجلٍ وبحنان، ولكن كان لا يزال يوجد ذلك البريقُ من التحفُّظ في عينيها.

تمتمَت قائلةً: «أظن أنني سأكون كما تريدني أن أكون. وأظن أنه يمكنُك أن تجعلَني كما تريد. لكن من فضلك، كن لطيفًا معي»، توسَّلَت، وهي تمدُّ ذراعَيها إليه. وأردفت: «أظن أن السبب في ذلك هو أنني كنتُ مريضة مدةً طويلة، لكنني أشعر بعجز شديد، وأحبُّ قوَّتك وأريدك أن تعتنيَ بي. يداك باردتان جدًّا»، أضافت بقلق. وتابعت: «وتبدو شاحبًا أيضًا. هل أنت مريض، يا إيفرارد؟»

أكَّد لها وهو يُكافح من أجل إبقاء صوته ثابتًا: «أنا بأحسنِ حال.» وأضاف قائلًا: «سوف تُسامحيني، أليس كذلك، إذا غادرتُ بسرعة. فيوجد هنا ضيوفٌ مهمون إلى حدٍّ ما. وغدًا يجب أن تأتي وتتعرفي بهم جميعًا.»

«وأساعدك؟»

«وتُساعديني.»

هرَب دوميني وسار مترنحًا في الرَّدهة. أعلى الدَّرَج الكبير الرباعيِّ الزوايا توقَّف بعينين شبهِ مغلقتَين عدة لحظات. كان يسمع أصواتًا مرتفعة لطيفة من الطابق السفلي، وموسيقى بيانو من بعيد، ونقرات كرات البلياردو. انتظر حتى استعاد زِمام نفسه. ثم، عندما كان على وشك النزول، رأى سيمان يصعد الدرَج. أومأ إليه لينتظرَه، وعندما وصل إليه أخذه من ذراعه، وقاده إلى أريكةٍ كبيرة في زاوية مظلمة. فقد سيمان بهجتَه المعتادة. لم تَعُد الابتسامة المرحة على شفتيه.

سأل: «أين الليدي دوميني؟»

«في غرفتي، تنتظر حتى الانتهاءِ من تجهيز غرفتها.»

كان أسلوب سيمان جادًّا بشكل غير عادي.

قال: «صديقي، أنت تعلم جيدًا أنه عندما نسير في دروب الحياة العظيمة، أكون مجردًا من المبادئ. في تلك الساعات الأخرى، للأسف! لديَّ نقطة ضعف — أحب النساء.»

تمتم دوميني: «ماذا؟»

تابع الآخر: «سأعترف بأنك وُضِعْت في موقفٍ حساس وصعب. يبدو أن الليدي دوميني تميل إلى أن تُقدِّم لك العاطفةَ التي كانت تشعر بها دون شكٍّ تجاه زوجها، على الرغم من مشاكلهما معًا. سأخاطر بإغضابِك يا صديقي، وأنصحك بأن تكون حريصًا جدًّا في تشجيعِك لها.»

ومَضتْ عينا دوميني. وفي هذه اللحظة بدا أن كلمات الغضب ترتجفُ على شفتيه. ومع ذلك، كان أسلوب سيمان لطيفًا جدًّا. ولم يُسئ إليه.

«لو كنت ستستغلُّ موقعك مع أي شخص آخر، فلن أبدي أيَّ اعتراض، لكن زوجة هذا الرجل الإنجليزي المجنون، أو بالأحرى أرملته، كانت مريضةً عقليًّا. ولا يزال عقلُها ضعيفًا، وقلبها رقيقًا. شاهدتُها وهي تمر عبر القاعة معك الآن. إنها تلجأ إليك من أجل الحبِّ مثلما تلجأ زهرةٌ إلى الشمس بعد موجةٍ طويلة من الطقس البارد الرطب. أنت رجل شريف يا فون راجاشتين. يجب أن تجد وسيلة للتعامل مع هذا الموقف، مهما كان صعبًا.»

تعافى دوميني من موجةِ ضعفه الأولى. ولم تُثِر كلماتُ رفيقه مشاعرَ غضبٍ بداخله. حتى إنه أدرك أنه ينظر إليه بشعور عظيم من اللطف أكثرَ من أي وقت مضى.

وقال: «صديقي، لقد أظهرتَ لي أنك مدركٌ لمعضلةٍ واحدة أجد نفسي متورطًا فيها، وأعترف أنها تُسيطر على تفكيري إلى أقصى حد. دعني الآن أخبرْك بمعضلةٍ أخرى. جلبَت لي الأميرة إيدرستروم رسالةً موقَّعة بخط اليد من القيصر، يأمرني بالزواج منها.»

أعلن سيمان بعنف: «هذا الموقف، لولا جانبُه الجاد، لوفَّر كلَّ العناصر لمسرحيةٍ هزلية في القصر الملكي بباريس. ومع ذلك، في الوقت الحاضر، لديك واجبات بالأسفل. لقد أفصحتُ عن الكلمات التي كانت تعصف بقلبي.»

نزَلا في الوقت المناسب. فقد كان بعض الضيوف المحليِّين يستعدون للمغادرة، وكان دوميني هناك ليُودعهم. ترَكوا جميعًا رسائلَ لليدي دوميني، وتحدثوا عن إجراء زيارة سريعة لها، وأعرَبوا عن سعادتهم لسماعِ نبأ عودتها وشفائها. عندما انصرفَت آخرُ سيارة، أخذت كارولين ذراعَ مضيفها وقادته إلى مقعدٍ بجوار المدفأة الضخمة في القاعة الداخلية.

قالت: «عزيزي إيفرارد، أنت حقًّا شخص فظيع جدًّا.»

سأل: «لماذا بالضبط؟»

تابعَت قائلة: «إن إخلاصَك للنساء يستحقُّ الثناء، ولكنه شاملٌ للغاية. يبدو أن عودتك إلى إنجلترا قد فعلت ما فهمنا أنه مستحيل — أعادت إلى زوجتِك عقلَها. لقد طاردتْك أميرةٌ مجَرية شعرها أحمر إلى هنا، وذهبت الآن إلى غرفتها في حالة هِياج؛ لأنك تركتَها بضعَ دقائق للترحيب بزوجتك. ولا يزال هناك مُغازلتنا العاطفية الخفيفة، شيء محطم، وللأسف، مهمل! لا يوجد شكٌّ على الإطلاق، يا إيفرارد، في أنك شخصٌ سيئ للغاية.»

اعترَف دوميني قائلًا: «إنك تزعجينني بشكل رهيب، لكن مع ذلك، بعد أمسيةٍ مضطربة إلى حدٍّ ما، يجب أن أعترف أنني أجد أنه من الجيد التحدثُ مع شخصٍ لا يُبرق ويُرعد. هل لي بويسكي وصودا؟»

طلبت كارولين: «أحضر لي واحدًا أيضًا من فضلك.» وأضافت قائلةً: «أخشى أن يؤديَ ذلك على نحوٍ خطير إلى إضعاف الانطباع الذي كنتُ أنوي أن أضْفِيَه على حديثنا، لكنني عطشى. وحَفنة من تلك السجائر التركية أيضًا. يُمكنك أن تُكرِّس نفسك لي بضميرٍ مرتاح تمامًا. لقد وجد ضيفُك المميز مهمةً تُناسب آراءه. لقد وضع هنري في زاويةٍ من غرفة البلياردو ويحاول إقناعه بما أنا متأكدةٌ من أن الرجل العزيز نفسَه يؤمن حقًّا به — أن نوايا ألمانيا تجاهَ إنجلترا ذاتُ طبيعة مسالمة بشكلٍ خاص. وذهب ضيفك الرايت أونرابل إلى الفراش، وإيدي بيلهام يلعب البلياردو مع السيد مانجان. الجميع سعداء. يمكنك أن تُكرِّس نفسك لتهدئة غروري الجريح، فضلًا عن قلبي المكسور.»

تذمَّر دوميني: «دائمًا ما تستهزئين بي.»

أجابت بهدوءٍ رافعةً عينيها للحظة: «ليس دائمًا.» وتابعت قائلةً: «في إحدى المرات لم أستهزئ بك، يا إيفرارد، قبل تلك المأساة الرهيبة — آخر مرة مكثتَ فيها في دنراتر.»

قال بعد التفكير مَليًّا: «عندما كنتِ، على العكس، في غاية اللطف.»

تنهدَت مستعيدةً الذكريات.

تمتمت: «لقد كان شهرًا رائعًا.» وتابعت قائلةً: «أظن أن تلك كانت المرةَ الأولى التي رأيت فيها آثارًا لشيءٍ ما بداخلك أظن أنه يُفسِّر ما أنت عليه اليوم.»

«تظنين أنني قد تغيَّرت، إذن؟»

نظرت إلى عينيه.

واعترفت قائلةً: «أجد صعوبةً أحيانًا في تصديق أنك الرجل نفسُه.»

التفتَ للوصول إلى الويسكي والصودا.

وسأل: «من باب الفضول، لماذا؟»

علَّقَت قائلة: «بادئ ذي بدء، لقد أصبحتَ شديد التمسك بالقواعد في كلامك. لقد اعتدت أن تكون عاميًّا إلى حدٍّ ما في بعض الأحيان.»

«ماذا أيضًا؟»

«لقد اعتدتَ دائمًا على ألا تنطق حرف الجي الأخير.»

غمغم: «عادة مروعة.» وأضاف قائلًا: «عالجتُ نفسي من ذلك بالقراءة بصوتٍ عالٍ في الأدغال. أرجوكِ استمرِّي؟»

«تتصرف بصرامةٍ كبيرة. وفي بعض الأحيان تُعطي إيحاءً بأنك مندهش من أنك لستَ بالزي العسكري.»

أعلن: «تفاهات، كل هذه الأشياء.» وأضاف قائلًا: «ألا يوجد شيء جادٌّ؟»

اعترَفت: «الأشياء الجادة جيدة.» وتابعت: «اعتدتَ أن تشرب الويسكي والصودا في جميع ساعات اليوم، وكمية كبيرة من النبيذ بقدرِ ما يُرضيك في وقت العشاء. الآن، على الرغم من أنك مضيفٌ رائع، إلا أنك نادرًا ما تأخذ أي شيء لنفسك.»

قال لها: «يجب أن تُشاهديني أمام نبيذ البورت عندما لا توجد سيدات! المزيد من الأشياء الجيدة، من فضلك؟»

تابعَت قائلة: «يبدو أن أفضل صفاتك قد ظهرت على السطح، وأظن أن الطريقة التي عُدتَ بها وواجهت كل شيء رائعةٌ بكل بساطة. قُل لي، إذا اكتُشِفَت جثةُ ذلك الرجل بعد كل هذه السنوات، فهل ستُتَّهَم بالقتل غير العمد؟»

هزَّ رأسه. «لا أظن ذلك، يا كارولين.»

«إيفرارد.»

«ماذا؟»

«هل قتلتَ روجر أنثانك؟»

سقط جزءٌ من الجِذع المحترق في موقد المدفأة. ثم ساد صمت. سمعا صوتَ نقرات كرات البلياردو في الغرفة المجاورة. انحنى دوميني إلى الأمام، وبملقط صغير استبدل الخشب المحترق في المدفأة. وفجأةً شعر بيديه تتشابكان مع يدي رفيقته.

قالت: «عزيزي إيفرارد، أنا آسفةٌ للغاية. لقد أتيتَ إليَّ متعبًا قليلًا الليلة، أليس كذلك؟ أعتقد أنك كنتَ بحاجةٍ إلى التعاطف، وها أنا ذا أسألك مرة أخرى ذلك السؤال الرهيب. انسَ الأمر، أرجوك. تحدَّث معي مثلما كنت تفعل سابقًا. أخبرني عن عودة روزاموند. هل تعافتْ حقًّا، هل تظن ذلك؟»

أجاب دوميني: «لقد رأيتها بِضعَ دقائق فقط، لكنها بدَت لي أفضل حالًا بالتأكيد. يجب أن أقول إن التقارير الأسبوعية التي تلقَّيتها من دار الرعاية كانت تُبشرني بتحسنٍ كبير. إنها ضعيفةٌ للغاية، ولا تزال عيناها تحتويان تلك النظرةَ المضطربة، لكنها تتحدث بتماسكٍ تام.»

«ماذا عن تلك المرأة الفظيعة؟»

«لقد جَعلتُ السيدة أنثانك تتقاعد. ومما أدهشَني أنني سمعتُ أنها لا تزال تعيش في القرية.»

«ماذا عن شبحك؟»

«لم يحدث أيُّ عواءٍ طَوال الوقت الذي غابت فيه روزاموند.»

قالت كارولين مترددةً: «ثمةَ شيءٌ آخر.»

لم يحظَ هذا الشيء الآخر مطلقًا بفرصةِ الإفصاح عنه. فقد حدثَت مقاطعة غريبة، شبهُ درامية. كسر صمتَ القاعة صوتُ الجرس الكبير المعلَّق فوق الباب الأمامي. نظر دوميني إلى الساعة بدهشة.

وصاح: «منتصف الليل! مَن على وجه الأرض يُمكنه المجيء إلى هنا في هذا الوقت من الليل!»

بشكلٍ غريزي، نهض كِلاهما. أدار أحدُ الخدم المفتاح الكبير وسحب المزاليجَ وفتح الباب بصعوبة. اندفع القليل من الثلج ورياحٌ جليدية قوية إلى القاعة، تبعها رجلٌ، لونه أبيضُ من رأسه إلى أخمصِ قدمَيه، وشعره يتطاير بسبب الرياح، ويكاد يتعذَّر التعرُّف به بعد معاناته.

صاح دوميني، متخذًا خطوةً سريعة إلى الأمام: «يا إلهي، دكتور هاريسون!» وأضاف قائلًا: «ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت من الليل!»

اتكئ الطبيبُ على عصاه للحظة. كان يلهث، وكان الثلج الذائبُ يتساقط من ملابسه على الأرضية المصنوعة من البلوط. خلعوا عنه معطفَه وجذبوه نحو النار.

قال بينما كان يأخذ القدحَ الذي وضعه دوميني في يده: «يجب أن أعتذرَ عن إزعاجك في مثل هذه الساعة.» وأضاف قائلًا: «لقد تلقيتُ للتو برقية الليدي دوميني. وتعيَّن عليَّ أن أراك ... في الحال.»

الفصل الثامن عشر

لم يتردَّد الطبيب، بفظاظتِه المعتادة، في إعلان أن هذه الزيارةَ غيرَ العادية كانت ذاتَ طبيعةٍ خاصة. انسحبت كارولين على الفور، وتركَت الرجلَين وحدهما في القاعة الكبيرة. أُطفِئَت الأنوار في غرفة البلياردو وقاعة الاستقبال. وخلَد جميعُ مَن بالمنزل، باستثناء عددٍ قليل من الخدم، إلى النوم.

بدأ الطبيب حديثه قائلًا: «سير إيفرارد، لقد فاجأتْني عودةُ الليدي دوميني. كنت أنوي مناقشة الوضع معك صباحَ الغد.»

قال دوميني: «أتوقُ بشدة إلى سماع تقريرك.»

كانت الإجابة الواثقة: «تقريري جيِّد.» وأضاف قائلًا: «وعلى الرغم من أنني ما كنتُ سأسمح لها بمغادرة دار الرعاية فجأةً هكذا لو كنتُ أعرف، فإنه لم يكن ثَمة ما يُبقيها هناك. فالليدي دوميني بصحةٍ جيدة، عقليًّا وجسديًّا، باستثناء هلوسة واحدة.»

«وما هذه الهلوسة الواحدة؟»

«أنك لستَ زوجها.»

صمت دوميني للحظة. ثم ضحك بشكل غير طبيعي قليلًا.

وسأل: «هل يمكن لشخص أن يكون عاقلًا تمامًا، ومع ذلك يكون عُرضةً لهلوسةٍ تجعل محيطه يبدو غيرَ واقعي؟»

أجاب الطبيب بصراحة: «الليدي دوميني عاقلة تمامًا، أما فيما يتعلَّق بتلك الهلوسة، فالأمر متروكٌ لك للتخلص منها.»

اقترح دوميني: «ربما يُمكنك أن تُعطيني بعض النصائح؟»

أجاب الطبيب: «أستطيع، وسأكون صريحًا معك تمامًا.» وأضاف قائلًا: «بادئ ذي بدء، ثمةَ بعضُ التغييرات الواضحة فيك التي قد تدعم هلوسةَ الليدي دوميني. على سبيل

المثال، لقد أمضيتَ نحو ثمانية أشهر الآن في إنجلترا، وخلال هذه المدة كشفتَ عن شخصيةٍ جديدة تمامًا. يبدو أنك تخلصتَ من كل عاداتك السيئة، فأنت تشربُ باعتدال، مثلما ينبغي أن يفعل رجلٌ نبيل، وتغلبتَ على انفعالك الشديد، وجمعت حولك أصدقاء مميَّزين ومهمين، بفضل شخصيتك فقط. هذا ليس على الإطلاق ما توقَّعه المرء من إيفرارد دوميني الذي غادر إنجلترا قبل اثني عشرَ عامًا.»

علَّق دوميني: «إنك تُقدِّم أعذارًا لزوجتي.»

كان الرد الفظ: «إنها ليست بحاجةٍ إلى أعذار.» وأضاف قائلًا: «لقد كانت امرأةً مخلصة وصَبورًا، تُعاني مرضًا قاسيًا، أُصيبت به بسبب حماقاتك وعدمِ تعقُّلك، وهذا هو ألطفُ رأي يمكن أن يُقال. ومثل كلِّ النساء الصالحات، الغفران سلوكٌ فطري لديها. وأصبح لديها الآن رغبةٌ في أن تأخذ مكانها المناسب في الحياة.»

تساءل دوميني: «لكن إذا استمرَّت هلوستُها، إذا كانت تشكُّ بجدية في أنني زوجها بالفعل، فكيف يمكنها فعل ذلك؟»

قال الطبيب بصرامة: «تلك هي المشكلة التي يجب أن نُواجهها أنت وأنا.» وأضاف قائلًا: «حقيقة أن زوجتك كانت على استعدادٍ للعودة إليك هنا، وهي لا تزال عُرضة لتلك الهلوسة، هي وجهة نظر لا أستطيعُ مناقشتها أو فهمها. وأنا هنا الليلة، بأي حال، لأُلقي عليك المسئولية. عليك أن تتذكَّر أن زوجتك لا تزال بحاجةٍ إلى خطوة واحدة نحوَ الشفاء التام، وحتى يتم التغلب على هذه الخطوة لديك مهمةٌ صعبة للغاية، ولكنها ضرورية.»

كزَّ دوميني على أسنانه للحظة. شعر بعيني الطبيب الرماديتين الثاقبتين تلمعان من تحت حاجبيه الأشعثَين وهو يميل إلى الأمام ويداه على ركبتيه.

اقترح دوميني بهدوء: «أنت تقصد أننا يجب أن نُبقِيَ الوضع على ما هو عليه، كما فعلنا منذ وصولي إلى المنزل، حتى تنتهيَ تلك الهلوسة.»

وافق الطبيب: «ها قد فهمتَ.» وأضاف قائلًا: «إنه وضعٌ متشابك، لكن علينا التعامل معه — أو بالأحرى عليك أنت التعاملُ معه. يمكنني أن أؤكد لك» تابع: «أن كلَّ أوهامها الأخرى قد ولَّت. فهي تتحدث عن شبَح روجر أنثانك، وصرخات الليل، وموته الغامض، باعتبارها أجزاءَ من ماضٍ أليم. وتُدرك تمامًا محاولاتها العديدةَ للقضاء على حياتك وتندمُ عليها بمرارة. الآن نأتي إلى الخطر الحقيقي. يبدو أنها تمتلك إخلاصًا عاطفيًّا تجاهك، بينما لا تزال تعتقد أنك لستَ زوجها.»

دفع دوميني كرسيَّه بعيدًا عن المدفأة وكأنه شعر بالحرارة. بدت عيناه مثبتتَين على عيني الطبيب.

تابع الأخيرُ بجدِّية: «أنا لا أتظاهر بتحمُّل مسئولية ذلك الأمر، لكن مِن واجبي أن أحذِّرك، يا سير إيفرارد، من أن ذلك الإخلاصَ قد يقودها إلى أبعد الحدود. فالليدي دوميني تتمتَّع بطبيعةٍ حَنونٍ للغاية، وهذه العودة إلى حالةٍ أقوى من الصحة البدنية وقدرٍ أكبر من المشاعرِ الإنسانية قد أيقظت كلَّ تلك الميول التي جعلها ولَعُها المتزايد بك ووضعُك بوصفِك زوجَها حسَنَ السمعة أمرًا طبيعيًّا تمامًا. أحذرك، يا سير إيفرارد، من أنك قد تجدُ موقفك صعبًا للغاية، ولكن، على الرغم من صعوبته، ثمة واجبٌ واضح أمامك. حافظ على عاطفة زوجتك وشجِّعها إن استطعت، لكن تحمَّلْ مسئولية عدم تجاوز هذه العاطفة حدودًا معينةً في ظل وجود الهلوسة. فالليدي دوميني امرأة طيبة ولطيفة. وإذا استيقظتْ ذاتَ صباح وهذه الهلوسة لا تزال في ذهنها، وشعرت بالذنب داخلها، فقد تضيع كل جهودنا خلال الأشهر الماضية، وربما تقضي باقيَ أيامها في مستشفى الأمراض العقلية.»

قال دوميني بحزم: «أيها الطبيب.» وأضاف قائلًا: «أنا أقدِّر كلَّ كلمة تقولها. يمكنك الاعتماد عليَّ.»

نظر إليه الطبيب.

واعترف وهو يتنفس الصُّعداء: «أعتقد أنني أستطيع.» وأضاف قائلًا: «وأنا ممتنٌّ لذلك.»

استطردَ دوميني بعد توقُّف: «ثَمة مرحلة واحدة أخرى في الوضع.» وأضاف قائلًا: «بافتراض أنَّ هذه الهلوسة قد اختفت؟ وبافتراض أنها اقتنعَت فجأةً بأنني زوجها؟»

أجاب الطبيب بجدية: «في هذه الحالة، سيُعكَس الوضع تمامًا، وسيكون من المهمِّ لك ألا تُوقف العاطفة التي قد تُقدِّمها لك؛ لأنك في الحالة الأخرى لن تقبلها. في اللحظة التي تُدرك فيها، بميولها الحاليَّة، أنك حقًّا زوجُها الشرعي، ستكون تلك اللحظة بدايةَ حياة جديدة لها.»

بطريقةٍ ما بدا أنهما شعَرا أن الكلمات الأخيرةَ قد قيلت. بعد توقفٍ قصير، أعدَّ الطبيب لنفسه شرابَ وداعٍ وملأ غليونه ونهض. كانت السيارة التي طلبَها دوميني من المرآب واقفةً بالفعل عند الباب. كان غريبًا كيف بدا كِلاهما غيرَ راغب في الإشارة مرةً أخرى ولو بشكلٍ غير مباشر إلى الموضوع الذي كانا يُناقشانه.

قال الطبيب بفظاظة: «لطيفٌ جدًّا منك أن تُعيدني.» وأضاف قائلًا: «لقد بدأتْ رحلتي على ما يُرام، لكنها كانت نزهةً كئيبة عبر المستنقعات.»

أجاب دوميني بإخلاص واضح: «أنا ممتنٌّ جدًّا لك لقدومك.» وأضاف قائلًا: «هل ستأتي وتُلقي نظرة على المريضة بعد يوم أو اثنين؟»

وعدَه الطبيب: «سأحضر بمجرد أن تتخلصَ من بعضٍ من ضيوفك.» وأضاف قائلًا: «طاب مساؤك!»

افترقَ الرجلان، وكان من الغريب أن دوميني كان مدركًا أنه بهذه الكلمات القليلة المربكةِ للوداع، دُفِنَ جزءٌ من العداء الناشئ بينهما. بعدما تُرك بمفرده، تجوَّل لبعض اللحظات في القاعة الكبيرة ذاتِ الإضاءة الخافتة. بدا أن قلقًا غريبًا قد أصابه. وقف بعضَ الوقت بجانب نيران المدفأة التي قاربت على أن تخبوَ، يُراقب الرماد الرمادي، تُحركه باضطرابٍ الرياحُ التي كانت تعصف بالمدخنة. ثم تمشَّى إلى جزء آخر من القاعة، وأشعل المصابيح، التي عُلِّقت حديثًا فوق لوحات الزيت الكئيبة على الحائط، واحدًا تلوَ الآخر، عن طريق المفاتيح الكهربائية. نظر إلى وجوه بعضٍ من هؤلاء الموتى من آل دوميني، محاولًا تذكُّرَ ما كان قد سمعه عن تاريخهم، وأمعنَ النظر طويلًا في أحد نبلاء عهد ستيوارت، الذي وفَّرَت أفعاله السيئة مادةً جيدة لكل مؤرِّخ عليم بتلك الأيام. عندما شاهد أخيرًا خادمًا يشعر بالنعاس يحوم في الخلفية جرَّ قدميه ليصعد الدَّرج، وظل يتباطأ لبضع لحظات في الرَّدهة وأدار مقبض باب غرفة نومه بأصابعَ مترددة. شعر فجأة بالخوف الشديد عندما أدرك أن ثمةَ شخصًا ما هناك. وقف للحظة على العتبة، ثم ضحك قليلًا على نفسه مِن تخيله الأحمق. كان ذلك الشخص هو خادمه الذي كان ينتظر وصولَه بصبر.

أمره قائلًا: «يمكنك الذهاب إلى الفِراش، ديكنز.» وتابع: «لن أريدك مرةً أخرى هذه الليلة. سننطلقُ للصيد في الصباح.»

غادر الرجل في صمت، وبدأ دوميني استعداداتِه للنوم. ومع ذلك، لم يكن لديه أيُّ رغبة في النوم، وبينما كان لا يزال مرتديًا قميصَه وسرواله، لفَّ روبًا حوله، وجذب مصباح قراءة إلى جانبه، وألقى بنفسه في كرسيٍّ مريح، حاملًا في يده كتابًا. مرَّ بعضُ الوقت قبل أن يدرك أن الكتاب كان مقلوبًا، وحتى عندما صحَّح وضعَه، لم يكن للكلمات التي رآها أيُّ معنًى له. طوال الوقت كان يمرُّ أمام عينيه موكبٌ غريب من وجوه النساء — كارولين وصداقتها الحميمة التي يتخلَّلها الغزل جزئيًّا والعاطفة كليًّا؛ وستيفاني وجسدها الجذاب وعيناها المتألقتان بالعاطفة؛ وبعد ذلك، تأتي روزاموند، ماحيةً تمامًا الأخرياتِ من أفكاره وذاكرته، بكل عذوبة الحياة التي تتألق من وجهها الشغوف. رآها كما جاءت إليه أخيرًا، بتلك الصيحة الصامتة على شفتيها المرتعشتَين، والنداء الذي لا يُنسى في عينيها الناعمتين.

تلاشت كل الذِّكريات الأخرى. كانت كأن لم يكن لها وجود من قبل. نُسِيَت تمامًا تلك السنواتُ الكئيبة من المنفى في أفريقيا، والتوتر اليومي في حياته غير المستقرَّة. كان قلبه يطلب طَوال الوقت عطيةً غيرَ معروفة. شعر بأنه منغمسٌ في عالم ضعيف من أنسجة العنكبوت، لكنه أقوى من كل قوَّته التي كان يتفاخر بها. ثم شعر فجأةً بأن الجنون الذي كان قد بدأ يخاف منه قد أصابه بالفعل. كان هذا هو الشيء الذي كان يتوق إليه ولكنه كان يخافه كثيرًا — النقر الخافت، السَّحب الرقيق للوح، مدفوعًا بالفعل بزوج من الأيدي البيضاء. كانت روزاموند نفسُها هناك. أضاءت عيناها في وجهه، بطريقة غامضة ورائعة. وانفرجت شفتاها لتكشفا عن ابتسامةٍ مبهجة، ابتسامةٍ تتخللها شقاوةٌ طفولية. استدارت للحظة لتُغلق اللوح. ثم تقدَّمت نحوه رافعةً أصبعها.

قالت بهدوء: «لا أستطيع النوم.» وتابعت قائلةً: «هل تُمانع في قدومي لبضع دقائق؟»

أجاب: «بالطبع لا.» وأردف: «تعالَي واجلسي.»

استلقتْ على كرسيه المريح.

تمتمت برضًا: «فقط للحظة.» وتابعت قائلةً: «أعطني يدَيك يا عزيزي. ولكن كم هما باردتان! يجب أن تقترب أكثر من المدفأة.»

جلس على ذراع كرسيِّها، وأخذت تُداعب رأسه بيديها.

سألت: «لم تكن خائفًا إذن عندما رأيتَني أخرجُ من اللوح؟»

أكَّد لها: «لن أخاف أبدًا من أن تُلحقي بي أيَّ أذًى يا عزيزتي.»

تابعت بلهفة: «لأن كل هذه الحماقة قد اختفَت بالفعل.» وأضافت: «أعلم أنه مهما كان ما حدث لروجر المسكين، فأنت لستَ مَن قتله. حتى لو سمعتُ شبحه ينادي مرةً أخرى هذه الليلة، فلن أخاف. لا أستطيع أن أتذكَّر لماذا أردتُ أن أوذيَك يا إيفرارد. أنا متأكدة من أنني أحببتك دومًا.»

التفَّت ذراعُه برفقٍ شديد حولها. واستجابت لعناقه دون تردُّد. استراح خدُّها على كتفه، وشعر بدفءِ ذراعها من خلال روبها الأبيض المبطَّن بالفرو.

سأل بصوتٍ أجش: «لماذا إذن ما زلتِ تشكِّين في كوني زوجَكِ؟»

تنهَّدت.

وأجابت: «آه، لكنني أعلم أنك لستَ هو.» وأضافت قائلةً: «هل من الخطأ يا تُرى أن أشعر بما أشعر به تجاهك؟ أنت تُشبهه جدًّا ومع ذلك لستَ مثلَه. إنه ميت. لقد مات في أفريقيا. أليس من الغريب أنني أعرف ذلك؟ لكنني أعرف!»

همس: «ولكن مَن أنا إذن؟»

نظرت إليه بشفقة.

اعترفتْ قائلة: «لا أعرف، لكنك لطيف معي، وعندما أشعر بأنك قريبٌ مني أكون سعيدة. لم أبقَ وقتًا أطولَ في دار الرعاية لأنني أردتُ أن أراك. لا بد أن هذا يعني أنني مغرمةٌ جدًّا بك.»

سأل: «ألستِ خائفةً من أن تكوني وحدك معي هنا؟»

وضعت ذراعها الأخرى حول عنقه وجذبت وجهه لأسفل.

أكَّدت له: «أنا لستُ خائفة.» وأضافت قائلةً: «أنا سعيدة. لكن عزيزي ما الأمر؟ منذ لحظةٍ كنت تشعر بالبرد. الآن رأسك مبلَّل، ويداك ساخنتان. ألستَ سعيدًا لأنني هنا؟»

كانت شفتاها تبحثان عن شفتَيه. فقبَّلها للحظة. ثم قبَّلها على خدَّيها. تجهَّمَت قليلًا.

وقالت: «أخشى أنك لستَ مغرمًا بي حقًّا.»

سأل بصوتٍ أجش: «ألا تُصدقين أنني حقًّا إيفرارد — زوجُك؟ انظري إليَّ. ألا تشعرين أنكِ أحببتِني من قبل؟»

هزَّت رأسها بقليل من الحزن.

تنهدَت قائلة: «لا، أنت لستَ إيفرارد» وأضافت وعيناها تلمعان: «لكنك تجلب لي الحبَّ والسعادة والحياة، و...»

قبل ثوانٍ قليلة، شعر دوميني من داخله بأنه يتمنَّى حدوث زلزال، أو صاعقة، أو انهيارٍ للأرض تحت قدمَيه ليتجنبَ عذاب إلحاحها اللطيف. ومع ذلك، لم يكن يُمكن أن يخطرَ على باله شيءٌ أفظع من المقاطعة التي حدثَت بالفعل. كانت شبهَ مستلقيةٍ بين ذراعيه، ورأسها مُلقًى للخلف، تُنصت؛ وهو الآخر، مرتعبًا، تشنَّج للحظة وشعر بخوفٍ حقيقي، سمعا تلك الصرخة الرهيبة تكسرُ صمت الليل، صرخة روح رجل في عذاب، مسجون بين فكَّيْ وحش. استمعا إليها معًا حتى تلاشت أصداؤها. ثم حدث أمرٌ ربما يكون الأكثرَ إثارةً للدهشة على الإطلاق، فقد أومأت برأسها ببطء، دون اضطراب، ودون خوف.

وقالت: «كما ترى، يجب أن أعود. لن يسمحَ لي بالبقاء هنا. يجب أن يظنَّ أنك إيفرارد. أنا فقط مَن يعلم أنك لست كذلك.»

انزلقَت من الكرسي وقبَّلتْه وسارت بثباتٍ ولمست الزنبرك ومرَّت عبر اللوح. حينها استدارت ولوَّحَت له مودِّعة. لم تكن توجد أيُّ علامة على الخوف في وجهها؛ فقط خيبة أمل صامتة. انزلق اللوحُ وحجبَها. وأمسك دوميني برأسه كرجلٍ يخشى الجنون.

الفصل التاسع عشر

أعلن فجرُ اليوم التالي عن قدومه بخطٍّ رفيعٍ أحمرَ يفصل بين كتل السحب الثلجية ذاتِ اللون الرمادي المائل للأسود التي كانت لا تزال معلقةً في الأسفل ناحية الشرق. كانت الريح قد توقفَت، وكان ثمة شيءٌ مخيف في الشفق الساكن عندما انطلق دوميني من المناطق الخلفية وشقَّ طريقه عبر الثلج الذي لم يطَأْه أحدٌ من قبل واستدار إلى جانب المنزل أسفلَ نافذة روزاموند. ظهر قليلٌ من التعجُّب على شفتَيه وهو يقف هناك. فقد كانت توجد آثارُ أقدام جديدة بدءًا من الممرات المدرجة، إلى أسفل الدَّرَج، ومباشرةً عبر الحديقة إلى زاوية الغابة السوداء. لم تكن الصرخةُ خيالًا. شخصٌ ما أو شيء ما قد مرَّ من الغابة السوداء وعاد مرةً أخرى إلى هذه البقعة في الليل.

كان دوميني منفعلًا بشكلٍ غريب جرَّاء اكتشافه، وفحص آثارَ الأقدام بلهفة، ثم تبعها إلى زاوية الغابة. كانت الآثار هنا وهناك وتسبَّبَت في حيرته. لم تكن مثلَ آثار أقدام إنسانٍ ولا أي حيوان معروف. عند حافة الغابة بدا أنها تختفي في قلب كتلة كبيرة من العُلَّيق، التي كان قد تطايرَ منها الثلج هنا وهناك. لم يكن يوجد ما يُشير إلى أي طريق؛ وحتى لو كان يوجد طريق فيما مضى، فإن إهمال السنوات قد طمسَه. فقد نمَت نباتات السَّرخس، والعلَّيق، والشجيرات، والأجَمات، وتدهور حالها، لتحلَّ محلَّها أشجارٌ متشابكة أكثرُ كثافةً وذات رائحة كريهة. كانت الرياح قد أسقطت العديدَ من الأشجار، على الرغم من أنها كانت لا تزال مثمِرة، وتُركت لتتعفَّن على الأرض. كان المكان صامتًا باستثناء القطرات البطيئة للثلج المتساقط من على أوراق الشجر الذابلة. خطا خطوةً أخرى حذرةً إلى الأمام ووجد نفسه يغرق ببطء. كان الطين الأسود يخرج عبر الثلج حيث وضع قدميه.

وبالكاد تمكَّنَ من تفاديه سريعًا. وشقَّ طريقه بحذرٍ شديد، وشرع في التجوُّل على مهلٍ في الجزء الخارجي من الغابة.

تحقَّق هيجز، الحارس الصغير، بعد ساعة أو نحو ذلك، من رفِّ البنادق مرةً أخرى، ونقر على الصناديق الفارغة، واستدار نحو ميدلتون، الذي كان جالسًا على كرسي أمام المدفأة يُدخن غليونه.

وأعلن: «لا يمكنني العثور على بندقيةِ سيدي رقم اثنين، يا سيد ميدلتون.» وأردف: «إنها مفقودة.»

أمره الحارس العجوز وهو يُخرِج الغليون من فمه: «انظر مرةً أخرى يا فتى.» وأضاف قائلًا: «كان سيدي يُطلق النار بها أمس. انظر بين تلك البنادق المبعثَرة في الطرف البعيد من الرف. يجب أن تكون في مكانٍ ما هناك.»

أجاب الشابُّ بعناد: «حسنًا، ليست هناك.»

فُتِحَ باب الغرفة فجأةً، ودخل دوميني والبندقية المفقودة تحت ذراعه. نهض ميدلتون واقفًا في الحال وأنزل غليونه. أبقته المفاجأةُ صامتًا مؤقتًا.

أمره سيده: «أريدك أن تأتيَ معي للحظة.»

التقط الحارسُ قبَّعته وعصاه وتبِعه. قاده دوميني إلى حيث توقفَت الآثارُ على الحصى خارجَ نافذة روزاموند وأشار إلى الغابة السوداء.

سأل: «ما رأيك في تلك؟»

لم يتردَّد ميدلتون. وهزَّ رأسه بشدة.

«هل سمعت أيَّ شيء الليلةَ الماضية يا سيدي؟»

«كانت ثَمة صرخةٌ شيطانية تحت هذه النافذة.»

قال ميدلتون وهو يرتجفُ قليلًا: «تلك كانت روح روجر أنثانك بالتأكيد.» وأضاف قائلًا: «فعندما يخرج من تلك الغابة، يصرخ.»

أوضح سيدُه: «الأرواح لا تترك آثارًا كتلك وراءها.»

تفكَّر ميدلتون في الأمر.

وقال: «إنهم يقولون في هذه الأنحاء إن روحَ روجر أنثانك قد سيطرَ عليها نوعٌ من الحيوانات الضخمة، وأنه يأتي هنا بين الحين والآخر ليأكل.»

استفسرَ دوميني بصبر: «عن طريقِ مَن؟»

«عجبًا، عن طريق السيدة أنثانك.»

«السيدة أنثانك لم تكن في هذا المنزل لعدة أشهر. ومن اليوم الذي غادرت فيه حتى الليلة الماضية، بقدرِ ما أعلم، لم يُسمع أيُّ شيء عن هذا الشبح، أو الوحش، أو أيًّا كان.»

اعترف ميدلتون: «يبدو ذلك غريبًا بالتأكيد.»

تبِع دوميني بعينَيه مرة أخرى الآثارَ المتجهة نحو الغابة والخارجة منها.

وقال: «ميدلتون، لقد تعلمتُ شيئًا عن الأشباح. يبدو أنها لا تترك آثارًا فحسبُ، بل تحتاج إلى التغذية. ربما إذا كان الأمر كذلك، فستتأثَّر إذا أطلقنا عليها الرصاص.»

بدا الرجلُ العجوز للحظة متيبسًا ومرعوبًا.

قال وهو يشهق: «لن تُطلق عليه النار، يا سيدي؟»

أجاب دوميني: «كان يجب أن أفعل ذلك هذا الصباحَ إن سنحَت لي الفرصة.» وأضاف قائلًا: «عندما يكون الطقس أكثرَ جفافًا، سأشقُّ طريقي إلى تلك الغابة، يا ميدلتون، ومعي بندقية تحت ذراعي.»

كان الردُّ الرصين: «إذن مثلما أن الرب في الأعالي، لن تخرج أبدًا منها، يا سيدي!»

تمتم دوميني: «سنرى.» وأضاف قائلًا: «لقد تمكنتُ من اختراق بعض المناطق الغريبة في أفريقيا.»

أكَّد الرجل العجوز بإصرار: «لا يوجد مثلُ هذه الغابة في العالم، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «فجذورها فاسدةٌ من أولها لآخرها وأوراقها كلها سامة. الطيور تموت هناك على الأشجار. وتعجُّ بالزواحف والأشياء النجسة، بالإضافة إلى الفطريات الخضراء والأرجوانية، التي ترتفع عن الأرض بمقدار قدمَين، ويخرج منها سمٌّ تستنشقه مع كل نفَس. مَن يدخل تلك الغابة كمن يذهب إلى قبره بقدمَيه.»

قال دوميني بحزم: «ومع ذلك، خلال وقتٍ قصير جدًّا سأحلُّ لغز هذا الزائر الليلي.»

عادا إلى المنزل جنبًا إلى جنب. وقبل دخولهما بقليل، التفتَ دوميني إلى رفيقه.

قال: «ميدلتون، أنت تُحافظ على العادات القديمة الجيدة، على ما أظن، وتقضي نصف الساعة في مخزن «أسلحة آل دوميني» بين الحين والآخر، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل العجوز: «تقريبًا كلَّ ليلة في حياتي، يا سيدي، من الساعة الثامنة وحتى التاسعة. فأنا رجل ذو عادات منتظمة، ويبدو لي صحيحًا أنه من خلال تأدية العمل على نحوٍ صحيح ومناسب، ينال المرء راحته.»

وافق دوميني على ذلك قائلًا: «هذا صحيحٌ يا رفيقي.» وأضاف قائلًا: «في المرة القادمة التي تكون فيها هناك، لا تنسَ أن تذكر أنني سأذهبُ للتحقُّق من هذه الغابة. أود أن ينتشر هذا الخبر، هل تفهم؟»

كان الرد المتشكِّك: «سيُربك هذا الأمرُ القومَ تمامًا، لكنني سأُخبرهم، يا سيدي. وسيكون ثمة القليل من الحديث بشأنه، يمكنني أن أَعِدَك بذلك.»

سلَّم دوميني بندقيته، وذهب إلى غرفته، واستحمَّ وبدَّل ملابسه، ونزل لتناول الإفطار. ساد صمتٌ مفاجئ عند دخوله، وهو أمرٌ فهمه جيدًا. بدأ الجميعُ يتحدثون عن احتمالية صيد اليوم. وأعدَّ دوميني لنفسه مشروبًا من الخِزانة وجلس على الطاولة.

وقال: «آمُل أن ما حدث مؤخرًا من الأشباح لم يُزعج أحدًا.»

علَّق الوزير باهتمام: «يبدو أننا جميعًا سمعنا الشيءَ نفسَه، صرخة غريبة مروِّعة للغاية. لقد انضممتُ مؤخرًا إلى كل جمعية مرتبطة بالأشباح وأجد أن دراستها أمرٌ رائع.»

علَّق دوميني، وهو يُعد لنفسه القهوة: «إذا أردتَ التحقُّق من الأمر، يمكنك إخراجُ مسدس والتجوُّل معي في إحدى الليالي. فمنذ أن كنتُ طفلًا، قبل أن أذهب إلى إيتون، وحتى عندما غادرت إلى أفريقيا، كان لدينا سلسلةٌ من الأشباح حسَنة السلوك ومحترمة للغاية، كانت تُنسب للعائلة، وكنا إلى حدٍّ ما فَخورين بها. ولكن هذا الشبح الأخير خارجٌ تمامًا عن حدود السلوك المألوف.»

سأل السيد واتسون باهتمام: «هل له تاريخ؟»

أجاب دوميني: «لقد علمتُ أنه روح مدير مدرسةٍ عاش هنا ذاتَ يوم، ومن المفترض أنني مسئول عن رحيله عن العالم. مثلُ هذا الشبح لا يجلب فخرًا ولا راحةً للعائلة.»

تحدَّث مضيفهم بمثلِ هذا الغياب المطلق للعاطفة، لدرجةِ أن الجميع شعروا بترددٍ غريب في التخلي عن موضوعٍ مليءٍ بهذه الاحتمالات الرائعة. ومع ذلك، كان تيرنيلوف هو الوحيدَ الذي قدَّم اقتراحًا.

وقال: «يمكننا أن نذهب للصيد في الغابة.»

قال لهم دوميني: «لستُ متأكدًا من أن طبيعة الغابة ليست أكثرَ إثارةً للاهتمام من الشبح الذي من المفترض أنه يسكن فيها. هل تتذكَّر مدى رعبِ مثيري الطرائد بالأمس من مجردِ اقتراح دخولها؟ لقد اعتُبِرت دنسةً مدةَ أجيال. إنها بالتأكيد غير آمنةٍ للغاية. لقد ذقتُ الأَمَرَّين حتى وصلتُ إلى حدودها هذا الصباح. هلا نقول العاشرة والنصف في غرفة الأسلحة؟»

تبِع سيمان مضيفه خارج الغرفة.

وقال: «صديقي، يجب ألا تسمحَ لهذه الظروف المحلية بأن تشغل نصيبًا كبيرًا من أفكارك. صحيحٌ أن هذه هي أيامُ استرخائك. ولكن ما زال لديك الأميرةُ لتُفكر بشأنها. ففي نهاية الأمر، نحن تحتَ رحمتها. همسة صغيرة في داوننج ستريت، وسنشهد كارثة!»

أمسك دوميني بذراع صديقه.

وردَّ قائلًا: «اسمع، يا سيمان، من السهل جدًّا قول إنه يجب أخذُ الأميرة في الاعتبار، لكن هل يمكنك أن تخبرني ما الذي يمكنني فعلُه أكثرَ من ذلك لجعلِها ترى الوضع؟ تتطلب الضرورةُ أنني يجب أن أكون في أفضل حال مع الليدي دوميني، وألا أظهر مع الأميرة بأيِّ شكل من الأشكال.»

قال سيمان بتفكُّر: «لستُ متأكدًا من أن الطريقة التي تتعامل بها مع الليدي دوميني تهمُّ كثيرًا أيَّ شخص. وفيما يتعلَّق بالأميرة، فهي شخصيةٌ مندفعة وعاطفية، لكنها أيضًا سيدة عظيمة ودبلوماسية. لا أرى أيَّ سبب يمنعُك من الزواج منها سرًّا في لندن، باسم إيفرارد دوميني، وتَكرار المراسم باسمك الحقيقي لاحقًا.»

كانا قد توقَّفا ليُشعلا سجائر، كانت معروضةً في عُلبة سيجار على طاولة مستديرة في القاعة. انتظر دوميني لحظةً قبل أن يُجيب.

وسأل: «هل أفْضَت إليك الأميرةُ بأن هذه رغبتها؟»

اعترف سيمان: «شيء من هذا القبيل.» وأضاف قائلًا: «لكنها تتمنَّى أن يأتيَ الاقتراح منك.»

«وبِمَ تنصحني؟»

نفخ سيمان سحابةً صغيرة من دخان السيجار.

واعترف قائلًا: «صديقي، أنا خائف قليلًا من الأميرة. لن أطرحَ عليك أي أسئلة بخصوص مشاعرك تجاهها. أعتبره أمرًا مسلَّمًا به أن من واجبك بوصفك رجلًا شريفًا أن تتقدَّم لطلب يدِها للزواج، عاجلًا أم آجلًا. ولا أرى أيَّ ضرر في استباق الأمور بضعة أشهر، إذا كان هذا يعني أنه يمكننا تهدئتها. سوف يُرتِّب تيرنيلوف ذلك في السفارة. إنه مخلِص لها، وسيُقوِّي ذلك مكانتك عنده.»

استدار دوميني بعيدًا نحو الدَّرج.

وقال بحزن: «سنناقش هذا مرةً أخرى قبل أن نغادر.»

سمحَت الخادمة على الفور بدخول دوميني غرفةَ جلوس زوجته. كانت روزاموند، مرتديةً روبًا صباحيًّا ساحرًا باللون الأزرق الفاتح المبطَّن بالفِرَاء الرمادي، قد انتهت لتوها من الإفطار. مدَّت يدَيها إليه بصيحة ترحيب خفيفة مبتهجة.

وصاحت: «كم من اللطف منك أن تأتي، يا إيفرارد!» وأضافت قائلةً: «كنتُ أتمنى أن أراك للحظة قبل أن تغادر.»

رفع أصابعها إلى شفتَيه وجلس بجانبها. بدَت مسرورةً للغاية بحضوره، وشعر بشكلٍ غريزي أنها لم تتأثر على الإطلاق بما حدث في الليلة السابقة.

استفسَر: «هل نمتِ جيدًا؟»

أجابت: «تمامًا.»

تحدَّث عن الموضوع بشجاعة، حيث كان قد اتخذ قراره باغتنامِ كلِّ فرصة.

«ألا تسهرينَ تُفكرين في زائرنا الليلي، إذن؟»

«ولا للحظة واحدة. كما ترى»، تابعت قائلةً: «إذا كنتَ حقًّا إيفرارد، يمكن أن أخاف؛ لأنه في يوم ما أو في آخر، أشعر أنه إذا جاء إيفرارد إلى هنا، فإن روح روجر أنثانك ستؤذيه.»

سأل: «لماذا؟»

واصلَت حديثها: «أنت لا عِلم لك بهذه الأمور بالطبع، لكن روجر أنثانك كان يُحبني، على الرغم من أنني نادرًا ما تحدثتُ إليه، قبل أن أتزوجَ إيفرارد. أظن أنني أخبرتك عن ذلك أمس، أليس كذلك؟ بعد أن تزوجتُ، كاد الرجل المسكين أن يفقد عقلَه. لقد تخلَّى عن عمله واعتاد أن يتردَّد كثيرًا على الحديقة هنا. وفي إحدى الأمسيات أمسكَه إيفرارد وتقاتلا، ولم يُشاهَد روجر أنثانك مرةً أخرى مطلقًا. أظن أن أيَّ شخص في هذه الأنحاء سيُخبرك» واصلَت، وهي تخفض صوتها قليلًا: «أنَّ إيفرارد قتل روجر وألقاه في أحد تلك المستنقعات بالقرب من الغابة السوداء، حيث تغرق الجثةُ ولا تُرى مرةً أخرى.»

أعلن دوميني: «لا أعتقد أنه فعل أيَّ شيء من هذا القبيل.»

ردَّت بتشكُّك: «أوه، لا أعرف.» وأضافت قائلةً: «كان إيفرارد ذا طبْعٍ حادٍّ، وفي تلك الليلة عاد إلى المنزل مغطًّى بالدماء، وبدا ... فظيعًا! كانت تلك الليلة التي مَرِضتُ فيها.»

قال بإصرار: «حسنًا، لا مزيد من المآسي.» وأردف قائلًا: «لقد جئتُ لتذكيرك بأنَّ لدينا ضيوفًا هنا. متى ستأتين لرؤيتهم؟»

ضحكت مثل الأطفال.

وصرَّحت قائلة: «أنت تقول «لدينا» كما لو كنتَ حقًّا زوجي.»

حذَّرها: «يجب ألا تُخبري أيَّ شخص آخر عن تصورك هذا.»

رضَخَت في الحال.

وأكدَت له: «أوه، أنا أفهم تمامًا.» وأضافت قائلةً: «سأكون حذرةً جدًّا جدًّا. فلديك، يا إيفرارد، ضيوف أذكياء، ليسوا على الإطلاق مثلَ الأشخاص الذين كان من الممكن أن يستقبلهم إيفرارد زوجي هنا، وقد غِبتُ عن العالم مدة طويلة، وأخشى أنني لن أستطيع التحدث معهم. الممرضة أليس منبهرةٌ للغاية. أنا متأكدة من أنني سأشعر بالرعب من الجلوس على رأس الطاولة، وستكره كارولين ألا تعود المضيفة. دعني أنزلْ في وقت تناول الشاي وبعد العشاء، وأنغمس في الأمور تدريجيًّا. يُمكنك بسهولة أن تقول إنني ما زلت مريضة، رغم أنني بالطبع لستُ كذلك على الإطلاق.»

وعدَها وهو ينصرف: «يمكنك فعْل ما تودين فعله.»

عندما دخل أفراد مجموعة الصيد القاعةَ بعد ظهر ذلك اليوم، مرهَقين بعض الشيء، ولكن كلهم نشوة وفرح بصيد اليوم، وجَدوا خلف المائدة المستديرة الرائعة التي وُضِع الشاي عليها، امرأةً تجلس في زاوية من الغرفة، شاحبةً إلى حدٍّ ما، ولكن ملامحها طفوليةٌ ورائعة بشكل غير عادي، ذات عيون كبيرة حلوة تبدو وكأنها تتوسَّل من أجل حمايتهم وتعاطفهم عندما نهضت واقفة بتردُّد. بعد لحظة كان دوميني إلى جانبها، وكلماته الأولى لتقديمها جلبَت الجميعَ حولها. لم تتحدَّث كثيرًا، لكن ما قالته كان طبيعيًّا ولطيفًا على نحوٍ مبهج.

قالت لكارولين: «لقد كان لطفًا منكِ مساعدةُ زوجي في الترفيهِ عن ضيوفه. أنا الآن أفضل بكثير، لكني كنتُ مريضة مدةً طويلة، لدرجةِ أنني نسيتُ الكثير من الأشياء، وأظن أنني سأكون مضيفةً سيئة للغاية. لكني أريد أن أصنع الشاي من أجلكِ، من فضلكِ، وأريدكم جميعًا أن تُخبروني عن عدد طيور الدُّرَّاج التي أردَيتُموها.»

جلس تيرنيلوف على الأريكة بجانبها.

وقال: «سأُساعدك في هذه المهمة المعقَّدة.» وتابع قائلًا: «أنا متأكدٌ من أن ملقط السكر هذا ثقيلٌ جدًّا، ولا يمكنك استخدامه بمفردك.»

ضحكت بمرح.

وأكدَت له: «لكنني لستُ رقيقةً على الإطلاق.» وتابعت: «لقد عانيتُ مرضًا سيئًا للغاية، لكنني أصبحت قوية مرة أخرى.»

قال: «إذن سأجد عذرًا آخرَ للجلوس هنا.» وأردف قائلًا: «سأخبركِ كلَّ شيء عن طيور الدُّرَّاج التي أرْداها زوجُكِ وهي تُحلِّق عاليًا، وعن الطائر الذي أسقطَه بعد أن أخطأْناه جميعًا.»

وافقَت: «سأحبُّ أن أسمع عن ذلك.» وتابعت قائلةً: «كم ملْعقةَ سكَّر، من فضلك، وهلا تمرر هذه الفطائر الساخنة للأميرة؟ وهلا تقرع ذلك الجرس. أريد المزيد من الماء الساخن. أتوقَّع أن يكون الجميعُ عطشى جدًّا. أنا سعيدة لوجودي هنا معكم.»

الفصل العشرون

تسلَّق الأمير تيرنيلوف ومضيفُه، متأبطًا كلٌّ منهما ذراعَ الآخر، المنحدرَ المغطَّى بالثلوج في الجزء الخلفي من مزرعةِ شجرٍ طويلة، نحو العِصيِّ الصغيرة ذات الأعلام التي تُشير إلى مكان وقوفهم. لم يكن يوجد إنسانٌ على مرمى البصر؛ لأن بقية الصيادين اختاروا طريقًا أكثرَ انحدارًا، ولكنْ أقل التواءً إلى حدٍّ ما.

قال السفير: «فون راجاشتين، سأمنح نفسي رفاهيةَ مناداتك باسمك. أنت تعرف نقطة ضعفي الوحيدة، وهي نقطةُ ضعف كادت تُخرجني من الدبلوماسية في أيام شبابي. أكرهُ التجسس بكل أشكاله وصورِه حتى عند الضرورة. وفيما يتعلَّق بك، يا صديقي» تابع قائلًا: «أظن أن موقفك سخيف. ولقد أرسلتُ تقريرًا خاصًّا إلى بوتسدام، أعربتُ فيه عن هذا الرأي.»

علَّق دوميني قائلًا: «حتى الآن، لم أُثْقَل بالعمل.»

تابع الأمير: «صديقي العزيز، لم تُثْقَل بالعمل لأنه لم يكن ثَمة عملٌ شرعي لتقوم به. ولن يكون ثمة شيءٌ من هذا القبيل. لا يمكن أن توجد أيُّ ميزة محتملة من جهودك هنا تُعوِّض عن التأثير السيئ للغاية الذي سيُحدثه اكتشافُ اسمك الحقيقي ومنصبك في مجلس الوزراء الإنجليزي.»

توسَّل دوميني قائلًا: «يجب أن أطلب منك أن تتذكَّر أنني هنا بصفتي خادمًا مخلِصًا إخلاصًا أعمى للوطن. أنا ببساطة أطيع الأوامر.»

وافق الأميرُ قائلًا: «سأوافق على ذلك عن طيب خاطر.» وأضاف قائلًا: «فقط دَعني أتابعْ حديثي. أنا الآن في نهاية سنَتي الأولى في هذا البلد. وأشعر أنني قادرٌ على تهنئة نفسي على تحقيق قدرٍ معيَّن من النجاح. من ناحية أعضاء مجلس الوزراء الذين كان عليَّ أن أتعامل معهم، لم أتلقَّ سوى التشجيعِ على جهودي لتعزيزِ تفاهمٍ أفضلَ بين بلدَينا.»

وافق دوميني قائلًا: «الأجواء تبدو بالتأكيد صافيةً بما فيه الكفاية الآن.»

قال الأمير بشكلٍ قاطع: «لقد أقنعت نفسي بأنه توجد رغبة حقيقية وراسخة في السلام مع ألمانيا في داوننج ستريت. وفي كل مناقشة أجريتها، وفي كل امتيازٍ طلبته، قوبلت برغبةٍ صادقة في تعزيز الصداقة المتنامية بين بلدَينا. أنا فخورٌ بعملي هنا، يا فون راجاشتين. أعتقد أنني جعلتُ ألمانيا وإنجلترا أقربَ مما كانتا عليه منذ أيام حرب البوير.»

سأل دوميني: «هل أنت متأكِّد، يا سيدي، من أنك لا تخلط بين الشعبية الشخصية والمشاعر القومية؟»

أجاب السفير بجِدِّية: «أنا متأكدٌ من ذلك.» وأضاف قائلًا: «فتلك الشعبية التي ربما أكون قد حقَّقتها هنا كانت راجعةً إلى تقديري للحالةِ الأكثرِ ازدهارًا للسياسة العالمية الموجودة الآن. لقد كان من دواعي سروري البالغِ أن أسجِّل نتيجةَ عملي في مذكراتٍ بخطِّ يدي، وفي يوم من الأيام، عندما يتمُّ ترسيخ السلام بين بلدينا، سأعمل على نشرها. وقد سجَّلت فيها أدلةً على المشاعر الحقيقيةِ المؤيدةِ للسلام التي وجدتُها بين أعضاء مجلس الوزراء الحالي.»

قال دوميني: «إنه لشرفٌ هائل أن أحصل على جلسةٍ خاصة لقراءة هذه المذكرات.»

كان الردُّ اللطيف: «يمكن ترتيب ذلك.» وأضاف قائلًا: «في الوقت الراهن، يا فون راجاشتين، أريدك أن تُعيد النظر في موقفك هنا.»

كرَّر دوميني: «موقفي ليس طوعَ إرادتي.» وأضاف قائلًا: «فأنا أتصرفُ بموجب أوامر.»

رضخَ الآخرُ قائلًا: «بالضبط، ولكن الأمور قد تغيرت كثيرًا خلال الأشهر الستةِ الماضية. حتى مع المخاطرة بإهانة فرنسا، تُظْهِر إنجلترا مرونةً رائعة فيما يتعلَّق بمطالبنا في المغرب. لقد اختفى الآن كلُّ احتمال للخلاف بين بلدَينا بشأن أيِّ مسألة حيوية.»

قال دوميني بتمعُّن: «إلا إذا جاءت الرغبة في الحرب من بوتسدام وليس من داونينج ستريت.»

صرَّح تيرنيلوف بصرامة: «نحن نخدم سيدًا شريفًا، وقد أفصح لي عن نواياه. إنه يريد السلام والانتصارات العظيمة التي تستحقُّها بلدنا بالفعل بسبب تفوُّقها في الصناعة والتجارة، والشخصيةِ والعبقرية. هذه هي الأسلحة التي ستجعل ألمانيا أعظمَ قوةٍ في العالم. ما من إمبراطوريةٍ شقَّت طريقها إلى المجد الدائم بالسيفِ وحدَه. ها قد وصلنا إلى مواقعنا،

كما أرى. تعالَ إليَّ بعد انتهاءِ هذه الرحلة، يا مضيفي. كل ما قلتُه حتى الآن كان على سبيل التمهيد.»

أصبح الطقس أكثرَ جفافًا، وكان الثلج هشًّا، ووصلَت مجموعة صغيرة من النساء من القصر إلى الصيادين قبل أن يعبر مثيرو الطرائد الغابة. أخذت كلٌّ من كارولين وستيفاني مكانَهما بجانب دوميني. وبعد بضع دقائق انتقلَت كارولين إلى موقع تيرنيلوف. وأصبح ستيفاني ودوميني بمفردهما لأول مرة منذ مقابلتهما العاصفةِ في المكتبة.

سألته على نحوٍ مفاجئ بعضَ الشيء: «هل تحدَّث موريس معك؟»

اعترف دوميني: «في الحقيقة سعادته وأنا كنا في خضمِّ محادثة مثيرة للاهتمام للغاية.»

«هل تحدَّث معك عني؟»

«لم يُذكَر اسمُكِ.»

تجهَّمَت قليلًا. كانت تبدو مذهلةً في معطفِها الرائع من الفرو وقبَّعتها الروسية مع وجودِ الثلج في الخلفية.

كرَّرت بسخرية: «محادثة مثيرةٌ للاهتمام لم يُذكَر فيها اسمي!»

أكَّد لها دوميني: «أظن أنه كان سيتحدَّث عنكِ بعد وقت طويل جدًّا.» وأضاف قائلًا: «فقد حذَّرني سعادته من أن كلَّ ما قاله حتى الآن كان مجردَ مقدمةٍ لمسألة ذات أهمية أكبر.»

ابتسمَت ستيفاني.

وتمتمَت: «عزيزي موريس دبلوماسي للغاية.» وأضافت قائلةً: «أنا متأكدةٌ تمامًا من أنه سيبدأ بالاعتراض على معاملتك الصادمةِ لي.»

قاطع الصيدُ محادثتهم بضعَ دقائق. دعا دوميني ميدلتون الوفيَّ إلى جانبه للحصول على مزيدٍ من الخراطيش. انتظرت ستيفاني حتى خروج مُثيري الطرائد أخيرًا من الغابة.

وعادت مرةً أخرى إلى محادثتهما قائلةً: «صادمة هي أخفُّ كلمةٍ في مفرداتي يمكن أن أصفَ بها معاملتك لي. بصراحة، يا ليوبولد، أشعر أنني مجروحةٌ من الداخل. وكبريائي مُهان.»

ردَّ دوميني بإصرار: «هذا لأنكِ تنظرين إلى الأمر من وجهة نظر أنثويةٍ فقط».

أجابت بنبرةٍ منخفضة: «وأنت، يا مَن كنت في يوم من الأيام أكثرَ المحبين ولعًا وشغفًا، الآن تنظر إلى الأمر من وجهةِ نظر سياسيةٍ فقط. أنت تفكِّر كثيرًا في بلدك، يا ليوبولد. أليس لي أيُّ حقوق عليك؟»

قال مُصرًّا: «على إيفرارد دوميني، لا شيء.» وأردف قائلًا: «عندما يحينُ الوقت، ويُمكن لليوبولد فون راجاشتين أن يطالب بكلِّ ما هو من حقه، صدِّقيني، لن يكون لديك سببٌ للشكوى من جفاف معاملتي معكِ أو تجاهُلي إياكِ. لن يكون لديه سوى فكرةٍ واحدة، وأمل واحدٍ فقط، وهو إنهاء عذاب سنوات الانفصال هذه بأسرعِ ما يمكن.»

اختفت نظرةُ التوتر من على وجهها. وأصبحت نبرةُ صوتها طبيعيةً أكثر.

ناشدته قائلةً: «لكن يا عزيزي، لا داعي للانتظار. فجلالته يمنحُك الإذن. زعيمك السياسي سيكون أكثرَ من مؤيد للأمر.»

أجاب دوميني: «أنا في موقفٍ لا أُحسَد عليه، وصدِّقيني أنا أعرف ما الأفضلُ والأكثر أمانًا. لا أستطيع أن أعيش حياةَ رجلَين وأحتفظ بوجهٍ ثابت أمام العالم. ومع ذلك، لم يتحدث الأمير معي بعدُ. سأستمع إلى ما سيقوله.»

استدارت ستيفاني بقليلٍ من الغطرسة.

وصاحت: «أنت تجعلُني أبدو كأنني أتوسَّل!» وتابعت قائلةً: «يجب أن نتوصل إلى اتفاق الليلة.»

انتقلت المجموعة الصغيرة معًا إلى ساترٍ آخر. كانت روزاموند قد انضمت إليهم وتشبَّثَت بذراع دوميني بفرح. وتسبَّب المشي السريع عبرَ الحديقة في تورُّدِ خدَّيها. وسارت برشاقةٍ تدلُّ على كامل الانطلاق والنشاط لامرأةٍ في صحةٍ جيدة. وبقليلٍ من الإثارة النابعة من مشاعرَ متشابكةٍ وجد دوميني نفسَه يُراقبها، حين تخلفَت عنه في وقتٍ لاحق لتقفَ إلى جانب تيرنيلوف. شعر بلمسة على ذراعه. توقَّفت ستيفاني، التي كانت تسير مع مجموعةٍ أخرى من الصيادين، لتهمسَ في أذنه:

«قد يكون هناك خطرٌ أكبر — خطر لم يُدركه حتى عقلك الحذِر — في المبالغة في لعبِ دورك!»

استولت كارولين على انتباهِ دوميني أثناء سَيرهما إلى مكان التوقُّف التالي. وقفت عند عصًا للرماية بجانبه وبدأت في توبيخه بشدَّة.

قالت: «عزيزي إيفرارد، أنت واحدٌ من أروع الأمثلة التي قابلتها على الإطلاق للرجال العديمي الأخلاق الذين انصلحَ حالهم! علاوةً على ذلك أصبحت مهذبًا. بحقِّ السماء، لا تُخيب أملنا جميعًا!»

علَّق دوميني بقليل من الحزن: «يبدو أنني أُحسنُ ذلك إلى حدٍّ ما.»

سألت: «حسنًا، أنت المسئول عن أفعالك، أليس كذلك؟» وتابعت قائلةً: «ما أريد قولَه بكلمات واضحة هو: لا تتصرَّف بحماقة مع ستيفاني.»

«ليس لديَّ أدنى نيةٍ للقيام بأي شيء من هذا القبيل.»

«حسنًا، هي لديها! أنصِت إلى ما أقول، يا إيفرارد، أنا أعرف تلك المرأة. إنها ذكيةٌ ورائعة وبها كلُّ الصفات الأخرى التي تُحبُّها، لكن لسببٍ أو لآخرَ هي عازمة على الحصول عليك. فهي تنظر إلى روزاموند الصغيرة العزيزة وكأنها ليس لها الحقُّ في الوجود. لا تشعر بالأسف على نفسك. لا بد أنك قد شجَّعتها.»

كان دوميني صامتًا. لحسنِ الحظ، تطلبت مقتضيات الدقائق القليلة التالية ذلك. انتظرت ابنة عمه بصبرٍ نافدٍ حتى توقَّف إطلاقُ النار.

«الآن دعني أسمعْ ما لديك لتقولَه دفاعًا عن نفسك، يا سيدي؟ بقدرِ ما أستطيع أن أرى، لقد كنت لطيفًا جدًّا مع زوجتك، وهي تعشقك. إذا كنتَ تريد إقامة علاقة غرامية مع الأميرة، فلا تبدَأْها هنا. ستمرضُ زوجتك مرةً أخرى إذا جعلتَها تغار.»

«عزيزتي كارولين، لن يكون بيني وبين ستيفاني أيُّ علاقة. يمكنك أن تطمئنِّي وتكوني متأكدةً من ذلك.»

واصلت كارولين: «هل تقصد أن تقول إن هذا كلَّه من جانبها هي، إذن؟»

أجاب: «أنتِ تُبالغين في وصف سلوكها، ولكن حتى لو كان ما تُلمِّحين إليه صحيحًا ...»

قاطعته: «أوه، لا أريد الكثيرَ من الاعتراضات!» وتابعت قائلةً: «أنا لا أقول إنك تُشجعها كثيرًا؛ لأنني لا أعتقد أنك تفعل ذلك. كلُّ ما أريد أن أشيرَ إليه هو أنه بعد أن استعادت زوجتُك حقًّا كاملَ صحتها تقريبًا، يجب أن تكون حذرًا بشكلٍ غير عادي وفائق. إذا كنت تريد التحدثَ بأي هُراء مع ستيفاني، فافعلْ ذلك في ساحة بلجريف.»

كان دوميني يُراقب حركةَ السقوط الدائرية لأحد طيور الدُّرَّاج. ومد يدَه اليسرى باتجاه حقيبة الخراطيش التي كانت كارولين تحملها. وقبض على أصابعها للحظةٍ قبل أن يأخذ خراطيشَ.

قال: «أنتِ عزيزة على نفسي.» وأردف قائلًا: «لن أفعل أيَّ شيء يؤذي روزاموند مهما حدث.»

قالت: «إذا كنت لا تستطيع التخلصَ من حِيَلك القديمة تمامًا ولا بد أن تُغازل، حسنًا، ستجدني بالجوار. وروزاموند لن تُمانع مغازلتك لي؛ لأنه يوجد القليل من الشعرات

الرمادية في شعري الأصفر. وها هو ذا خادمك آتٍ عبر الحديقة؛ يبدو كما لو كان يحمل رسالةً لك. ما دام لم يحدث شيء لطبَّاخك، أشعر أنني قد أواجه الأخبارَ السيئة بثبات.»

وجد دوميني نفسَه يُراقب بعينين ثابتتين اقترابَ خادمه ذا الوجه الحزين عبر الثلج. لم يكن باركنز يرتدي زيًّا مناسبًا لهذه المهمة، ولم يبدُ أنه كان يستمتع بها بأيِّ شكل من الأشكال. كان يسير بصرامةٍ لتأدية واجبٍ ما، والغريب أن دوميني شعر منذ اللحظةِ التي رآه فيها أنه كان بشكلٍ أو بآخر مبعوثًا من الأقدار. ومع ذلك، فإن الرسالة التي سلَّمها له، عندما وصل أخيرًا إلى جانب سيده، لم تكن مثيرةً للقلق بأيِّ حال من الأحوال.

أفاد قائلًا: «لقد وصل شخصٌ اسمه ميلر إلى هنا، يا سيدي، من نورويتش. وهو، كما أفهم، أجنبيٌّ أو ما شابه، وقد جاء مؤخرًا إلى هذا البلد. لقد وجدتُ صعوبة في فَهمه بعضَ الشيء، لكن خادمة سموِّها تحدثَت معه باللغة الألمانية، وقد فهمت أنه إما هو طبيب يُدعى شميدت كنت تعرفه في أفريقيا أو أنه يوصل لك رسالةً منه.»

انطلقت صافرةُ التحذير في تلك اللحظة، واستدار دوميني ووقف منتبهًا. كان سلوكه طبيعيًّا تمامًا. سمح لدجاجةٍ من طيور الدُّرَّاج بالمرور فوق رأسه، وأسقط ديكًا من مسافة قريبة جدًّا. أعاد حشو بندقيته قبل أن يلتفت إلى باركنز.

وقال: «هل هذا الشخص في عجَلة من أمره؟»

أجاب الرجل: «على الإطلاق يا سيدي.» وأردف قائلًا: «أخبرتُه أنك لن تعودَ حتى الساعةِ الثالثة أو الرابعة، وهو ينتظر برضًا تام.»

أومأ دوميني.

أمره قائلًا: «اعتنِ به بنفسك إذن، باركنز.» وتابع قائلًا: «لن نصطادَ حتى وقتٍ متأخر اليوم. على الأرجح سأرسلُ السيد سيمان للتحدث معه.»

رفع الرجل قبَّعته باحترام وعاد نحو المنزل. كانت كارولين تُراقب رفيقها بفضول.

سألَت: «هل يبحث عنك العديدُ من معارفك في أفريقيا يا إيفرارد؟»

أجاب دوميني وهو ينظر من خلال فوهتَي بندقيته: «باستثناء سيمان، الذي لا يُحتَسَب حقًّا لأننا جئنا معًا، هذا أولُ زائر لي من أرض الثروة. ومع ذلك، أتوقَّع أنه سيكون ثمة الكثيرُ منهم قريبًا. فالمستعمرون لديهم عادةٌ رائعة تتمثل في تشبُّث بعضهم ببعض.»

الفصل الحادي والعشرون

لم يكن يوجد ما يثير القلق على الإطلاق بشأن ظهور السيد لودفيج ميلر. لقد كان مستمتعًا بشكل جيدٍ للغاية في غرفة الجلوس الخاصة بكبير الخدم وكان يتصرَّف كأنه يستحقُّ بشكل كامل الضيافةَ التي قُدِّمَت له. نهض واقفًا عندما دخل دوميني ووقف في وضع انتباه. بغضِّ النظر عن بعض الدلائل الطفيفة على التدريب العسكري، كان من الممكن أن يُعامَل في أي مكان باعتباره تاجرًا متقاعدًا محترمًا للغاية.

سأل: «هل أنت السير إيفرارد دوميني؟»

أومأ دوميني بالموافقة. وقال: «هذا اسمي. هل رأيتُك من قبل؟»

هزَّ الرجل رأسه نفيًا. «أنا ابنُ عم الدكتور شميدت. لقد وصلت إلى المستعمرة من روديسيا، بعد أن غادر سعادتكم.»

«وكيف حال الطبيب؟»

كان الرد: «ابن عمي، كما هو الحال دائمًا، مشغولٌ ولكن بصحةٍ ممتازة.» وتابع قائلًا: «إنه يُرسل تحياته المتسمةَ بالاحترام وتمنياته الطيبة. وأيضًا هذه الرسالة.»

أخرج الرجل بكلِّ ثقة مظروفًا كُتِبَ عليه:

إلى البارون السير إيفرارد دوميني،
قصر دوميني،
في مقاطعة نورفولك،
إنجلترا.

فضَّ دوميني الخَتْم لحظة دخول سيمان.

قال: «جاء رسولٌ من دكتور شميدت، أحد معارفي في شرق أفريقيا.» وأوضح لزائره: «عاد السيد سيمان معي إلى الوطن من جنوب أفريقيا.»

نظر الرجلان بثباتٍ أحدهما في عينَي الآخر. وراقبهما دوميني منبهرًا. فلم يرفَّ لأيٍّ منهما جَفن. ومع ذلك شعر دوميني، الذي كانت قدراته الإدراكية في أوج نشاطها في هذه اللحظة التي أنبأتْه غريزتُه بأنها نقطة تحوُّل، بأنهما قد تعرَّف أحدهما على الآخر دون أن يُفصحا عن ذلك. قيلت ملاحظةٌ مألوفة وقوبلت بردِّها. قرأ دوميني الأسطر القليلة التي بدَت وكأنها أعادته للحظة إلى عالم آخر:

سيدي المحترم

«أبعث لك بتحياتي القلبية. بشأن التقدُّم المحرَز في كل الأمور هنا ستعرف من مصدر آخر.

أوصيكم بابن عمي، حاملِ هذه الرسالة — السيد لودفيج ميلر. فهو سيعرض عليك بعضَ الملابسات التي من المستحسَن أن تكون على علم بها. يمكنك التحدُّث معه بحرية. إنه محلُّ ثقة من جميع النواحي.»

كارل شميدت (التوقيع)

علَّق دوميني، وهو ينقل الرسالة إلى سيمان: «ابن عمك غامضٌ بعض الشيء. حسنًا، ماذا عن هذه الملابسات؟»

ألقى لودفيج ميلر نظرةً في أرجاء الغرفة الصغيرة ثم نظر إلى سيمان. تظاهر دوميني بأنه قد أساء فَهم تردُّدِه.

وأوضح: «صديقنا هنا يعرف كل شيء.» وتابع قائلًا: «يمكنك التحدثُ أمامه.»

بدأ الرجل حديثه بطريقة شخصٍ لديه قصة يرويها.

قال: «مهمتي هنا هي أن أُحذِّرك من أن الرجل الإنجليزي الذي تركتَه ليموت في بيج بيند، على ضِفاف النهر الأزرق، قد سُمع خبر عنه في جزء آخر من أفريقيا.»

هزَّ دوميني رأسه في شك. «آمُل ألا تكون قد قطعت كلَّ هذا الطريق لتُخبرني بذلك! لقد مات هذا الرجل.»

تابع ميلر: «كان من الصعب إقناعُ ابن عمي نفسِه. غادر الرجل معسكرَه ومعه ما يكفي من الويسكي لقتلِه، وما يكفي من العطش لشُربه كله، ومن دون طعام.»

وافق دوميني قائلًا: «وعندها وجدته يهذي وحده بعدما هجَره صِبيانه. وكان إسكاته إلى الأبد مهمةً في غاية السهولة.»

واصل الآخر حديثَه: «ومع ذلك، لم تُنْجَز المهمة.» وتابع قائلًا: «سُمع خبرٌ عنه من ثلاثة أماكن في المستعمرة، وهو يُكافح ليشقَّ طريقه إلى الساحل.»

سأل دوميني: «هل يُطلق على نفسه اسمه؟»

اعترف ميلر: «لا.» وتابع قائلًا: «ومع ذلك، طلب مني ابنُ عمي أن أوضِّح لك حقيقة أنه على أي حال ربما يخجل من فعل ذلك. فهو يتصرف بطريقةٍ سخيفة، وفي حالة ضعف شديد؛ ولا شك في أنه أصبح مجنونًا إلى حدٍّ ما. ومع ذلك، تبقى الحقيقة متمثلة في أنه موجود في المستعمرة، أو كان هناك قبل ثلاثة أشهر، وأنه إذا نجح في الوصول إلى الساحل، فقد تُفاجَأ في أي وقت بزيارة منه هنا. لقد أُرسلتُ لتحذيرك من أجل اتخاذ أيِّ خطوات قد تكون ضروريةً وألَّا تكون في وضعٍ غير مُوات إذا ظهر.»

قال سيمان بتفكير: «هذه أخبارٌ غريبة يا ميلر.»

أجاب الرجل: «إنها أخبار أزعجَت الدكتور شميدت بشدة. لقد أحضرَ السكانَ الأصليين واحدًا تِلو الآخر لاستجوابهم. وكانت روايتهم جميعًا واحدة.»

تابع سيمان: «إذا صدَّقنا هذا، فقد يأتي هذا الأوروبي الآخر إلى هنا في أي لحظة، إذا كان لديه ما يُهمه في هذا الاتجاه.»

«أنا هنا لتحذيركم من هذا الاحتمال.»

سأل سيمان: «ما مدى معرفتك الشخصية بالملابسات القائمة؟»

هزَّ الرجل رأسه بغموض.

وأقرَّ قائلًا: «لا أعرف شيئًا. لقد ذهبت إلى شرق أفريقيا منذ بضع سنوات، وكنت تاجرًا بسيطًا في موزمبيق. كنت أزوِّد الضباط، والمستشفيات، وممارسي رياضة الصيد بالملابس. وبين الحين والآخر يتعيَّن عليَّ أن أعود إلى أوروبا لشراء مخزون جديد. عرَف الدكتور شميدت ذلك، وقد جاء لرؤيتي قبل إبحاري مباشرة. فكَّر في البداية في كتابة رسالة طويلة جدًّا. بعد ذلك غيَّر رأيه. لقد كتب فقط هذه الأسطرَ القليلة التي أحضرتها، لكنه قال لي تلك الأشياء الأخرى.»

سأل دوميني: «هل تذكَّرت كلَّ ما قاله لك؟»

كان الرد بعد توقفٍ للحظة: «لا أستطيع تذكُّر أيِّ شيء آخَر.» وتابع قائلًا: «كانت المسألة برُمَّتها مصدرَ قلقٍ كبير للدكتور شميدت. ثَمة أمور مرتبطة بها لم يفهمها أبدًا، أمور مرتبطة بها كان دائمًا ما يجدها غامضة.»

سأل سيمان بنبرة صوت مختلفة: «ولهذا أنت هنا، يا يوهان وولف، أليس كذلك؟»

ظلَّت ملامح الزائر على حالها باستثناء قليل من المفاجأة في عينَيه الزرقاوين.

كرَّر: «يوهان وولف.» وتابع قائلًا: «هذا ليس اسمي. أنا لودفيج ميلر، ولا أعرف شيئًا عن هذا الأمر بخلاف ما قلته لك. أنا مجرد رسول.»

ذكَره سيمان بلُطف، ولكن بإصرار شديد: «لقد التقينا يا صديقي مرةً في فيينا ومرتَين في كراكوف.»

هز الآخر رأسه نفيًا برفق. «خطأ. لقد ذهبت إلى فيينا مرةً واحدة منذ عدة سنوات، لكني لم أذهب مطلقًا إلى كراكوف.»

«ألا تعرف على الإطلاق إلى مَن تتحدث؟»

«الهر سيمان، كما فهمت.»

قال سيمان ساخرًا: «إنه اسمٌ جيد جدًّا.» وتابع قائلًا: «انظر هنا وفكِّر.»

فتح معطفه والصدرية وكشف عن سُترةٍ عادية من جلد الشمواه. كان يوجد على الجانب الأيسر منها زخرفةٌ برونزية بالحروف والأرقام. حدَّق ميلر فيها دون إبداء أيِّ تعبير وهزَّ رأسه.

تابع سيمان، وهو يخفض صوته: «قسم المعلومات، المكتب الثاني عشر، كلمة السر ... «اليوم آتٍ».»

هزَّ مستمعُه رأسه وابتسم بجهل كطفل حائر.

وأجاب: «سيدي، أعتقد أنك تخلط بيني وبين شخصٍ آخر.» وتابع قائلًا: «لا أعرف شيئًا عن هذه الأمور.»

جلس سيمان ونظر بتمعُّن إلى هذا الزائر العنيد عدة دقائق دون أن يتكلَّم، وضغط على أطراف أصابعه معًا، وعقد حاجِبَيه قليلًا. لقد تحمَّل نظيره هذا التمحيص دون أن يجفل، وبهدوء، وبلا مبالاة، النموذج المثالي للألماني البرجوازي من طبقة التجار.

تساءل دوميني: «هل تنوي أن تبقى في هذه الأنحاء مدةً طويلة؟»

ردَّ ببرود: «يومًا أو يومين — ربما أسبوع.» وتابع قائلًا: «لديَّ ابن عم في نورويتش يصنع الألعاب. أحبُّ الريف الإنجليزي. ربما أقضي عطلتي هنا.»

تمتم سيمان بتجهُّم: «حسنًا.» وتابع قائلًا: «الريف الإنجليزي المغطَّى بالثلج! إذن ليس لديك ما تقوله لي، يا يوهان وولف؟»

كان الرد المتأسف: «لقد نفَّذت مهمتي مع سعادته.» وأضاف قائلًا: «أنا آسفٌ لأنني تسبَّبت في استيائك، يا هر سيمان.»

نهض الأخير واقفًا. كان دوميني قد استدار بالفعل نحو الباب.

دعاه قائلًا: «ستقضي الليلةَ هنا، بالطبع، يا سيد ميلر، أليس كذلك؟ أظن أن السيد سيمان يودُّ التحدث معك مرةً أخرى في الصباح.»

كان الرد المهذب: «سأقضي الليلة هنا بكل سرور، يا صاحب السعادة.» وأضاف قائلًا: «ومع ذلك، لا أظن أن لديَّ أيَّ شيء أقوله قد يُثير اهتمام صديقك.»

قال سيمان بغضب: «إنك ترتكب خطأً فادحًا يا وولف.» وأضاف قائلًا: «فأنا رئيسك في الخدمة، وموقفك تجاهي يتعذَّر تبريره.»

توسَّل المتهم: «ليت السيد المحترم يُصدِّق أنه يخلِط بيني وبين شخص آخر!»

ظهر الاضطراب على وجه سيمان عندما شقَّ الرجلان طريقهما إلى مقدمة المنزل، وكذلك ظهر في نبرة صوته عندما كان يُجيب عن استفسار رفيقه.

«ما رأيك في ذلك الرجل وزيارته؟»

أجاب سيمان بجدية: «لا أعرف فيمَ أفكِّر، لكني أعرف الكثير.» وأضاف قائلًا: «الرجل جاسوس، من المفضَّلين في شارع فيلهلم، ولا يُستخدم إلا في المناسبات المهمة. اسمه وولف — يوهان وولف.»

«وماذا عن قصته؟»

«أنت أفضلُ مَن يحكم عليها.»

أقرَّ دوميني بثقة: «هذا صحيح.» وأضاف قائلًا: «فمن دون أدنى شك ألقيتُ جثةَ الرجل الذي قتلته في النهر الأزرق وشاهدتُه يغرق.»

قرَّر سيمان: «إذن القصة مزيفة.» وأردف: «لسببٍ أو لآخر، يشتبهُ فينا جَهازُنا السري.»

عندما خرجا إلى القاعة، استدعت الأميرةُ إيدرستروم سيمان بغطرسة. اختفى دوميني للحظة وعاد بعد وقتٍ قصير، بعد أن تخلَّص من بعض ثيابِ صيده المبللة. تبِعه خادمُه الخاص وهو يحمل ملاحظةً على صينية فِضية.

أعلن الرجل بنبرة منخفضة: «من الشخص الموجود في غرفة السيد باركنز، إلى السيد سيمان، يا سيدي.»

أخذها دوميني من الصينية بإيماءة خفيفة. ثم التفتَ إلى حيث كان أصغرُ ضيوفه وأكثرُهم تفاهةً ينهض من على طاولة الشاي.

واقترح قائلًا: «هل تود أن تلعب معي مباراة بلياردو يا إيدي.» وأضاف قائلًا: «لقد أخبروني أن البلياردو هو أحد أعظم إنجازاتك.»

اعترف الشابُّ بضحكة مكتومة راضية: «أنا ماهر جدًّا فيه.» وأضاف قائلًا: «سأضع لك الكرةَ السوداء في وضعية سنوكر، بحيث لا يمكنني أن أضربها مباشرةً، ما رأيك؟»

أمسك دوميني بذراعه وقاده إلى غرفة البلياردو.

وأجاب: «لن تُعطيني شيئًا، أيها الشاب.» وأضاف قائلًا: «ضعِ الكرات، وسأريك كيف كسبتُ لقمة عيشي لمدة شهرين في جوهانسبرج!»

الفصل الثاني والعشرون

كانت الأمسيات في قصر دوميني متشابهة، مع مجموعةٍ مختلفة من الضيوف من العالم الخارجي. بعد العشاء، غاب دوميني لبضع دقائق وعاد مع روزاموند متأبِّطةً ذراعَه. تلقت التهانيَ من جيرانها بطريقةٍ جذابة، وسرعان ما اجتمعت حولها مجموعةٌ صغيرة. بقي الدكتور هاريسون، الذي كان يتناول الطعام، بعيدًا يستمعُ إلى حديثها الجَذْل والذكيِّ في بعض الأحيان بانتباهٍ واهتمام بالِغَين. بعدما اطمأنَّ دوميني إلى أنها كانت مستمتعة، أطاع إيماءة تيرنيلوف وتوجَّه معه إلى ركن بعيد من القاعة.

بدأ الأمير حديثه بشيءٍ من الحماس في نبرة صوته: «دعني الآن أُكمِل، يا مضيفي العزيز، وأنْهِ المحادثةَ التي كان كلُّ ما قلته هذا الصباح مجرد مقدمة لها.»

تمتم مضيفه: «أنا في خدمتك تمامًا.»

«لقد حاولت أن أجعلك تفهم أنني أرى — وأنا في وضعٍ يؤهِّلني لمعرفة الكثير — أن الخوف من الحرب بين هذا البلد وبلدنا قد زال. إنجلترا مستعدةٌ لتقديم كل التضحيات المعقولة لضمان السلام. إنها تريد السلام، وتُخطِّط له؛ لذلك سيكون هناك سلام. لذا، أؤكد لك، يا صديقي الشاب، أنه من الأفضل لك أن تختفيَ في الحال من هذا الوضع الزائف.»

أجاب دوميني: «أنا لا أتحكَّم في قراراتي.» وأضاف قائلًا: «وأنت نفسك تعرف ذلك جيدًا. أنا هنا بوصفي خادمًا ينتظر الأوامر.»

اقترح الأمير: «فلتضمَّ احتجاجاتك إلى احتجاجاتي.» وأردف قائلًا: «سأقدِّم تقريرًا بمجرد رجوعي إلى لندن. في رأيي أن الأمر عاجل. إذا كان ثمة أيُّ شيء قد يؤدي إلى اكتشاف وضعِك الزائف في هذا البلد، فإن الصداقة بيننا التي أصبحت مبعثَ سرور حقيقيٍّ لي قد تُقوِّض موقفي على نحوٍ خطير.»

كان دوميني قد نهض واقفًا ووقف أمام المدفأة، أمام جذوع الأشجار المشتعلة. وكان السفير جالسًا يضع ساقًا على أخرى على كرسيٍّ مريح، ويُدخِّن سيجارًا طويلًا رفيعًا كان يُفضله بشكل خاص.

قال دوميني: «سعادتك، ثَمة خطأٌ واحد فقط في كلِّ ما قلته.»

«خطأ؟»

تابع دوميني: «لقد توصَّلت إلى النتيجة المطلقة بأنه سيكون ثَمة سلامٌ لأن إنجلترا تريد ذلك. أنا أؤيد رأي سيمان. وأومن بالقوة المطلَقة للفصيل العسكري في ألمانيا. وأعتقد أنهم في الوقت المناسب سيفرضون إرادتهم على القيصر، إن لم يكن متحالفًا معهم سرًّا في الوقت الحالي. لذلك، أعتقد أنه ستحدث حرب.»

قال السفير بهدوء: «إذا شاركتُ هذا الاعتقادَ معك يا صديقي، فلا بد أن أعتبر منصبي هنا عارًا. مهمتي هي السلام، وأنا مفوَّض من القيصر نفسه.»

انفصلَت ستيفاني عن مجموعةٍ بعيدة وتوجَّهت نحوهما، وبدا عليها أنها سئمتْ قليلًا من المحادثة. بدَت عيناها الجميلتان متعبتَين، وتحرَّكَت بفتور، حتى إنها تحدثت بنبرةِ صوتٍ لا تحمل ثقتها المعتادة بنفسها.

سألت: «هل أنا أقاطع محادثةً جادة؟» وتابعت قائلةً: «اطلبا مني الرحيلَ إن كنت أفعل ذلك.»

علَّق دوميني: «سعادته وأنا قد وصَلنا إلى طريقٍ مسدود في مناقشتنا — عقَبة من الخلاف اللطيف ولكنه جوهري.»

أعلنت ستيفاني، وهي تأخذ بذراع دوميني: «إذن سأجلس معك بعضَ الوقت.» وأضافت قائلةً: «فالليدي دوميني قد جذبت كلَّ الرجال إلى دائرتها، وأنا وحيدة.»

انحنى الأمير.

وقال: «إنني أنكر أن الطريق مسدود، لكنني أذعن لرغبة مضيفنا! سأبحث عن خَصمي في لعبة البلياردو.»

استدار مبتعدًا وجلسَت ستيفاني في مكانه الشاغر.

قالت وهي تُفسح لدوميني مكانًا للجلوس بجانبها: «إذن، أنت وابن عمي اختلفتُما في وجهات النظر.»

أكَّد لها مضيفها: «ليس اختلافًا غير ودي.»

قالت: «أنا متأكدةٌ من ذلك. في الواقع، يبدو أن موريس قد أُعجب بك للغاية. لا أتذكَّر أنكما قد التقيتما من قبل، باستثناء ذلك اليوم أو اليومين في ساكسوني؟»

«هذا صحيح. المرة الأولى التي تبادلتُ فيها محادثةً حميمية مع الأمير كانت في لندن. إنني أكنُّ له أقصى درجات الاحترام والتقدير، لكن لا يسَعُني إلا الشعور بأن العلاقة الحميمة اللطيفة التي يسمح بها هي إلى حدٍّ كبير بسبب رغبة أصدقائنا في برلين. وفيما يخصُّني، لم ألتقِ مطلقًا بأي شخص، من أي دولة، تُعجبني شخصيته أكثر منه.»

«يعيش موريس حياته بتَعالٍ. إنه واحد من الأرستقراطيين العظماءِ القلائل الذين قابلتهم، الذين ينقلون نُبل مَحتدِهم إلى أبسط الأفكار والأفعال. يوجد شيء واحد فقط» أضافت: «من شأنه أن يكسر قلبه.»

«ما هو؟»

«الموضوع الذي أنتما مختلفان بشأنه — الحرب بين ألمانيا وهذا البلد.»

قال دوميني: «الأمير رجلٌ مثالي.» وأضاف قائلًا: «في بعض الأحيان أتساءل عن السبب في إرساله إلى هنا، ولماذا لم يُرسلوا شخصية أكثر إثارة للاهتمام.»

هزَّت كتفَيها.

علَّقت: «إنك تتفقُ مع ذلك الرجل الفرنسي العظيم أنه لا يمكن لأي سفير أن يبقى رجلًا نبيلًا — من الناحية السياسية.»

أجاب دوميني: «حسنًا، لم أكن دبلوماسيًّا في يوم من الأيام؛ لذا لا يمكنني القول.»

علَّقَت بطريقةٍ لاذعة: «لديك العديدُ من المؤهلات، على ما أظن.»

«مثل ماذا؟»

«أنت قاسٍ جدًّا، بلا قلب أو عاطفة على الإطلاق فيما يتعلق بعمَلك.»

احتجَّ قائلًا: «لا أُقرُّ بصحة ذلك.»

تابعَت: «سأعود إلى لندن غدًا، وأنا بائسةٌ للغاية وغير سعيدة. وسآخذ معي الرسالةَ التي كان ينبغي أن تجلب لي السعادة. لقد خذَلني الحبُّ الذي ضحَّيت بحياتي من أجله. ولا حتى أمر ملكي، ولا كل ما لديَّ لأُقدمه، يمكن أن يمنحني حتى خمس ثوانٍ من السعادة.»

ذكَّرها دوميني بجدِّية: «كلُّ ما أطلبه هو مهلة.»

تساءلت، بنبرةٍ مفاجئة من العاطفة في صوتها: «وماذا عن المهلة التي طالب بها ليوبولد فون راجاشتين منذ ستِّ سنوات؟ مهلة! لقد قال لي حينها كلماتٍ من شأنها أن تُذيب جبلًا جليديًّا. قال كلماتٍ تأتيني ذِكراها أحيانًا في الليل وتسخر مني. لم يكن عنده بلدٌ حينها سوى الجنَّة التي يسير فيها العشاق، لا حاكم إلا ملكة، وأنا كنت الملكة. والآن ...»

شعر دوميني بوخزةٍ غريبة من التوتر. رأت لينًا غيرَ معتاد في وجهه، وتألقت عيناها.

قطعَت حديثها قائلة: «فقط للحظة، كنتَ مثل ليوبولد. عادةً، كما تعلم، أنت لستَ مثله. أظن أنك تركتَه في مكانٍ ما في أفريقيا، وعُدتَ إلى الوطن بشبيهه.»

توسَّل دوميني بجدِّية: «صدقي ذلك بعض الوقت.»

سألت فجأةً: «ماذا لو كان هذا صحيحًا؟» وأردفت قائلةً: «في بعض الأوقات لا أعرفك. ثَمة كلماتٌ كان يستخدمها ليوبولد لم أسمعها مطلقًا تخرج من شفتَيك. أليست غربُ أفريقيا جنةَ السحَرة؟ لعلك مُحتال، والرجل الذي أحبُّه ما زال هناك، في مأزق — ربما كان مريضًا. أنت تلعب دور إيفرارد دوميني كممثلٍ بارع للغاية. ربما قبل مجيئك إلى هنا لعبت دور ليوبولد. أنت لست ليوبولد الذي أعرفه. الحب لا يمكن أن يموتَ كما تريدني أن أُصدق.»

قال ببرود: «الآن، أنت تقتربين من طريقة تفكيري. لقد كنت أؤكِّد لك، منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها في كارلتون، أنني لستُ ليوبولد الذي تعرفينه — وأنني إيفرارد دوميني.»

صاحت فجأةً ونهضت واقفة: «سأضعك تحت الاختبار.» وتابعت قائلةً: «ذِراعك، إذا سمحت.»

قادته عبر القاعة إلى حيث كانت مجموعاتٌ صغيرة من الناس تتحدث، وتلعب الورق، وكان سيمان يُعطي محاضرةً عن المناجم وسط مجموعةٍ صغيرة من المضاربين الهُواة الساذجين. توقَّفا ليتبادلا بِضع كلماتٍ هنا وهناك، لكن أصابع ستيفاني لم تترك ذراعَ رفيقها. مرَّا عبر رَدهة معلَّق بها مجموعةٌ من الصور الرائعة لممارسة رياضة الصيد أثارت فيها بعضَ الاهتمام، ثم إلى معرِضٍ صغير يؤدِّي إلى قاعة الرقص. وهنا أصبحا بمفردهما. وضعَت يدَيها على كتفَيه ونظرت إلى عينيه. واقتربت شفتاها من شفتَيه.

وأمرته: «قبِّلني — على شفتَيَّ، يا ليوبولد.»

أجاب: «لا يوجد ليوبولد هنا؛ لقد قلتِ ذلك بنفسكِ.»

اقتربت منه قليلًا. وهمست: «على شفتَيَّ.»

أمسكها، وانحنى، والتقت شفتاهما. ثم ابتعدت عنه. كانت عيناها مغلقتَين للحظة، ويداها ممدودتَين كأنهما تمنعان أيَّ فرصةٍ له للاقتراب منها مرةً أخرى.

تمتمت: «الآن أعرفُ الحقيقة.»

وجد دوميني فرصةً سانحة لإبعاد سيمان عن مجموعته الصغيرة من الأصدقاء الباحثين عن الاستثمار.

قال: «يا صديقي، المشكلات تزداد.»

سأل سيمان بسرعة: «هل صدَر أيُّ شيء آخر من رسول شميدت المزعوم؟»

«لا. سأبتعد عنه هذا المساء، وأنصحك أن تفعل الشيء نفسه. المشكلة مع الأميرة.»

أعلن سيمان: «مع الأميرة!» وأضاف قائلًا: «أظن أنك مخطئ. أنا أقدِّر تمامًا مبادئك العامة في التصرف ظاهريًّا وداخليًّا كما لو كنت الشخصَ الذي تتظاهر أنك هو. إنه جوهر كلِّ تجسس ناجح. لكن عليك أن تعرف متى يجب إجراءُ استثناءات. أنا نفسي لديَّ اعتراضاتٍ شديدة على طاعتك لأمر القيصر. من ناحية أخرى، ليس لديَّ أيُّ اعتراض على معاملتك للأميرة بطريقة أكثرَ إنسانية، وعلى زيارتك لها في لندن، وإعطائها المزيدَ من الأدلة الحماسية على عاطفتك المستمرة.»

«بمجرد أن أبدأ في ...»

قاطعه سيمان: «انظر هنا، الأميرة امرأةٌ ذاتُ خبرة كبيرة في الحياة. إنها تعرف ما تفعله، وثَمة رابطة مؤكدة بينكما. أقول لك بصراحةٍ إنني لا أستطيع تحمُّل رؤيتك تلعب دورَ الأبلهِ للحظة مع الليدي دوميني، لكن مع الأميرة، لا تُراودني شكوكٌ في هذه المسألة على الإطلاق. ينبغي بأيِّ حال من الأحوال ألا تجعلها عدوةً لك.»

أقرَّ دوميني: «حسنًا، لقد فعلَت ذلك.» وأردف قائلًا: «لقد ذهبَتْ إلى الفراش الآن، وستُغادر غدًا في الصباح الباكر. إنها تظن أنني استعنتُ ببعض سحر غرب أفريقيا، وأنني تركت روح حبيبها هناك، وعُدت للوطن في جسده.»

قال سيمان: «حسنًا، إن ظنَّت ذلك، فستنتهي مشاكلك.»

ردَّ دوميني بحزن: «حقًّا!» وأردف قائلًا: «أولًا وقبل كل شيء، قد تُقْدِم على الكثير من الأشياء المؤذية قبل أن ترحل. وبعد ذلك، بافتراض أن قصة ابن عمِّ شميدت هذه حقيقية، وأنها ستجد دوميني هناك ما زال على قيد الحياة؟ الأميرة ليست ألمانيةً بالولادة، كما تعلم. ولا تهتمُّ بمستقبل ألمانيا. في واقع الأمر، أظن أنها، مثل العديد من المجريين، تُفضِّل إنجلترا. يقولون إن الإنجليزي لديه أكثرُ من حياة مثل القطة. لنفترض أن دوميني عاد للحياة مرةً أخرى وأعادته إلى الوطن؟ أنت نفسك تقول إنك لن تستفيدَ مني كثيرًا إلا بعد بَدء الحرب. بلغة هذا البلد، سيُؤدي ذلك إلى قلب الموازين، أليس كذلك؟»

استفسر سيمان: «هل للأميرة جَناحٌ هنا؟»

«الجناح الغربي. فكرة جيدة! فلتذهبْ لترى ما يُمكنك فعْله معها. فهي لن تُفكر في الخلود للنوم في هذا الوقت من الليل.»

أومأ سيمان برأسه.

وقال: «دعِ الأمر لي.» وتابع قائلًا: «اخرج والعب دور المضيف.»

لعب دوميني دور المضيف أولًا ثم دور الزوج. رحَّبت به روزاموند بصيحة سرور خفيفة.

هتفَت قائلةً: «إنني أستمتع بوقتي كثيرًا، يا إيفرارد!» وأضافت قائلةً: «لقد كان الجميع طيبين للغاية، وعلمني السيد مانجان لعبة ورق جديدة.»

تدخَّل الدكتور هاريسون بفظاظةٍ بعضَ الشيء: «والآن، أظن أنه قد حان وقت الانصراف هذا المساء.»

استدارت بلطفٍ شديد إلى إيفرارد.

وتوسَّلَت: «هلا ترافقني إلى الطابَق العلوي؟» وأردفت قائلةً: «كنتُ أتمنى كثيرًا أن تأتيَ قبل أن يطردني الدكتور هاريسون.»

أكَّد لها دوميني: «كنتُ سأشعر بخيبةِ أمل كبيرة لو تأخرتُ كثيرًا.» وتابع قائلًا: «والآن تمنَّيْ ليلة سعيدة للجميع.»

ضحكت: «يا إلهي! أنت تتحدث معي كما لو كنتُ طفلة.» وأضافت قائلةً: «حسنًا، وداعًا للجميع، إذن. كما ترون، زوجي الصارم يأخذني. متى ستأتي لرؤيتي، يا دكتور هاريسون؟»

كان الردُّ الفظ: «لا داعيَ لتلك الزيارة.» وأردف قائلًا: «أنتِ بصحةٍ جيدة مثل أي امرأة هنا.»

اشتكت إلى دوميني: «إنه غليظٌ بعضَ الشيء، أليس كذلك؟» وتابعت قائلةً: «من فضلك اصحبني عبر القاعة، حتى أستطيعَ أن أودِّع الجميع. هل الأميرة إيدرستروم هناك؟»

أجاب دوميني وهما يُغادران الغرفة: «أخشى أنها ذهبَت إلى الفراش.» وأضاف قائلًا: «قالت إنها تشعر بصداع.»

قالت روزاموند بحزن: «إنها جميلةٌ جدًّا.» وأردفت قائلةً: «أتمنى لو أنها كانت تُحبني أكثرَ من ذلك بقليل. هل هي مغرمةٌ بك جدًّا، يا إيفرارد؟»

اعترف دوميني: «أظن أنها مستاءة مني في الوقت الحاضر.»

«عجبًا! أنا شديدة الملاحظة، وقد رأيتها تنظر إليك في بعض الأحيان — بالطبع»، تابعت روزاموند، «بما أنني لستُ زوجتَك حقًّا وأنت لستَ زوجي حقًّا، فمن الغباء الشديد أن أشعر بالغيرة، أليس كذلك، يا إيفرارد؟»

أجاب: «على الإطلاق.» وتابع قائلًا: «إن لم أكن زوجَكِ، فلن أكون زوجَ أي امرأة أخرى.»

اعترفَت بتنهيدةٍ خفيفة: «أحب أن تقولَ ذلك، لكنه يبدو خاطئًا نوعًا ما. انظر كيف تبدو الدوقة غاضبةً! لا بد أن أحدًا ما قد لعب البطاقةَ الخطأ.»

لم يكن وداع روزاموند سهلًا؛ وبدا أن تيرنيلوف بخاصةٍ غيرُ راغب في تركِها ترحل. لكنها اعتذرَت بلباقة، ووعدَته بالسهر وقتًا أطولَ في الأمسية التالية. قاد دوميني الطريق إلى الطابق العلوي، مسرورًا سرورًا غريبًا من تقدُّمها البطيء. أخذها إلى باب غرفتها ونظر بداخلها. كانت الممرضة تجلس على كرسيٍّ مريح، وتقرأ، والخادمة تخيط في الخلفية.

قال بمرح: «حسنًا، تبدينَ مرتاحة جدًّا هنا.» وأضاف قائلًا: «أرجوكِ لا تتحرَّكي أيتها الممرضة.»

أمسكت روزاموند بيدَيه، وكأنها غيرُ راغبة في تركه يرحل. ثم جذبت وجهه إلى أسفل وقبَّلته.

وقالت بقليلٍ من الحزن: «نعم، هذا مريح جدًّا. إيفرارد؟»

«نعم، عزيزتي.»

جذبَت رأسه لأسفل وهمست في أذنه.

«هل لي أن أدخل وأتمنى ليلةً سعيدة لمدة دقيقتين؟»

ابتسم — ابتسامة رائعة لطيفة — لكنه هزَّ رأسه.

وأجاب: «ليس الليلةَ يا عزيزتي.» وأردف قائلًا: «فالأمير يحبُّ السهر إلى وقتٍ متأخر، وسأكون معه في الطابَق السفلي. علاوةً على ذلك، طبيبك المتنمِّر هذا يُصر على أن تنامي عشر ساعات.»

تنهَّدت مثل طفل محبَط.

«حسنًا.» توقَّفت للحظة وأنصتت. وسألت: «ألم يكن ذلك صوتَ سيارة؟»

أجاب وهو يبتعد: «بعض ضيوفنا يرحلون مبكرًا، على ما أظن.»

الفصل الثالث والعشرون

لم يبدأ سيمان على الفور في مهمته مع الأميرة. بدلًا من ذلك، شقَّ طريقه إلى مهجع الخدم وطرَق بابَ غرفة جلوس كبير الخدم. لم يأته ردٌّ. لذا حاول فتح الباب لكن دون جدوى. كان الباب موصَدًا. خرج رجلٌ طويل وَقور يرتدي ملابسَ باللون الأسود القاتم من غرفةٍ مجاورة.

استفسر: «هل تبحث عن الشخص الذي وصل هذا المساءَ من الخارج يا سيدي؟»

أجاب سيمان: «نعم. هل حبس نفسَه بالداخل؟»

«لقد غادر القصر يا سيدي!»

كرَّر سيمان: «غادر!» وتابع قائلًا: «هل تقصد رحل بلا رجعة؟»

«يبدو ذلك، يا سيدي. فأنا لا أفهم لغته، لكنني أعتقد أنه اعتبر استقباله هنا، لسببٍ أو لآخَر، غيرَ مرغوب فيه. فاستقلَّ السيارة التي ذهبت إلى المحطة لجلب صحيفة المساء ولحِق بالقطار الأخير.»

سكت سيمان للحظة. كان النبأ صدمةً له.

سأل الشخص الذي أبلغه: «ما وظيفتك هنا؟»

كان الرد المحترم: «اسمي رينولدز، يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «أنا خادم السيد بيلهام.»

«هل يمكنك أن تُخبرني لماذا البابُ هنا موصد إذا كان هذا الرجل قد غادر؟»

«السيد باركنز أوصده قبل أن يخرج، يا سيدي. ورافق السيد ميلر، أظن أن هذا اسمُه، إلى المحطة.»

بدا سيمان غيرَ مقتنع تمامًا بما قيل.

سأل: «هل من المعتاد أن تُوصَد غرفة الجلوس بهذه الطريقة؟»

«السيد باركنز دائمًا يفعل ذلك، يا سيدي. حيث يُحتفَظ بخزائن السيجار هناك، وكذلك مفتاح قَبْو النبيذ ومفتاح صندوق أدوات المائدة. لا يستخدم أيٌّ من الخدم الآخرين الغرفةَ إلا بِناءً على طلب السيد باركنز.»

قال سيمان وهو يلتفت بعيدًا: «حسنًا أتفهَّم الأمر.» وأردف قائلًا: «أنا ممتنٌّ للغاية لمعلوماتك، يا رينولدز. سأتحدث إلى السيد باركنز لاحقًا.»

«سأخبره أنك ترغب في رؤيته يا سيدي.»

«طاب مساؤك، يا رينولدز!»

«طاب مساؤك، يا سيدي!»

مرَّ سيمان مرةً أخرى عبر القاعة المزدحمة وغرفة البلياردو، وتبادل بِضع ملاحظات هنا وهناك، وشقَّ طريقه نحو الدَّرج الجنوبي وصعد باتجاه الجناح الغربي. وافقت ستيفاني دون تردٍد على استقباله. كانت جالسة أمام المدفأة، تقرأ رواية، في مخدعٍ يطلُّ على غرفة نومها.

أعلن سيمان، بانحناءة منخفضة: «أيتها الأميرة، لقد أصابنا الإحباطُ عندما علمنا بخبر مغادرتكِ.»

وضعت كتابها.

وقالت: «لقد تعرَّضتُ للإهانة في هذا المنزل.» وتابعت قائلةً: «وغدًا سأتركه.»

هزَّ سيمان رأسه في عتاب.

وتابع: «يا صاحبة السمو، صدِّقيني، لا أريد أن أستغل منصبي. فأنا مجرد تاجر ألماني، سُمح له بالدخول إلى مثل هذه الدوائر؛ لأسبابٍ لا تتصل إلا بمصلحة بلدي. ومع ذلك، فأنا بالصدفة أعلم الكثيرَ عن حقيقة هذا الأمر، الأمر الذي يسبِّب لك الضيق. أرجوكِ أن تُعيدي النظر في قرارك. أظن أن صديقنا هنا يقسو على نفسه بلا داعٍ. وستكون مكافأته كبيرةً للغاية عندما تأتي النهاية. وستكون نشوتُه أعظمَ عندما يجثو على ركبتيه أمامكِ.»

«هل أرسلك لإقناعي؟»

«ليس بشكلٍ مباشر. ومع ذلك، أنا إلى حدٍّ ما وصيفُه في هذه المهمة. فقد أحضرتُه من أفريقيا. وكنت أراقبه منذ البداية. عقلان أفضلُ من عقلٍ واحد. أحاول أن أوضح له أين يتجنَّب الأخطاء، وأحاول لفْتَ انتباهه إلى مسارات الخطر والأمان.»

علَّقت بهدوء: «أتخيَّل أن السير إيفرارد يجدك مفيدًا.»

«آمُل ذلك.»

تابعت: «بلا شكٍّ خطرَ لك أن صديقنا قد تكيَّف بشكل رائع مع الحياة والعادات الإنجليزية؟»

«لا تنسَيْ أنه تلقَّى تعليمه هنا. ومع ذلك، كان استعداده مدهشًا.»

وافقَت على ذلك قائلة: «يكاد المرء أن يصفه بأنه خارقٌ للطبيعة.» وتابعت قائلةً: «أخبرني، يا سيد سيمان، يبدو أنك قد نجحتَ تمامًا في إدخال صديقنا هذا على أنه السير إيفرارد. ماذا ستكون قيمته الحقيقية لك؟ وما العمل الذي سيضطلع به؟»

«نحن نحتفظ به للأشياء الكبيرة. هل رأيتِ سيدنا الكريم مؤخرًا؟» أضاف بتردد.

أجابت: «أعرفُ ما يدور بعقلك.» وتابعت قائلةً: «حسنًا! قبل انتهاء الصيف، سأحزمُ أمتعتي وأرحل. أتفهَّم الأمر.»

قال سيمان بطريقةٍ مثيرة للإعجاب: «عندما يحينُ ذلك الوقت، نتوقَّع أن يكون السير إيفرارد دوميني، الرجل الإنجليزي النموذجي، الذي لم تكن توجد أي كلمة شكٍّ بشأن ولائه، مفيدًا لنا. فمعظم مساعدينا الحاليِّين سيكونون في موضع شك. ويمكن للموظفين المعتمدين من جهاز الخدمة السرية لدينا العملُ متخفِّين فقط. يمكنكِ أن ترَي بنفسكِ الميزةَ التي نكتسبها من وجود مراسل سريٍّ يمكنه أن ينقل يومًا بيوم السيكولوجيةَ المتغيرة للعقلية البريطانية في جميع مراحلها. فلدينا ما يكفي للغاية من الترتيبات اللازمة للنوع الآخر من المساعدة. بدءًا من خطط السفن، والمطارات، والموانئ، وإبحار القوافل، واستدعاء الجنود — كل هذه هي أبجديات مِهنة جهاز الخدمة السرية لدينا. لن نطلب من صديقنا هذا أبدًا أيَّ معلومات، ولكننا لن نفقد أبدًا نبض الحياة اليومية ببريطانيا، وذلك بفضل منزله بالمدينة في ساحة بيركلي، الذي يستضيف فيه وزراءَ الحكومة، والجنود، وأفضل العقول في البلاد.»

ألقت ستيفاني نفسَها على كرسيِّها المريح وشبكَت يدَيها خلف رأسها.

«هل تتوقَّعون هذه الأشياء من مضيفنا الحالي؟»

«نعم، ونتوقَّع أن نحصلَ عليها. لقد راقبتُه يومًا بعد يوم. وازدادت ثقتي به.»

كانت ستيفاني صامتة. وجلست تنظر إلى المدفأة. أدرك سيمان، الذي كان شديدَ الانتباه كما هو حاله دائمًا، التغييرَ الذي طرأ عليها، لكنه وجد شيئًا غامضًا في أسلوبها الجديد غيرِ المتحيز.

استحثَّها قائلًا: «يا صاحبة السمو، أنا لستُ هنا لأتحدث نيابةً عن الرجل الذي هو في الواقع، كما أعلم، حبيبُكِ. فهو سوف يدافع عن قضيته أمامكِ عندما يَحينُ الوقت. لكنني

هنا لأطلب منكِ الصبرَ، وأنا هنا لأطلب منكِ عدمَ اتخاذ خطوة متهوِّرة، وعدم فعل أي شيء قد يُعرِّض موقفه هنا للخطر بأي شكل من الأشكال. أنا أقف خارج بوابات العالم التي يمكن لجنسكِ أن يجعله فِردوسًا. أنا لستُ أهلًا للحكم على الأشياء التي تحدث هناك. لكنني أشعر بأن ثمة مرارةً في قلبكِ؛ لأن الرجل الذي تهتمِّين به اختار أن يضعَ بلده في المرتبة الأولى. أناشدكِ الصبرَ أيتها الأميرة. أناشدكِ أن تُصدِّقي ما أعرفه جيدًا — أن الشعور الصارم بالواجب فقط هو أساسُ موقف ليوبولد فون راجاشتين العنيد.»

سألت بفضول: «ما الذي تخشى أن أفعله؟»

«أنا لا أخشى أيَّ شيء — بشكل مباشر.»

«إذن ماذا الذي تخشى منه بشكلٍ غير مباشر؟ أجبني من فضلك.»

اعترف بصراحة: «أخشى من أنه في بعض أنحاء العالم، إن لم يكن في هذا البلد، يمكن أن تهمسي بكلمةٍ أو جملةٍ ساخرة أو غاضبة، مما يجعل الناس يتساءلون عن الضغينة التي تحملينها ضد بارون نورفولك البسيط. ولا أرغب في أن تُقال تلك الكلمةُ في حضور أيِّ شخص يعرف تاريخَكِ، ويُدرك التشابه المذهل بين السير إيفرارد دوميني والبارون ليوبولد فون راجاشتين.»

تمتمت ستيفاني، وانفرجَت شفتاها عن ابتسامةٍ باهتة: «فهمت.» وتابعت قائلةً: «حسنًا، يا سيد سيمان، لا أظن أنك بحاجةٍ إلى أن يكون لديك مخاوفُ كثيرة. ما سأحمله معي في قلبي وأنا أغادر ليس لك أو لأي رجل آخر أن يعرفه. سأغادر هذا البلدَ في غضون أيام قليلة.»

«هل ستعودين إلى برلين — إلى المجر؟»

هزَّت رأسها نفيًا، وأشارت إلى خادمتها أن تفتحَ الباب، ومدَّت يدها إشارةً للانصراف. أعلنت: «سأقوم برحلةٍ بحريَّة.» وتابعت قائلةً: «سأذهب إلى أفريقيا.»

كان اليوم التالي يومًا مليئًا بالمفاجآت اللطيفة. كان مكان إيدي بيلهام الفارغُ أولَ ما جذب الانتباه، قُرب نهاية وقت الإفطار.

سأل الرايت أونرابل: «أين صاحب اللون الوردي والأبيض النقي؟» وأضاف قائلًا: «أفتقد اندهاشي الصباحيَّ من طريقة ربطه لربطةِ عنقه.»

أجاب دوميني، وهو ينظر حوله من عند الخزانة: «لقد رحل.»

كرَّر الجميع: «رحل؟»

علَّق دوميني: «أعتقد أن هذا الشيء لم يحدث له من قبل.» وأضاف قائلًا: «ثمة حاجةٌ إلى حضوره إلى المدينة.»

تمتمت كارولين: «تخيلوا أن أيَّ شخص يريد إيدي لأي غرض جاد!»

تابع مضيفهم: «وتخيلوا أيَّ شخص يريده بشدة لدرجة جرِّه من السرير في منتصف الليل بمكالمة هاتفية، وإرساله إلى المدينة بقطار الإفطار من نورويتش!» وأضاف قائلًا: «لقد تصوَّرت أن ثمة شبحًا جديدًا عندما جاء إلى غرفتي مرتديًا روبًا أرجوانيًّا ونقل لي الخبر.»

استفسر الدوق: «مَن احتاجه؟» وأضاف قائلًا: «خيَّاطه؟»

أجاب دوميني: «كانت حجَّته أعمالًا ذاتَ أهمية.»

تعالى القليلُ من الضحك.

سألت كارولين، وهي تتثاءب: «هل يفعل إيدي أي شيء من أجل أن يكتسب دخلًا؟»

أجابهم مانجان: «السيد بيلهام هو مدير شركة تشيلسي موتور وركس. لقد تحصَّل على إرثٍ صغير العامَ الماضيَ، وكان سائق التاكسي المفضلُ لديه أولَ مَن علم به.»

صاحت قائلة: «أنت لا تقترح أن هذا النوع من الأعمال هو الذي جعل إيدي يرحل!»

اعترف مانجان: «أعتقد أن هذا بعيد الاحتمال.» وأضاف قائلًا: «ففي واقع الأمر، سألني قبل أيام عمَّا إذا كنت أعرف مكان مبناهم.»

أقرت: «سنفتقده.» وأردفت قائلةً: «فرؤية زيِّه بعد إطلاق النار كان أحد أحداث اليوم.»

علَّق الدوق: «كان لعبه للورق جيدًا بقدرٍ معقول.»

قال مانجان: «لقد أطلق النار على نحوٍ جيد نوعًا ما في اليومين الماضيَين.»

واختتمَت كارولين قائلةً: «لقد أخبرني سرًّا أنه كان سيرتدي اللون البني اليوم. الآن أظن أن إيدي كان سيبدو لطيفًا باللون البني.»

انتهت فِقرة الذكريات الخاصة بالشاب المفقود بوصول الصحف المحلية الصباحية. بعد لحظاتٍ قليلة نهض دوميني وغادر الغرفة. تبِعه سيمان، الذي كان صامتًا على نحوٍ غيرِ عادي.

قال: «صديقي، لا أعرف ما إذا كنتَ قد سمعت، ولكن كان ثَمة اختفاءٌ غريب من القصر الليلةَ الماضية.»

سأله دوميني، متوقفًا لاختيار سيجارة: «مَن؟»

أعلن سيمان: «صديقنا ميلر، أو وولف — رسول الدكتور شميدت قد اختفى.»

كرَّر دوميني: «اختفى؟ أظن أنه يتجول في مكانٍ ما.»

أجاب سيمان: «لقد تركت لك أمرَ إجراء تحريات أكثر تدقيقًا.» وتابع قائلًا: «كلُّ ما يمكنني قولُه هو أنني اتخذتُ قراري الليلة الماضية لإجراء مقابلة معه مرةً أخرى ومحاولة فهْم سلوكه الغامض للغاية. وجدت بابَ غرفة جلوس كبير خدمك مغلقًا، ووجدتُ رجلًا متحضرًا للغاية — اتضح أنه الخادم الخصوصي للسيد بيلهام — أخبرني أنه قد غادر في السيارة التي ذهبت لجلب الصحف المسائية.»

قرَّر دوميني، بعد تفكيرٍ حائر للحظة: «سأذهب وأُجري بعض التحريات.»

وافق سيمان: «من فضلك.» وتابع قائلًا: «فالأمر يُزعجني لأنني لا أفهمه. وعندما يكون ثمة شيءٌ لا أفهمه، أشعر بعدم الارتياح.»

اختفى دوميني في المناطق السفلية، وقضى نصف ساعة مع روزاموند، ولم يُرَ ضيفُه المضطرب مرةً أخرى إلا عندما كانا يسيران إلى الغابة الأولى. حظيا بلحظةٍ معًا بعد أن أشار دوميني إلى أماكن الانتظار.

استفسر سيمان: «ماذا وجدت؟»

أعلن دوميني: «على ما يبدو أن صديقنا قرَّر أن يرحل فجأةً. أُعِدَّ له سرير — أو بالأحرى هو موجود دائمًا — في جَناح صغير يؤدي إلى غرفة الخادم الشخصي، في الطابق الأرضي. لم يذكر شيئًا عن المغادرة حتى رأى باركنز يستعد للذَّهاب إلى المحطة مع السائق. حينها أصرَّ على مرافقته، وعندما وجد قطارًا إلى نورويتش، ببساطة تمنَّى لكليهما ليلة سعيدة. ولم يترك أيَّ رسالة لك أو لي.»

كان سيمان غارقًا في التفكير.

قال: «لا شك في أنَّ رحيله كان مؤشرًا على عدم الثقة فينا. لقد جاء لمعرفة شيء، وأظن أنه عرَفه. أنا أحسدك على رِباطة جأشك، يا صديقي. فنحن نعيش على حافة بركان، وأنت تُطلق النار على طيور الدُّرَّاج.»

علَّق دوميني، وهو يدور بينما كان طائر حَجَل فرَنسي يُصدِر أزيزًا ثقيلًا وهو يعبر سياج الشجيرات خلفهما ويسقط على مسافة قصيرة مثل كومة متغضِّنة من الريش: «سنُحاول مع طائر حَجَل من باب التغيير.» وأضاف، وهو يلتفتُ إلى رفيقه: «تصويب محكَم، على ما أظن، أليس كذلك؟»

أجاب سيمان بقليلٍ من السخرية: «رائع!» وتابع قائلًا: «أحسدك على أعصابك.»

اعترف دوميني: «لا يُمكنني أن آخذَ هذا الأمر على محمل الجِد.» وأضاف قائلًا: «بدا لي الرجل غيرَ مؤذٍ تمامًا.»

قال سيمان: «لقد أُثيرت مخاوفي أيضًا في اتجاهٍ آخر.»

سأل دوميني: «هل تلوح مشكلةٌ أخرى في الأفق؟»

«ستكتشف رحيلَ ضيفٍ آخر عند عودتك بعد ظهر اليوم.»

«هل تقصد الأميرة؟»

أقرَّ سيمان قائلًا: «نعم، الأميرة.» وأردف قائلًا: «لقد بذلتُ قصارى جهدي معها الليلةَ الماضية، لكنني وجدتُها في حالةٍ ذهنية غريبة للغاية. ومع ذلك، يجب أن نتخلَّص من أيِّ قلق يتعلَّق بها لبعض الوقت. لقد قرَّرتُ الذَّهاب في رحلة بحرية.»

«إلى أين؟»

«أفريقيا!»

توقف دوميني عن إدخال خرطوشة في بندقيته. واستدار ببطءٍ ونظر في وجه رفيقه الخالي من التعبير.

سأل: «لماذا بحقِّ الجحيم ستذهب إلى هناك؟»

أجاب سيمان: «لا أستطيع أن أخبرك بذلك، مثلما لا أعرف سبب إرسال يوهان وولف هنا للتجسُّس على عملنا المثالي. أنا مستاء للغاية يا صديقي. الأشياء التي أفهمها، مهما كانت خطيرة، لا أخافها. لكن الأشياء التي لا أفهمها تُرهقني.»

ضحك دوميني بصوتٍ خفيض.

وقال: «لا تقلق، لا شيء هنا يُهدِّد موقفنا تهديدًا خطيرًا. الأميرة غاضبة، لكن من غير المحتمل أن تتخلَّى عنا. لن يستطيع هذا الرجل المدعوُّ وولف تقديمَ تقرير سلبي عن أيٍّ منا. نحن نؤدي عملنا ونؤدِّيه على نحوٍ جيد. دعْ ضمائرنا الطاهرة تُعزِّنا.»

أجاب سيمان: «حسن، ولكني أشعر بعدم الارتياح. يجب ألا أبقى هنا مدةً أطول. فليس من الحكمة وجودُ علاقة وثيقة أكثر من اللازم بيني وبينك.»

علَّق دوميني: «حسنًا، أظن أنه يمكن الوثوقُ بي، حتى لو تُركتُ وحدي.»

اعترف سيمان قائلًا: «من جميع النواحي باستثناء ما يتعلَّق بالأميرة؛ إذ كان سلوكك بالغَ الحذر.»

كرَّر دوميني بانفعال: «باستثناء ما يتعلَّق بالأميرة. حقًّا يا صديقي، لا أستطيع أن أفهم وجهة نظرك في هذا الأمر. فلا يُمكنك أن تتوقَّع مني أن أمزجَ بين شهر عسلٍ سرِّي والتزاماتي الحاليَّة!»

واصل سيمان كلامَه: «ربما كان يوجد بالتأكيد حلٌّ وسط؟» وأردف قائلًا: «فأنت تُظهِر قدرًا كبيرًا من البراعة في الأمور الأخرى.»

تمتم دوميني: «أنت لا تعرف الأميرة.»

انضمَّت إليهم روزاموند في مأدُبة غَداء، حاملةً خبرَ رحيل ستيفاني المفاجئ، مع ملاحظاتٍ ورسائل للجميع. تجهَّمَت كارولين قليلًا في وجه مضيفها.

وهمست في أذنه: «أنت في ورطة!» وتابعت قائلةً: «رغم ذلك، أنا موافقة. فأنا أحبُّ ستيفاني، لكنها شديدة الخطورة.»

قال دوميني وهو مستغرقٌ في التفكير: «أتساءل عمَّا إذا كانت كذلك.»

أجابت كارولين: «أظن أن الرجال وجَدوها كذلك عمومًا.» وتابعت قائلةً: «كانت في علاقة حبٍّ رائعة، انتهت، كما تعلم، بمقتل زوجها في مبارزة وطرد عشيقها من البلاد. ومع ذلك، فهي ليست من ذلك النوع من النساء الذي يكفيه عاشقٌ منفي. تصورت أنني لاحظتُ علاماتٍ واضحةً على استعدادها لاستبداله عندما كانت هنا!»

علَّق دوميني خارج الموضوع: «أشعر كما لو أنَّ شيئًا ما قد أفسد حفلتي المنزلية.» وأضاف قائلًا: «أولًا إيدي، ثم السيد لودفيج ميلر، والآن ستيفاني.»

استفسرت كارولين: «ومَن يكون السيد لودفيج ميلر؟»

«إنه رجلٌ ألماني سمين أشقرُ الشعر جلب لي رسائلَ من أصدقاءَ قُدامى في أفريقيا. لم يكن لديه أمتعةٌ سِوى عصًا للمشي، ويبدو أنه أزعج الخدمَ الليلة الماضية بقَبوله سريرًا ثم اختفائه!»

«هل سرق أدوات المائدة؟»

«لم يُفقَد شيء. قضى باركنز نصف ساعة كاملة في عدِّ كل شيء. يبدو أن السيد لودفيج هو أحد تلك الألغاز الغامضة التي تجعل العالم مكانًا غيرَ مثالي.»

قالت كارولين مستعيدةً الذكريات: «حسنًا، لقد قضينا وقتًا ممتعًا.» وأردفت قائلةً: «غدًا، سنغادر أنا وهنري، والآخرون على ما أظن. يجب أن أقول إنني بوجهٍ عام سعيدةٌ بزيارتنا.»

غمغم دوميني: «أنتِ كريمة جدًّا.»

تابعت بتروٍّ: «ربما أتيت متوقعةً أن أنال المزيد منك، لكنْ ثَمة تعويض كبير جدًّا لخيبة أمَلي. أظن أن زوجتك، يا إيفرارد، تستحقُّ العناء. إنها لطيفة جدًّا، وأخلاقها شديدة الجاذبية.»

قال بشكل وُدي: «أنا سعيدٌ لأنكِ تظنين ذلك.»

أشاحت بناظرَيها بعيدًا عنه.

وتنهدَت قائلة: «إيفرارد، أعتقد أنك تحبُّ زوجتك.»

ظهر مزيجٌ غريب، يكاد يكون رهيبًا، من التعبيرات على وجهه وهو يُجيب — خوف أكيد، ولَعٌ ما، واستسلامٌ شبه يائس. حتى صوته، الذي كان عادةً بطيئًا ومتأنيًا، كان يختلج بعاطفةٍ أذهلت رفيقته.

تمتم: «أعتقد أنني كذلك.» وتابع قائلًا: «أخشى من مشاعري تجاهها. فقد تجلب لنا مأساةً أخرى.»

صاحت كارولين: «لا تتفوَّه بهُراء!» وأردفت قائلةً: «أي مأساة يمكن أن تحدث لكما الآن؟ لقد استعدتَ توازنك. أنت شخصٌ قوي ومخلص، ومُستعدٌّ لتكون حاميًا لأي شيء لطيف وساحر للغاية مثل روزاموند. أي مأساة تتحدَّث عنها! لماذا لا تأخذها إلى جنوب فرنسا، يا إيفرارد، وتُعيد شهر العسل مرة أخرى؟»

«لا يمكنني فعلُ ذلك الآن.»

تأمَّلته بفضول. في بعض الأوقات كان يبدو لها غير مفهوم على الإطلاق.

سألت: «هل ما زلتَ قلقًا بشأن موضوع أنثانك؟»

تردَّد للحظة.

وقال لها: «ما زالت توجد عواقبُ لمتاعبنا، وإحداها تُخيم بظلالها علينا. سأتخلَّص منها في الوقت المناسب — ولكن قد تحدث أشياءُ أخرى أولًا.»

قالت وهي تنظر إليه بوجهٍ يعتليه تعبيرٌ حائر: «أنت تتعامل مع الأمور بجِدِّيةٍ بالغةٍ يا إيفرارد.» وأردفت قائلةً: «قد يحسب المرء أن ثمة جانبًا من حياتك، وجانبًا مهمًّا للغاية، تحتفظ به تمامًا لنفسك. لماذا يتجوَّل معك دائمًا ذلك الرجل القصير المضحك سيمان؟ هل تتعرض للابتزاز أو أي شيء؟»

قال لها: «على العكس، كان سيمان أولَ مَن أسَّس ثروتي.»

هزت كتفَيها.

قالت: «لقد جنيتُ القليلَ من المال مرةً أو مرتين في البورصة، ولكن لم يكن يتعين عليَّ أن أصطحبَ الوسيط الخاص بي في كل مكان بعد ذلك.»

«سيمان رجل طيب القلب، ويُحب الرفقة. سوف يرحل بعد قليل، ولن أراه لمدة طويلة.»

اختتمَت حديثها بطريقة جافَّة: «بدأ هنري يتساءل عما إذا كنت ستترشح للبرلمان للائحة مرشَّحي التحالف الإنجليزي-الألماني.»

ضحك دوميني عندما رأى نظرة ميدلتون الموبِّخَة في مدخل المطبخ الذي كانا يجلسان فيه. وأشار بالنهوض.

اعترف قائلًا: «كانت لديَّ بعض الأفكار بشأن البرلمان، لكن — حسنًا، لا داعي لأن يقلق هنري.»

الفصل الرابع والعشرون

شهد الصباحُ التالي تفكُّكَ مجموعةِ الصيد التي نظَّمها دوميني بعناية. وأخذ الأمير ذراعَ مضيفه وقاده إلى أحد الجوانب لبضع لحظات أثناء تحميل السيارات. كانت كلماته الأولى عبارةً عن شكرٍ رسمي. ثم تحدَّث بشكلٍ أكثرَ حميمية.

قال: «فون راجاشتين، أرغب في الرجوع للحظة إلى حديثنا في ذلك اليوم.»

هز دوميني رأسه ونظر إلى الخلف.

وقال: «لديَّ اسمٌ واحد فقط هنا، أيها الأمير.»

«دوميني إذن. سأعترف بأنك تلعب الدورَ وتُنفِّذه تنفيذًا مثاليًّا. لقد عرَفت سادةً إنجليزًا طوال حياتي، ويبدو أنك بارع في الأمر. ولكن عليك أن تُنصت لما سأقوله لك. لقد أخبرتك بالفعل عن رفضي لهذا المخطَّط الذي ستكون فيه الشخصيةَ المحورية.»

وافق دوميني: «هذا مفهوم.»

تابع الأمير: «تلك مسألة شخصية. ما سأقوله لك الآن أمرٌ رسمي. لقد تلقَّيت تقاريرَ من برلين الليلة الماضية. إنها تتعلَّق بك.»

بدا دوميني متخشبًا قليلًا.

«حسنًا؟»

تابع السفير: «لقد فهمت أنك هنا فعليًّا من أجل احتمالية وقوع تلك الكارثة التي لا أستطيع توقُّعَها. أنا متأكدٌ من أنه إذا كان من الضروريِّ الإفصاحُ عن حقيقتك في أي وقت، فسيُعتبَر تجسيدك للشخصية مهمةً خاصة، ولا يوجد أي شيء على الإطلاق يربطك بأي عمل سياسي.»

وافق دوميني على ذلك بقوله: «الأمر كذلك فعلًا حتى الوقتِ الحاضر.»

«أُبلِغتُ أيضًا بأن أعتبرك خليفتي المجهولَ وغيرَ المتصوَّر هنا، في حالة نشوب حرب. لهذا السبب طلبوا مني أن أبدأ بتوطيد علاقتي بك، وأن أتعامل معك بأقصى درجات الثقة، وإذا حلَّت النهاية السوداء، أن أترك بين يدَيك كل هذا العمل غير المنجَز الذي يمكن أن يستمرَّ في سرية وصمت. لعلي أعبِّر عن الأمر بطريقة مرتبكة إلى حدٍّ ما.»

أجاب دوميني: «أنا أفهم تمامًا.» وتابع قائلًا: «لقد غيَّرت السلطاتُ فكرتَها الأولى فيما يتعلق بوجودي هنا. إنهم يريدون إبعادَ أيِّ شك عني، حتى يكون لديَّ في حالة الحرب وضعٌ فريد تمامًا، ألماني غير متصوَّر انتماؤه، ولكنه وطني بحماس، يعيش جنبًا إلى جنبٍ مع الطبقات العليا في المجتمع الإنجليزي. يمكن للمرء أن يتخيلَ أنه سيكون ثمة عملٌ لي.»

أوضح تيرنيلوف: «فهمُنا متبادَل.» وأضاف قائلًا: «لذلك ما يجب أن أقوله لك هو أنني أتمنى أن تلحق بنا قريبًا إلى لندن وتمنحَني فرصة أن أقدِّم لك كرمَ الضيافة المستمر في كارلتون هاوس جاردنز.»

قال دوميني: «هذا لطفٌ بالغ منك، أيها الأمير.» وأضاف قائلًا: «التعليمات التي لديَّ هي الاستقرار في لندن وانتظارُ الأوامر، بمجرد أن أرسِّخ وضعي هنا — وهو أمرٌ أتصوَّر أنني قد حقَّقته. أنا على ثقةٍ من أنك ستسمح لي، من بين أمورٍ أخرى، بفحص المذكرات التي تحدثتَ عنها في ذلك اليوم.»

وافق السفير على ذلك قائلًا: «بالطبع، وبكل سرور.» وأضاف قائلًا: «إنها تسجيلٌ دقيق لمقابلاتي ومفاوضاتي مع وزراءَ معيَّنين هنا، وهي تعكس رغبةً ونية في السلام أظن أنها ستدهشك. أجرؤ الآن على طرح سؤالٍ حساسٍ إلى حدٍّ ما» تابع، مغيِّرًا موضوع محادثتهما فجأةً، وهما يعودان إلى الشرفة. «هل ستُرافقك الليدي دوميني؟»

أجاب دوميني بتفكُّر: «لستُ متأكدًا من ذلك.» وأضاف قائلًا: «لقد لاحظت، أيها الأمير، إذا سمحت لي بقول ذلك، احترامك النبيل لتلك السيدة. اسمح لي أن أؤكد لك أنه على الرغم من الوضع الغريب الذي أنا فيه لن أنسى أبدًا أنها زوجةُ إيفرارد دوميني.»

صافحه تيرنيلوف بحرارة.

واعترف: «أردتُ أن أسمع ذلك منك.» وأضاف قائلًا: «لقد شعرتُ بغريزتي أنك مختلف، لكن العديد من الرجال من عِرقنا مستعدُّون للتضحية بامرأةٍ دون أدنى تردُّد، سواءٌ من أجل شغفهم أو سياستهم. أجد الليدي دوميني فاتنة.»

أعلن دوميني: «سأكون حاميًا لها دومًا.»

كان ثَمة المزيد من عبارات الوداع، وبعد مدة وجيزة، انطلق موكبُ السيارات الصغير مبتعدًا. كانت روزاموند في الشرفة، تودِّع جميع ضيوفها. تشبَّثت بذراع دوميني عندما عادا أخيرًا إلى القاعة الفارغة.

هتفَت: «يا لهم من أناسٍ أعزاء، يا إيفرارد!» وأردفت قائلةً: «أتمنى لو أنني كنتُ قد أمضيت المزيدَ من الوقت معهم. رأيت الدوقة فاتنةً جدًّا، ولم أقابل قطُّ شخصًا يتمتع بأسلوب لطيف مثل الأمير تيرنيلوف. هل ستفتقدُهم كثيرًا يا عزيزي؟»

أجاب: «على الإطلاق.» وتابع قائلًا: «أظن أنني سآخذ بندقيةً الآن وأتنزَّه في المروج وعبر الأرض الوعْرة. هل ستأتين معي، أم سترتدينَ ثوبًا من أثوابك الجميلة وتستقبلينني في الطابَق السفلي على الغداء؟ لقد مضى وقتٌ طويل جدًّا منذ أن تناولنا وجبةً معًا بمفردنا.»

هزَّت رأسها بقليلٍ من الحزن.

أجابت: «لم نحظَ بها من قبل.» وأضافت قائلةً: «أنت تعرف ذلك، يا إيفرارد، وللأسف! أنا أعلمُه. لكننا سنستمرُّ في التظاهر، أليس كذلك؟»

رفع أصابعَها إلى شفتيه وقبَّلها.

وقال واعدًا: «عليك أن تتظاهَري بكلِّ ما تُحبينه، يا عزيزتي روزاموند، وسألبِّي رغباتكِ. لا! لا دموع!» أضاف بسرعةٍ وهي تولِّيه ظهرها. «تذكَّري أنه لا يوجد شيءٌ سوى السعادةِ لكِ الآن. بغضِّ النظر عن هُويتي، ذلك هو هدفي الوحيد في الحياة.»

قبضَت على يده بشغف، وفجأةً، كأنما لم تجدها كافية، لفَّت ذراعيها حول رقبته وقبَّلته.

توسَّلت: «دعني آتي معك.» وأضافت قائلةً: «لا يمكنني تحمُّلُ تركك تذهب. سأكون هادئةً جدًّا. هلا تنتظر عشر دقائق من أجلي؟»

أجاب: «بالطبع.»

سار نحو غرفة الأسلحة، ووقف بجانب المدفأة للحظة، ثم تجوَّل في الفِناء، حيث كان ميدلتون وبعضٌ من مُثيري الطرائد ينتظرونه مع الكلاب. توقَّف فجأةً قبل أن يخطوَ بخطوة واحدة نحوَهم. أذهله أن سيمان كان يقف هناك في أحد الجوانب، وعيناه مثبَّتتان على نوافذِ مهجع الخدم.

صاح: «مرحبًا يا صديقي!» وأردف قائلًا: «عجبًا، ظننت أنك رحلت مبكرًا بالقطار من محطة ثيرزفورد؟»

أجاب سيمان وهو ينظر نحو مثيري الطرائد: «فاتني بدقيقتين.» وتابع قائلًا: «كنت أعرف أن جميع العربات كاملةُ العدد حتى الساعة الحادية عشرة؛ لذلك ارتأيت أن أنتظر حتى بعد الظهر.»

«وأين كنت في الساعات القليلة الماضية، إذن؟»

كان سيمان قد صار إلى جانبه حينئذٍ وكان بعيدًا عن مسْمَع الآخرين.

«كنتُ أحاول حلَّ لغز رحيل يوهان وولف المفاجئ الليلة الماضية. تعالَ وسِر معي مسافةً قصيرة.»

«مسافة قصيرة جدًّا، إذن. فأنا أنتظر الليدي دوميني.»

مرَّا عبر البوابات الحديدية الرفيعة، وسارا باتجاه أحد المداخل الخلفية للقصر.

قال سيمان: «لا تعتبرني طائشًا.» وتابع قائلًا: «عُدتُ دون علم أحد، وابتعدتُ عن الطريق حتى ذهبوا جميعًا. إنه ما قلته لك من قبل. الأشياء التي لا أفهمها تُضايقني، ويا للمفاجأة! وجدتُ هذا الصباح دليلًا ذا أهميةٍ إضافية في رحيل وولف المفاجئ.»

رجاه دوميني قائلًا: «تابِع.»

«علمتُ هذا الصباح، عن طريق الصدفة البحتة، أن خادم السيد بيلهام؛ إما كان مخطئًا أو خدَعني عن عمد. لم يُرافق وولف كبيرَ خدَمِك إلى المحطة.»

سأل دوميني: «وكيف اكتشفتَ ذلك؟»

«هذا غيرُ مهم! المهم هو أن ثَمة مؤامرةً بين الخدَم هنا لإخفاء كيفية مغادرته. لا تُقاطعني، أرجوك! في وقتٍ مبكر من صباح اليوم، كان هناك تساقطٌ جديد للثلج اختفى الآن. خارج نافذة الغرفة التي وجدتها مغلقةً كانت توجد آثارُ أقدام وسيارة صغيرة.»

سأل دوميني: «وماذا تستنتج من كلِّ هذا؟»

أجاب سيمان: «استنتج أنه لا بد أن وولف كان لديه أصدقاءُ في الجوار، أو أنه ...»

«ماذا؟»

اعترف سيمان قائلًا: «يبدو افتراضي الأخيرُ سخيفًا، لكن الأمر برُمَّته غيرُ مفهوم لدرجةِ أنني كنت سأقول — أو أنه أُبعِد بالقوة.»

ضحك دوميني بصوتٍ خفيض.

وعلَّق: «من الصعب اختطافُ وولف، أليس كذلك؟» وتابع قائلًا: «حتى لو استطعنا الوصولَ إلى أي سببٍ معقول لشيءٍ كهذا! في الحقيقة، يا سيمان» أنهى كلامه وهو يستدير بشكلٍ مفاجئ عندما رأى روزاموند تقف بالخارج، «لا يُمكنني أن أحمل نفسي على التعامل

مع مسألة يوهان وولف هذه بجدِّية. من المسلَّم به أن الرجل كان جاسوسًا، حسَنًا، دعْه يُواصل ما يفعل. نحن نؤدي عملَنا هنا بأكثرِ طريقة مثالية وجديرة بالثناء. لا أحدَ منا لديه سرٌّ يُخفيه عن رؤسائه.»

اعترف سيمان «هذا صحيحٌ نوعًا ما.»

قال له دوميني: «حسنًا، إذن، ابتهج.» وتابع قائلًا: «تمشَّ قليلًا معنا، وسنرى ما إذا كان باركنز يستطيع أن يعثر لنا على زجاجةٍ من هذا البورجندي المعتَّق على الغداء. ما رأيك في هذا؟»

توسَّل سيمان: «أعفِني من المشي، أودُّ أن أبقى هنا حتى عودتك.»

ذكَّره دوميني: «من المرجَّح أن ترتكب خطأً ما، وتُعطيَ للخدم موضوعًا يتحدَّثون بشأنه، إذا أبديتَ اهتمامًا كبيرًا باختفاء هذا الرجل.»

وعَده سيمان: «سأكون حذرًا، لكن ثَمة أشياء معيَّنة لا يمكنني ألا أفعلها. أنا أتبع دائمًا غريزتي، وغريزتي لا تُخطئ أبدًا. لن أطرحَ المزيد من الأسئلة على الخدم، لكنني أعلم أن ثمة شيئًا غامضًا بشأن الرحيل المفاجئ ليوهان وولف.»

عاد دوميني وروزاموند في نحو الساعة الواحدة ليجدا ملاحظةً من سيمان، فتحها الأول بينما كانت رفيقته تقف تدفئ قدمَيها أمام المدفأة. لم يكن فيها سوى بضعةِ أسطر:

«أنا أتبع فكرة. إنها تأخذني إلى لندن. دعنا نلتقِ هناك في غضون أيامٍ قليلة.»

إس

سألت روزاموند: «هل غادر حقًّا؟»

«عاد إلى لندن.»

ضحكَت بسعادة. «إذن سنتناول الغداء «معًا» أخيرًا! رائع! لقد تحقَّقت أمنيتي!»

كان ثَمة توهجٌ مفاجئ في وجه دوميني، توهُّج أُخْمِد على الفور.

سأل، بجزعٍ خفيف غريب في صوته: «هل سأحظى أنا أيضًا بأمنيتي يومًا ما؟»

الفصل الخامس والعشرون

كان تيرنيلوف ودوميني يسترخيان، صباحَ أحد الأيام بعد ستة أشهر تقريبًا، تحت شجرة دردارٍ كبيرة في رانيلا، ويتناولان مشروباتٍ مثلجةً بعد لعب جولةٍ من الجولف. في الوقت ذاتِه كان عدةُ ملايين من الإنجليز يتصبَّبون عَرقًا وهم يتفحَّصون بدهشة وذهول عناوينَ صحف منتصف النهار.

قال السفير، وهو يميلُ بكسلٍ إلى الخلف على كرسيِّه: «أفترض أنني أُتَّهَمُ بتجاهل الأحداث المهمةِ الجارية الآن.»

ردَّ دوميني بهدوء: «بالتأكيد لا يملك أحدٌ الثقة التي تشعر بها تجاه الموقف.»

ذكَّره تيرنيلوف قائلًا: «لا يعلم أحدٌ مقدارَ ما أعلم.»

ارتشف دوميني شرابَه للحظة أو اثنتين في صمت.

وسأل: «هل لديك آخرُ أخبار التعبئة الروسية؟» وتابع قائلًا: «كان لديهم بعضُ الأرقام المذهلة في المدينة هذا الصباح.»

لوَّح الأمير بيده.

وأجاب: «إيماني لا يقوم على هذه الحوادثِ القليلةِ الأهمية.» وتابع قائلًا: «إذا حشدَت روسيا قوَّاتها، فهذا من أجل الدفاع. لا توجد دولةٌ في العالم تحلم بالهجوم على ألمانيا، وليس لدى ألمانيا أيُّ نية في تعريض سيادتها المتنامية بين الدول للخطر بأساليبَ مبتذلة من قَبيل المغامرات العسكرية. يجب معاقبةُ صربيا، بالطبع، ولكن لفعل ذلك، يجب أن تتفقَ كلُّ دولة في أوروبا مبدئيًّا. لن نسمح للنمسا بتجاوز الحدود.»

قال دوميني: «على الأقلِّ أنت ثابت على مبدئك أيها الأمير.»

ابتسم تيرنيلوف.

وقال: «هذا لأنني كنتُ وراء الكواليس.» وتابع قائلًا: «لقد اطلعت على عقلِ حُكامنا، وهذا من امتيازاتِ كَوني سفيرًا. أنت، يا صديقي»، تابَع: «أمضيتَ شبابك وسط الفصيل العسكري. أنتم تظنُّون أنكم أهمُّ أشخاص في ألمانيا. حسنًا، أنتم لستم كذلك. إرادة القيصر كانت خلاف ذلك. بالمناسبة، لقد تلقَّيت أمسِ برقيةً في غاية الغرابة من ستيفاني.»

توقَّف دوميني عن أرجحة مضربه بلا مبالاةٍ فوق رأس زهرة أقحوان وأدار رأسه ليُصغي.

«هل هي في طريقِها إلى الوطن؟»

«من المفترض أن تكون في ساوثهامبتون في أيِّ لحظة الآن. إنها تريد أن تعرف أين يُمكنها رؤيتي فور وصولها؛ لأن لديها معلوماتٍ ذاتَ أهمية قُصوى لي.»

«هل أخبرَتْك يومًا عن سببِ رحلتها إلى أفريقيا؟»

«كانت غامضةً للغاية حيال ذلك. إذا كان لمثلِ هذه الفكرة أيُّ نتيجة منطقية، لظننت أنها ذاهبةٌ إلى هناك للحصول على معلوماتٍ عن ماضيك.»

علَّق دوميني: «لقد أعطت الفكرةَ ذاتها لسيمان.» وتابع قائلًا: «لا يُمكنني أن أفهم ما الذي ستَجْنيه من ذلك. في أفريقيا، في واقع الأمر»، تابع قائلًا: «ستتحمَّل حياتي أشدَّ التحقيقات صرامة.»

أعلن الأمير: «الأمر برُمَّته ينطوي على حماقة غريبة، ومع ذلك، لستُ متأكدًا من أنك كنتَ حكيمًا تمامًا. حتى مع قَبول وضعك، لا أرى أيَّ سبب يمنعك من إطاعة أوامر القيصر. ومن خبرتي في مجتمعك هنا، أن العلاقات الغرامية بين الرجال والنساء من الدوائر نفسِها أمرٌ شائع.»

دافع دوميني: «هذا يحدث عندما يتحلَّون جميعًا بالصفات السيئة ذاتها. كنتُ مذنبًا بما فيه الكفاية في سلوكي تجاه الليدي دوميني. إن معاملتها كزوجةٍ مُهمَلة أمرٌ لا يمكن الدفاع عنه. علاوةً على ذلك، كان من الممكن أن يؤثر ذلك على الوضع الذي يجبُ أن أحافظ عليه هنا لمصلحة عملي.»

تنهَّد السفير قائلًا: «هذا موضوعٌ قديم، من الأفضل عدمُ إعادة مناقشته.» وتابع قائلًا: «ها قد أتت زوجتانا!»

كانت روزاموند والأميرة قد خرَجتا من المنزل، وسارع الرجلان لمقابلتهما. بدَت الأخيرة فاتنةً بملابسها الرائعة ومظهرها الفخم. إلى جانبها، بدَت روزاموند وكأنها طفلة؛ إذ كانت ترتدي أزياءَ فخمة مثلها، ولكن تُناسب مَن هم أصغر سنًّا. دخلوا غرفة الغداء، التي كانت

تعجُّ بالعديد من المجموعات الصغيرة من الأشخاصِ المتميِّزين المثيرين للاهتمام، وتتألَّق بالزيِّ الأحمر للنُّدُل، ووفرةٍ من الزهور — كل تلك الأناقة التي لا تُوصَف والتي جعلت المكانَ الأكثرَ شهرةً في المجتمع. طرحت المرأتان، عندما استقرَّتا في مكانهما، سؤالًا كان على شِفاه عددٍ كبير من الإنجليز في ذلك اليوم.

«هل توجد أيُّ أخبار؟»

ربما شعر تيرنيلوف أنه كان محطَّ أنظار العديد من العيون المتلهِّفة والقلقة. فابتسم بلا مبالاةٍ وهو يُجيب:

«لا شيء. إذا كان ثَمة أخبار، فأنا مقتنعٌ بأنها ستكون جيدة. لقد سُمِحَ لي بالخوض في كفاحي العظيم ضد السير إيفرارد دون مقاطعة.»

سألت الأميرة: «أفترض أن السؤال المهمَّ التاليَ لاحتمالية وجود سلام أم حرب هو كيف لعبت؟»

أجاب زوجُها: «لقد تفوَّقت على نفسي، ولكن بالطبع لا يوجد لاعب جولف عاديٌّ يستطيع أن يهزم دوميني. إنه يلعب أفضلَ بكثير من أيِّ ألماني تقليدي ...»

قطع السفيرُ حديثه وتوقَّف بينما كان يُحضِر المايونيز.

واختتم حديثَه قائلًا: «من أي ألماني تقليدي يلعب ضدَّه.»

كانت وجبة الغداء وجبةً لذيذة للغاية، ولاحظ الكثير من الناس حيوية الليدي دوميني الجميلة التي بدأت صورُها تظهر في الصحف المصوَّرة. بعد ذلك شربوا القهوةَ والمشروبات الكحولية تحت شجرة الدردار الكبيرة على العُشب، واستمعوا إلى الموسيقى وهنَّئوا أنفسهم على هروبهم من لندن. كان يوجد العديدُ من الوجوه المألوفة في المشهد المتغيِّر باستمرار لنساء يرتدين ملابسَ مبهجةً ورجال يرتدون ملابسَ مريحة؛ ذلك المشهد الذي تتنوَّع رتابته من حينٍ لآخر بمرور دبلوماسي أو رجل فرَنسي، يرتدي ملابسَ الصباح بعناية. لوَّحَت لهم كارولين ومجموعةٌ صغيرة من الأصدقاء من الشُّرفة. توقف إيدي بيلهام، الذي كان يرتدي ملابسَ ناصعة البياض ومعطفَ تنس طويلًا بحوافَّ زرقاء داكنة، للحديث معهم وهو في طريقه إلى الملاعب.

سأل دوميني، مع تألُّقٍ في عينيه: «كيف هي تجارة السيارات، إيدي؟»

«لا بأس بها! لم أعُد أهتمُّ بها كما كنتُ من قبل. لِأقلْ لك الحقيقة»، قال الشابُّ، وهو يُلقي نظرةً خاطفة حوله ويخفض صوته حتى لا يُشارك أيُّ شخص المعلومات المهمة: «لقد كنت محظوظًا بما يكفي للحصول على حصةٍ صغيرة في إسطبل سباق جيري مور في

نيوماركت، في ذلك اليوم. أتصوَّر أن ما أعرفه عن الخيول أكثرُ قليلًا مما أعرفه عن الأجزاء الداخلية للسيارات، أليس كذلك؟»

وافق دوميني قائلًا، بينما كان الشابُّ يودِّعه: «أظن أنه من المحتمل جدًّا أنك محق.»

نظر إليه تيرنيلوف بفضول.

أوضح: «هذا هو نوع الشباب الذي لا يُمكننا أن نفهمه. ماذا سيحدث له في حالة حدوث حرب؟ في حال دعوته، على سبيل المثال، للقتال أو القيام ببعض الأعمال ذاتِ الأهمية الوطنية لبلده؟»

أجاب دوميني: «أتوقَّع أن يفعل ذلك.» وتابع قائلًا: «سيفعله بشجاعةٍ، وإخلاص، وجدِّية. إنه نوعٌ من الشباب الإنجليزي المنتمي للطبقة العُليا، يتميز بالتفاؤل المفرط وعدم الانضباط على الإطلاق. إنهم يتوقَّعون، وتتوقَّع بلادُهم أن تحلَّ الشجاعةُ محل التدريب في حالة الطوارئ.»

وقف الرايت أونرابل جيرالد واتسون على الدَّرَج يتحدث إلى زوجة السفير الإيطالي. تركته بعد وقتٍ قصير، وجاء يتمشَّى على العُشب ويداه خلف ظهره وعيناه تبدوان وكأنهما ترَيان ما وراء مسارات الجولف.

غمغمَ تيرنيلوف: «ها هو ذا رجلٌ وجدتُ مؤخرًا أنه قد تغيَّر. عندما جئت إلى هنا أولَ مرة، قابلني بانفتاحٍ تام. أعتقد، حتى في الوقت الحاليِّ، أنه يرغب بصدقٍ في السلام والعلاقات الودية بين بلدَينا، ومع ذلك فقد وقع شيءٌ بيننا. لا أستطيع أن أعرف ما هو. لا أستطيع حتى أن أقول ما طبيعته، لكن لديَّ موهبة فِطرية في معرفةِ موقف الناس تجاهي، والإنجليز هم أسوأ عِرق في العالم في إخفاء مشاعرهم. أتساءل ما إذا كان السيد واتسون قد وقَع تحت تأثير سحرِ صديقك، دوق ورسستر؟ لقد بدا وَدودًا للغاية معنا في نورفولك.»

ترَكتْهما زوجتاهما في تلك اللحظة للتحدث إلى بعضٍ من معارفهما الذين كانوا يجلسون على مسافة قصيرة. توقَّف السيد واتسون، الذي كان يمر على بُعد بِضع ياردات منهما، لتحية دوميني. وتحدَّثا للحظة أو اثنتين حول مواضيع فارغة.

أشار السفير، ملتزمًا بآداب السلوك التي تتطلَّب منه أن يكون أولَ مَن يترك مجالات الحديث العادي: «أثقُ في أن أخبارك ما زالت إيجابية؟»

أجاب الآخر بعد لحظةِ تردُّد: «إنها سلبية بعضَ الشيء.» وتابع قائلًا: «استُدعِيتُ إلى داوننج ستريت مرةً أخرى في الساعة السادسة.»

علَّق تيرنيلوف: «لقد أفضيتُ بالفعل إلى رئيس الوزراء بنتيجة تقاريري الصباحية.»

كان الردُّ المتردد إلى حدٍّ ما: «لقد اطلعت عليها قبل أن آتيَ إلى هنا.»

سأل تيرنيلوف بقلق: «آمُل أنك قدَّرت أسلوبها الهادئ بصدق؟»

انحنى محاورُه ثم نصَب قامته. كان من الواضح أن توتُّر الأيام القليلة الماضية كان ظاهرًا عليه. فقد كانت توجد خطوط حول فمِه، وبدا أن عينَيه لم تهنآ بالنوم لليالٍ.

قال: «الكلمات أشياءُ تافهة لا تستحقُّ التعاملَ معها في وقتٍ مثل هذا.» وتابع قائلًا: «ومع ذلك، سأجرؤ على قولِ شيء واحد لك، أيها الأمير، هنا وفي ظلِّ هذه الظروف. لن تحدث حربٌ ما لم تكن هذه إرادة بلدك.»

للحظةٍ علا وجهَ تيرنيلوف شحوبٌ غيرُ عادي. لقد كانت واقعةً تاريخية غير مسجَّلة. نهض واقفًا ورفع قبعته.

وقال بجدِّية: «لن تحدث حرب.»

تحرَّك الوزير بخفَّة. فهِم دوميني، على نحوٍ أكثرَ وضوحًا من أي وقتٍ مضى، السياسةَ الماكرة التي اختارت لمنصبِه العظيمِ رجلًا شهمًا ومخلصًا، ومع ذلك بسيط التفكير، مثل تيرنيلوف. ألقى نظرةً على الوزير المنسحِب بابتسامة خفيفة على شفتَيه.

علَّق باهتمام: «في وقتٍ مثل هذا، يبدأ المرء في فَهم لماذا كتب أحدُ كتَّابنا العظماء — هل كان برنهاردي، يا تُرى؟ — أنه لا يمكن مطلقًا لجزيرةٍ أن تُنجب عِرْقًا من الدبلوماسيين.»

قال السفير بتمعُّن: «لقد جلبَت البحارُ التي تحيط بهذه الجزيرة الرخاءَ للإنجليز، وقد تجلب لها المِحَن. إن عقل الرجل الدبلوماسي شديد الذكاء لا يثقُ في الأشخاص الذين يبدو أنه يحرس مصالحَهم. أنا أومن بصدق السياسيين الإنجليز، وسجَّلتُ هذا الاعتقادَ في مذكراتي الصغيرة التي سأعهد بها إليك بعد وقتٍ قصير. لكننا نتحدَّث في أمورٍ جادةٍ أكثرَ مما ينبغي إلى وقتٍ ما بعد الظهيرة في يومٍ صيفي. دعنا نوضِّح للعالم رأينا في الوضع السياسي ونلعب جولةً أخرى من الجولف.»

نهض دوميني طوعًا على قدميه، وسار الرجلان بعيدًا نحو نقطة الانطلاق الأولى.

سأل تيرنيلوف، «بالمناسبة، ماذا عن صديقنا الصغير المبتهج سيمان؟ لا بد أنه مشغول الآن.»

أعلن دوميني: «من الغريب أنه عائدٌ من ألمانيا الليلة.» وتابع قائلًا: «سأقابله في ساحة بيركلي. إنه قادم إليَّ مباشرةً.»

الفصل السادس والعشرون

لجميع سكان لندن، كانت هذه أيامًا ذاتَ انطباعات حية، وذكريات مؤثِّرة، تُعزز لديهم بعد ذلك شعورًا غريبًا بعدم الواقعية، وكأنهم ينتمون إلى أيام أخرى وعالم آخَر. تذكَّر دوميني مدةً طويلة عَشاءه في ذلك المساء في غرفة الطعام الكئيبة والمفروشة بأناقةٍ في منزله بالمدينة في ساحة بيركلي. وعلى الرغم من أنها كانت تفتقر إلى الأبعاد المهيبة لقاعة المآدب في قصر دوميني، كانت لا تزال جَناحًا رائعًا، مفروشًا على طِراز العصر الجورجي، مع بعض الصور البارزة على الجدران، وسقفٍ ومدفأة رائعَين. تناول كلٌّ من دوميني وروزاموند العشاء بمفردهما، وعلى الرغم من تقليص المائدة إلى أصغر أبعادها، كانت المسافة بينهما لا تزال كبيرة. ما إن وضع باركنز نبيذ البورت على الطاولة بوقار، حتى نهضت روزاموند، وبدلًا من مغادرة الغرفة، أشارت للخادم أن يضع لها كرسيًّا بجانب دوميني.

وصرَّحَت: «سأكون مثل أصدقائك من الرجال، يا إيفرارد، عندما تغادر السيدات، وتجلسون على انفراد. الآن ماذا نفعل؟ نسرد القصص؟ أعدُك أنني سأكون مستمعة رائعة.»

قال لها وهو يملأ كأسها: «بادئ ذي بدء، تشربين نصف كوبٍ من نبيذ البورت، ثم تُقشرين لي إحدى ثمرات الخوخ تلك، ونقسمها. بعد ذلك نستمع لرنين الجرس. فأنا أتوقَّع زائرًا الليلة.»

«زائر؟»

طمأنَها: «ليس لمناسبةٍ اجتماعية.» وتابع قائلًا: «إنها مسألة عمل أخشى أن تأخذَني منكِ بقية المساء. لذلك دعينا نستفِدْ إلى أقصى حدٍّ من الوقت حتى يأتي.»

بدأت مهمَّتها مع الخوخ، وتحدَّثت إليه طوالَ الوقت بقليلٍ من الجدية، صورة حلوة وخلَّابة لامرأة رشيقة ومحبوبة للغاية، برزَت هيئتها الحساسة ورقَّتها الجميلة أكثرَ من أي وقتٍ مضى بسبب كآبة الخلفية.

قالت: «أتعرف، يا إيفرارد، أنا سعيدة جدًّا في لندن هنا معك، وأشعر طوال الوقت بالقوة والصحة. يمكنني قراءة وفَهم الكتب التي كان يصعُب عليَّ فهمُها من قبل. أستطيع أن أرى الأشياء في الصور، وأشعر بإثارة الموسيقى، التي بدَتْ لي، بطريقةٍ ما، قبلئذٍ، مشوشةً ومتنافرة. هل تفهم يا عزيزي؟»

أجاب بجدِّية: «بالطبع.»

استطردَت قائلة: «لا عجب أن الدكتور هاريسون فخورٌ بي بصفتي مريضة، ولكن في مرات كثيرة أشعر بألمٍ خفيف في قلبي؛ لأنني أعرف أنني لم أتعافَ تمامًا، بغض النظر عما قد يقوله هو أو أي شخص آخر.»

احتجَّ قائلًا: «روزاموند عزيزتي.»

أصرَّت قائلة وهي تضع نصيبه من الخوخ في طبقه: «آه، لا تُقاطعني.» وأضافت قائلةً: «كيف يمكنني أن أتعافى وطوال الوقت لديَّ المشكلة المتمثِّلة فيك، المشكلة التي يصعُب عليَّ حلُّها أكثر من أي وقتٍ مضى؟ في كثير من الأحيان أجد نفسي أقارنك بإيفرارد الذي تزوجته.»

سأل: «هل أفشل كثيرًا في الوصول إلى مستواه؟»

أجابت وهي تنظر إليه بعيونٍ دامعة: «لا تفشل أبدًا.» تابعتْ بعد توقُّف للحظة: «بالطبع، كان أكثرَ حنانًا. لم تكن قبلاته مثل قبلاتك. وكان مولعًا جدًّا بوجودي معه. ثم، من ناحية أخرى، في كثير من الأحيان عندما كنت أريده لم يكن موجودًا، كان يفعل أشياءَ جامحة، أشياء مجنونة؛ بدا وكأنه نسيني تمامًا. كان ذلك»، استطردَت: «كان ذلك فظيعًا للغاية. كان ذلك ما جعلني متوترةً للغاية. أظن أنه كان بوسعي أن أكون قادرةً على تحمُّل تلك اللحظات الفظيعة عندما عاد إليَّ مغطًّى بالدماء ويترنَّح، لولا أنني كنت بالفعل على وشك الانهيار. كما تعلم، لقد قتل روجر أنثانك في تلك الليلة. هذا هو السبب في أنه لم يتمكَّن من العودة.»

توسَّل دوميني: «لماذا تتحدثين عن هذه الأشياء الليلة، يا روزاموند.»

أصرَّت قائلة وهي تضع أصابعها على يده وتنظر إليه بفضول: «يجب أن أفعل، يا عزيزي.» وأضافت قائلةً: «يجب أن أفعل، على الرغم من أنني أرى كم تزعجك. إنه لأمرٌ رائع أن تهتمَّ كثيرًا، يا إيفرارد، لكنك تفعل ذلك، وأنا أحبك لذلك.»

تأوه: «أهتم؟» وأجاب: «أهتم!»

تابعتْ وهي تفكِّر: «أنت تشبهه كثيرًا ومع ذلك أنت مختلفٌ عنه جدًّا.» وأضافت قائلةً: «فأنت تشرب القليل من النبيذ، ودائمًا تتحكَّم في نفسك، وجادٌّ جدًّا. وتعيش كما لو أنه كان لديك حياةٌ لا يعرف عنها الآخرون شيئًا. ما كان إيفرارد الذي أتذكَّره سيهتمُّ أبدًا بكونه قاضيًا أو بأن يترشَّح في البرلمان. كان سيقضي وقته في السباق أو ركوب اليخوت أو الصيد أو إطلاق النار، كما يحلو له. ومع ذلك ...»

سأل دوميني بصوتٍ أجشَّ قليلًا: «ومع ذلك ماذا؟»

قالت بحزن شديد: «أظن أنه كان يحبني أكثر منك.»

سأل: «لماذا؟»

أجابت وعيناها على طبقها: «لا أستطيع أن أخبرك، لكني أظنُّ أنه كان كذلك.»

سار دوميني فجأةً نحو النافذة وأطلَّ منها. كانت توجد قطرات من الرطوبة على جبهته، وشعر بالحاجة الماسَّة إلى الهواء. عندما عاد كانت لا تزال جالسةً هناك، ولا تزال تنظر إلى أسفل.

تابعت، وصوتها بالكاد مسموع: «لقد تحدثتُ إلى الدكتور هاريسون حول هذا الموضوع.» وأضافت قائلةً: «أخبرني أنك ربما أحببتني أكثرَ مما تجرأت على أن تُظهِر لي؛ لأنه في يومٍ من الأيام قد يعود إيفرارد الحقيقي.»

ذكَّرها بصوتٍ خفيض: «هذا صحيح تمامًا.» وتابع قائلًا: «قد يعود في أي لحظة.»

أمسكَت بيده، وارتعش صوتها بشغف. ومالت نحوه، والتفَّت ذراعها الأخرى حول رقبته.

وبكت: «لكنني لا أريده أن يعود!» وأضافت قائلةً: «أريدك أنت!»

جلس دوميني للحظة بلا حَراك، مثلَ تمثال من الحجر. من خلال النوافذ الكبيرة المغطاة بالستائر جاءت صيحةٌ صاخبة من بائع الصحف، كاسرةً سكونَ الأمسية الصيفية. ثم حدثت مقاطعةٌ أخرى أكثرُ حدة؛ حيث توقَّفت سيارة أجرة بالخارج، ورنَّ جرس الباب الأمامي بقوة وإصرار. عادت إلى دوميني ذاكرتُه، وقوةٌ كبيرة. وأطفأ النار التي كانت قد اندلعت بداخله. كان ردُّه على موجة شغفها رقيقًا بلا حدود.

قال: «عزيزتي روزاموند، إن جرس الباب الأمامي يستدعيني إلى مقابلةٍ مهمةٍ نوعًا ما. هل يمكنك أن تثقي بي مدةً أطولَ قليلًا؟ صدِّقيني، أنا لستُ باردَ المشاعر بأي حال من الأحوال. أنا لستُ غيرَ مبالٍ. ثمة أمرٌ يجب أن أخبركِ به، أمرٌ لم أتصوَّره أبدًا، أمرٌ بدأ يثقل كاهلي ليلًا ونهارًا. ثقي بي، يا روزاموند، وانتظريني!»

غاصت مرةً أخرى في كرسيها بقليل من التجهم الفاتن المثير للشفقة.

اشتكَت قائلة: «تقول لي دائمًا أن أنتظر.» وأضافت قائلةً: «سوف أتحلَّى بالصبر، ولكن عليك أن تخبرني بذلك. أنت لطيف جدًّا معي. أنت تصنع حياتي أو تُفسدها. يجب أن تهتم قليلًا؟ من فضلك؟»

كان واقفًا الآن. قبَّل يديها بولع. كان صوته يحتوي على نبرته القديمة.

«أكثر من أي امرأة على وجه الأرض، يا عزيزتي روزاموند!»

فقدَ سيمان، الذي كان يرتدي حلةً رمادية فاتحة، وقبَّعة، وربطة عنق بيضاء مزينةٍ بالزهور، شيئًا من اللياقة الهادئة التي كانت لديه قبل بضعة أشهر. كان يشعر بالحر والتعب جراءَ السفر. كانت ثمة خطوطٌ جديدة في وجهه وتعبيرٌ غريب عن القلق حول عينَيه، التي بدأت تظهر في أركانها تجاعيدُ صغيرة. استجاب لترحيب دوميني بحماسةٍ تكاد أن تكون شديدةَ الانفعال، وفحصه عن كثب، كما لو كان يتوقَّع أن يجد بعضَ التغيير، وألقى بنفسه أخيرًا على كرسيٍّ مريح ببادرةٍ صغيرة تدلُّ على الشعور بالراحة. كان يحمل حقيبةَ تقارير صغيرة بُنية اللون وضعها على السجادة بجانبه.

سأل دوميني: «هل لديك أخبار؟»

كان الرد العظيم: «نعم، لديَّ أخبار.»

دقَّ دوميني الجرس. كان قد خمَّن بالفعل من حقيبة الملابس والمعاطف في القاعة، أن زائره جاء مباشرةً من المحطة.

استفسر: «ماذا ستأخذ؟»

أجاب سيمان: «زجاجةً من النبيذ الألماني الأبيض مع مياهٍ غازية، وثلجًا إذا كان لديك.» وتابع قائلًا: «أيضًا طبقًا من اللحم البارد، ولكن يجب تقديمُه هنا. وبعد ذلك أكبر سيجار لديك. لديَّ بالفعل أخبار، أخبار مزعجة، أخبار رائعة، أخبار مذهلة.»

أعطى دوميني بعضَ الأوامر للخادم الذي استجاب لاستدعائه. تحدثا للحظات قليلة عن أمور تافهة خاصة بالرحلة. عندما قُدِّم كل شيء، وأُغلِقَ الباب، لم يَعُد بإمكان سيمان الانتظار. بدا أن شهيَّته، وعطشه، وحديثه، كلهم متحفزون للعمل السريع.

قال: «نتمتع بالمزاج ذاتِه.» وتابع قائلًا: «أعرف ذلك. سنتحدَّث أولًا عن الأخبار المزعجة — المخيفة قليلًا. لقد حُلَّ لغز يوهان وولف.»

سأل دوميني: «الرجل الذي أتى إلينا برسائلَ من شميدت في جنوب أفريقيا؟» وأضاف: «لقد كدتُ أنسى أمره.»

«أنا أيضًا. حتى الآن لا أستطيع أن أتصورَ ماهية الأمر الذي كان وراء زيارته لنا في تلك الليلة. كما أنه ليس واضحًا لماذا أنكر معرفتي؛ فأنا عَمليًّا رئيسُه في الخدمة نفسِه. ها نحن أولاء، منذ البداية، نُواجه حدثًا فريدًا للغاية، لكنه لا يكاد يكون فريدًا جدًّا بقدرِ ما حدث بالنهاية. اختفى وولف من منزلك في تلك الليلة وذهب إلى قلعةٍ إنجليزية.»

أعلن دوميني بصراحة: «يبدو هذا غيرَ معقول.»

أصرَّ سيمان: «ومع ذلك فهو صحيح.» وتابع قائلًا: «لا يُسمَح لأي عضوٍ في خدمتنا بالبقاء أكثرَ من شهر واحد دون إبلاغ المقر بوجوده ومكانه. لم ترِد أيُّ أخبار من وولف منذ تلك الليلة في يناير. من ناحية أخرى، وصلَت إلينا معلوماتٌ غيرُ مباشرة مفادها أنه مسجونٌ هنا.»

احتجَّ دوميني قائلًا: «لكن مِثل هذا الشيء مخالفٌ للقانون، ولم يُسمع به من قبل.» وتابع قائلًا: «لا يمكن لأيِّ دولة أن تُبقي مُواطنَ دولة أخرى في السجن دون توجيه تهمة محددة أو تقديمه للمحاكمة.»

ابتسم سيمان بصرامة.

وقال: «ذلك جيدٌ جدًّا في أي حالة عادية.» وتابع قائلًا: «لكن وولف كان رجلًا مرصودًا لسنوات. سرعان ما سيُثير شارع فيلهلم ضجةً كافية، إذا كان يوجد أيُّ نفع من وراء هذا، ولكن لا يوجد. يوجد رجلٌ أو رجلان إنجليزيان في السجون الألمانية في الوقتِ الحاليِّ، ولم تُفكِّر وزارة الخارجية الإنجليزية حتى في أن الأمر يستحقُّ الاستفسار بشأنهم. ما يُزعجني أكثرَ من الحقيقة الفعلية لاختفاء وولف هو سرُّ زيارته لك واعتقاله بعدها تقريبًا.»

قال دوميني: «لا بد أنهم تعقَّبوه إلى هناك.»

اعترض سيمان: «نعم، لكنهم لم يتمكَّنوا من دفع ملقط في غرفة جلوس كبير خدَمك، واستخراج يوهان وولف، ووضعه داخل قلعة نورويتش أو أيِّ سجن قد يكون فيه. ومع ذلك، فإن السمةَ الأكثر إثارةً للقلق بشأن مسألة وولف هي تقديمها لشيءٍ لا نفهمه. فيما يتعلَّق بالبقية، لدينا الكثيرُ من الرجال الجيدين مثله والأفضل منه، ووقت الاستفادة منهم قد ولَّى. أنت أمَلُنا العظيم الآن، يا دوميني.»

«هذا هو الحال، إذن؟»

ارتشف سيمان رشفةً طويلة ومفعمة بالنشوة من النبيذ الألماني الأبيض والمياه الغازية.

وأعلن بجدِّية: «هذا هو الحال.» وتابع قائلًا: «لم يكن يوجد أي شك في ذلك. إذا توقفت روسيا عن التعبئة غدًا، وإذا زحف كلُّ سياسي في صربيا إلى فيينا بحبلٍ حول رقبته، فستظلُّ النتيجة كما هي. لقد انتشر الخبر. ألمانيا كلُّها مثل مخيَّم عسكري شاسع. هذا يأتي بالضبط قبل اثنَي عشرَ شهرًا من اليوم النهائي الذي حدَّدته سلطاتنا العظيمة، ولكن الفرصة عظيمة جدًّا، ورائعة جدًّا بحيث لا يمكن التردُّد بشأنها. بحلول نهاية أغسطس سنكون في باريس.»

غمغم دوميني، وهو يقف للحظة بجانب النافذة المفتوحة: «يا لها من أخبار مذهلة تلك التي تجلبها!»

تابع سيمان: «لقد تلقيتُ استحسانًا في أرقى الدوائر.» وتابع قائلًا: «أنا وأنت على رأس القائمة التي تضمُّ أولئك الذين سينالون مكافآتٍ عظيمة. يُوافق جلالة الملك موافقةً تامة على امتناعك عن الاستفادة من إذنه بالزواج من الأميرة إيدرستروم. وصرَّح قائلًا: «إن قرار فون راجاشتين في محلِّه. فهذه الأيام ليست مناسبةً للزواج. هذه أكثرُ أيامٍ عرَفها العالم على الإطلاق أهميةً، الأيام التي ستبزغ فيها إمبراطورية إلى الوجود، أعظم الأيام منذ أن تشكَّلت القارات ونظرت النجوم بازدراء إلى هذا العالمِ الحاليِّ.» تلك هي كلمات صاحب السمو. أعظم الصفات من وجهة نظره هي وحدانية الهدف. لقد اتبعتَ هدفك، خلافًا لنصيحتي، ونصيحة تيرنيلوف. وستفوز نتيجة هذا.»

أنهى سيمان وجبته في الوقت المناسب، ورُفِعَت الصينية. وسرعان ما كان الرجلان بمفردهما مرةً أخرى، ينفخ سيمان كمياتٍ كثيفةً من الدخان، ويُمسك سيجاره بين أسنانه، ويلوِّح به أحيانًا في يده ليجعل كلماته مؤثِّرة. يبدو أنه فقدَ القليل من حذره الرائع. لأول مرة تحدَّث بصراحة إلى رفيقه.

قال: «فون راجاشتين، بلدنا بلد عظيم. إنها إمبراطورية رائعة تلك التي سنبنيها. الليلة أنا متحمِّس للأشياء العظيمة. لديَّ قائمةٌ من التعليمات لك، العديد من التفاصيل. بإمكانها الانتظار. سنتحدَّث عن مستقبلنا ومصيرنا العظيم المجيد كأعظمِ أمةٍ نالت الحقَّ في حكم العالم. قد تعتقد أنه كان ثمَّة هياجٌ في ألمانيا. لا يوجد. فقد حُدِّدَت مهمة كل فرد، وعملهم واضحٌ لهم. نحن نتحرك نحوَ الحرب مثل ماكينةٍ عظيمة هائلة. كل كتيبة تعرف

موقعها، كل قائدِ وحدة يعرف مواقعه، كل جنرال يعرف خطَّ هجومه بالضبط. حصص الإعاشة والملابس والمستشفيات، كل وحدة يمكنك التفكيرُ فيها، لها تحركاتها المحسوبة حتى آخر تفصيلة.»

سأل دوميني: «وماذا عن النتيجة النهائية؟» وتابع قائلًا: «هل هي محسوبة أيضًا؟»

فتح سيمان، بأصابع مرتجفة، صندوقَ التقارير الصغير الذي كان إلى جانبه وأخذ منه بحذرٍ شديدٍ مخطوطةً مدعومة بالكتان.

قال: «أنت يا صديقي، من أوائل مَن سيُلقون نظرةً على هذا. سيوضح لك هذا حلم القيصر. وسيُظهر لك إطارَ عمل الإمبراطورية الآتية.»

وضع خريطةً على الطاولة. انحنى الرجلان عليها. كانت خريطة لأوروبا، رُسِمَت عليها إنجلترا، وفرنسا مع تقليص مساحتها، وإسبانيا، والبرتغال، وإيطاليا، بلونٍ أزرق داكن. أما باقي الدول، فقد طُلِيَت كلُّ المساحة الموجودة بين خطَّين، أحدهما من هامبورج إلى أثينا، والآخر من فنلندا إلى البحر الأسود، بلون قرمزي غامق، مع وجود أجزاء هنا وهناك بألوانٍ أفتح قليلًا. وضع سيمان راحةَ يده على الخريطة.

وقال بجدِّية مثيرة للإعجاب: «هناك تقع إمبراطوريتنا المستقبلية.»

توسَّل دوميني: «هلَّا توضحها لي.»

«بشكل عام، كل شيء بين هذين الخطَّين ينتمي إلى الإمبراطورية الألمانية الجديدة. ستحوز بولندا، وكورلاند، وليتوانيا، وأوكرانيا على درجةٍ معيَّنة من الحكم الذاتي، الذي عمليًّا سيكون بلا قيمة. آسيا هناك تحت أقدامنا. لن تتحكمَ بريطانيا العظمى في إمدادات العالم بعد الآن. المواد الخام من كل نوع ستكون لنا. الجلود، والشحم، والقمح، والزيت، والدهون، والأخشاب — كل هذه الأشياء متاحةٌ لنا لنستغلَّها. ومن أجل الثروة ... هناك الهند والصين! ماذا تريد أكثرَ من هذا يا صديقي؟»

«هذا مذهل. ولكن ماذا عن النمسا؟»

كانت ابتسامة سيمان ساخرة إلى حدٍّ ما.

قال: «لا بد أن النمسا تشعر بالفعل بأن هلاكها يزحف نحوها. لا يوجد مكان في أوروبا الوسطى لإمبراطوريتين، ويجب أن يسقط آل هابسبيرج أمام آل هوهنتسولرن. النمسا، قلبًا وقالبًا، يجب أن تُصبح جزءًا من الإمبراطورية الألمانية. ثم إلى الأسفل قليلًا، انتبِه. يجب أن تُصبح رومانيا دولةً تابعة أو أن تُحتَل. بلغاريا مِلكنا بالفعل. تركيا مع القسطنطينية مضمونة. اليونان إما أن تنضمَّ إلينا أو سيُقضى عليها. ستُمسَح صربيا

من الخريطة؛ ربما الجبل الأسود أيضًا. هذه البلدان المرسومة باللون الأحمر الباهت، مثل تركيا، وبلغاريا، واليونان، ستُصبح دولًا تابعةً، وسنستحوذ عليها واحدة تِلو الأخرى عندما تسنح الفرصة.»

وجَّه دوميني أصبعه شمالًا.

وعلَّق: «لقد اختفَت بلجيكا.»

أجاب سيمان: «سنحتلُّ بلجيكا ونستعبدها.» وتابع قائلًا: «خطُّ تقدُّمنا إلى فرنسا يقع في هذا الطريق، ونحن بحاجةٍ إلى موانئها للسيطرة على نهر التايمز. هولندا والدول الاسكندنافية، كما تُلاحظ، متروكةٌ بلونٍ أحمرَ فاتح. إذا سنحَت الفرصة، فقد تُحَرَّض هولندا والدنمارك لشنِّ الحرب علينا. وإذا فعلتا ذلك، فهذا يعني أن نحتلَّهما أولًا. وإذا بقيتا، كما هو مرجَّح، محايدتَين خائفتين، فستكونان مع ذلك دولتَين تابعتين لنا عند إطلاق آخر طلقة.»

«ماذا عن النرويج والسويد؟»

نظر سيمان إلى الخريطة وابتسم.

وقال: «انظر إليهما.» وتابع قائلًا: «إنهما تحت رحمتنا. للنرويج ساحلها الغربي، وقد تكون مسألة المساعدات البريطانية فيما يتعلَّق بها قائمةً دائمًا. لكن السويد لنا بالكامل. إن خُطتنا الرئيسية هي إخضاعها لنا بالكامل، أكثر من أيِّ دولة أخرى من هذه الدول التابعة. نحن بحاجةٍ إلى رجالها المفعَمين بالحيوية، أفضل جنود في العالم، للحروب اللاحقة، في حال حدوثها. ولديها الأخشاب والمعادن التي نحتاج إليها أيضًا. وحتى هنا — هذا يكفي. أنت، يا صديقي فون راجاشتين، أول مَن ألقى نظرةً على هذه الصورة للمستقبل من رجال هذا البلد.»

تمتمَ دوميني: «هذا تصوُّر رائع، ولكن ماذا عن روسيا بملايينها؟ كيف نفترض، على الرغم مما لديها من ملايين الرجال، أن نصلَ إلى أغنى مقاطعاتها، ودخول قلب إمبراطوريتها؟»

أجاب سيمان: «هنا تتدخَّل العبقرية. فروسيا جاهزةٌ لثورةٍ في أيِّ وقت على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية. لدينا عُملاء سرِّيون الآن في كل مدينةٍ وقرية وفي سائر الجيش. سنُعَلِّم روسيا كيف تجعل مِن نفسها دولة حرة.»

ارتجف دوميني قليلًا مع نفورٍ يكاد يكون لا إراديًّا. للمرة الثانية أثارت اشمئزازَه تلك الابتسامة الشهوانية على وجه سيمان.

«وماذا عن عملي أنا؟»

حضَّر سيمان لنفسه مشروبًا. كان، عادةً، رجلًا معتدلًا، لكن هذه كانت المرة الثالثة التي يُعيد فيها ملءَ كأسه منذ وجبته السريعة.

اعترف وهو يُمرِّر يدَه على جبهته: «إن عقلي متعبٌ يا صديقي.» وتابع قائلًا: «أعاني إرهاقًا شديدًا. الأفكار تتزاحمُ في عقلي. لقد كان الأسبوع الماضي شديدَ الإثارة. لقد تم التخطيط لكل شيء، حتى حياتك اليومية تقريبًا. سوف نستعرض الأمر في غضون يومٍ أو نحو ذلك. في غضون ذلك، تذكَّر التاليَ. هدفنا العظيم هو إبعاد إنجلترا عن الحرب.»

صاح دوميني: «إذن تيرنيلوف مُحق، في نهاية الأمر!»

ضحك سيمان بازدراء.

وأوضح: «إذا كنا نريد خروجَ إنجلترا من الحرب، فهذا لا يعني أننا نرغب في صداقتها. كلُّ ما في الأمر هو أنه سيُمكننا سحقها بسهولةٍ أكبر عندما تكون كاليه، وبولون، وهافر في أيدينا. سيكون ذلك في غضون ثلاثة أشهر. حينها ربما يتغيَّر موقفنا تجاه إنجلترا قليلًا! سأرحل الآن.»

طوى دوميني الخريطةَ بامتعاض. هزَّ رفيقه رأسه. كان من الغريب أنه هو أيضًا، ولأول مرة في حياته في اليوم ذاتِه، خاطب مضيفَه بشكل مختلف.

قال: «بارون فون راجاشتين، توجد ستٌّ من تلك الخرائط. هذه لك. خبِّئها واحْمِها كما لو كانت أعظمَ كنز على وجه الأرض، ولكن عندما تكون بمفردك، أخرِجها وادرُسْها. ستكون مصدرَ إلهام لك، وتُخفِّف لحظات اكتئابك، وتمنحك الشجاعة عندما تكون في خطر؛ سوف تملأ عقلك بالفخر والاندهاش. إنها مِلكك.»

طواها دوميني بعناية، وعبَر الغرفة، وفتح خِزانة صغيرة ووضعها فيها.

وأكَّد لضيفه المغادر بحماسٍ فاجأه هو شخصيًّا: «سأحرسها، حسب طلبك، وكأنها أعظم كنوزي.»

الفصل السابع والعشرون

كان ثمة شيءٌ درامي، بالمعنى الأكثر بشاعةً للكلمة، بشأن الرسالة الهاتفية القصيرة التي تلقَّاها دوميني، بعد ساعات قليلة، من كارلتون هاوس تيراس. في غضون دقائق قليلة كان يتحرك في الشوارع، التي كانت لا تزال مألوفة، ولكنْ ثَمة شيءٌ غريب بها. كان الرجال والنساء يُمارسون أعمالهم كالمعتاد، لكن كانت حالة من الذهول واضحة في كل مكان. تقريبًا كان كلُّ مَن كان يتسكَّع في الشارع يقرأ صحيفةً باهتمام، وكلما سنحَت الفرصة كان المعارف يتوقَّفون للتشاور مع رفاقهم. وبسَطَت الحرب، التي كانت مزحةً وكابوسًا بالتناوب لمحبي التحدث، بظلالها الرمادية على المدينة المشمِسة. حتى أكثر الأشخاص ابتهاجًا شعَروا برجفةِ خوف من التفكير في الأهوال الآتية. كل هذا كان سيتغيَّر بعد يوم أو يومين. شرع الناس بعد ذلك في عدِّ ملايين الروس؛ وكان من شأن الهوسِ بالقوة الساحقة أن يتنامى. كان بوُسع سمسار البورصة أو صاحب المتجر المسالم، الذي لم يسبق له الذَّهابُ إلى عرضٍ عسكري، حسابُ عدد الأشخاص المتاحين للخدمة بقلم رصاص صغير على ظهر مظروف قديم، مما كان من شأنه أن يُقنع أعظم المتشائمين بأن ألمانيا والنمسا أقلُّ عددًا بنسبةٍ لا تقل عن ثلاثةٍ إلى واحد. لكن في هذا الصباح بالذات، كان الناس مذهولين جدًّا من التقديرات. فقد حدث ما لا يمكن تصديقُه. لقد صارت الحرب — كابوسُ الشخص العصبي، وموضعُ سخرية المتفائل — التي نُوقشت احتماليةُ حدوثها طويلًا، بالفعل واقعًا. لقد انتهت فجأةً سنواتُ السلام والوفرة السعيدة. وحلَّت على الأرض مأساةٌ سوداء.

متجنبًا المعارفَ قدرَ الإمكان، وعقله في حالة اضطراب غريب، مر دوميني في شارع سانت جيمس وعلى طول بال مول، وذهب إلى كارلتون هاوس تيراس. من الخارج، لم يُظهِر المبنى الأبيضُ الكبير، بصفوفه من صناديق الزهور، أيَّ علامات على وجود اضطرابٍ

مفرِط. ولكن من الداخل، كانت غرفة الانتظار مزدحمةً بالزائرين، ولم يتمكَّن دوميني من الوصول إلى غرفة المكتب الداخلي، حيث كان السفير مشغولًا بإملاء الرسائل، إلا بتدخُّل من سكرتير تيرنيلوف الخاص، الذي كان ينتظره. قطع حديثه فور الإعلان عن ضيفه وصرَف كلَّ مَن كانوا معه بمن فيهم أمناؤه. ثم أغلق الباب.

تأوَّه قائلًا: «فون راجاشتين، أنا رجل محطَّم!»

أمسك دوميني يدَه بتعاطف. بدا أن تيرنيلوف قد تقدَّم في العمر سنواتٍ في الساعات القليلة الماضية.

تابع: «لقد أرسلتُ في طلبك لتوديعك؛ لتوديعك والاعتراف لك. لقد كنتَ مُحقًّا، وكنتُ مخطئًا. كان من الأفضل لو بقيتُ ومارستُ دورَ المزارع الريفي في ضِياعي. لم أكن أبدًا ذكيًّا بما يكفي لأرى حتى الآن أنني قد تعرَّضت للاستغلال من نفس الرجال الذين كنت دائمًا أُدين سياستهم.»

ظل زائرُه صامتًا. لم يكن لديه ما يمكنه قوله.

تابع تيرنيلوف: «لقد عملت من أجل السلام، معتقدًا أن بلدي يريد السلام. لقد عملتُ من أجل السلام مع الرجال الشرفاء الذين كانوا يرغبون بشدةٍ في أن يكفلوا تحقيقه مثلي. لكن طوال الوقت، كان أولئك الذين كدحتُ من أجلهم يسخرون مني من وراء ظهري. كنتُ أداتهم، لا أكثر ولا أقل. أعلم الآن أنه لا يوجد شيءٌ في هذا العالم يمكن أن يعوق ما هو قادم.»

ذكَّره دوميني: «على الأقل سوف يُدرك الجميع أنك بذلتَ قصارى جهدك من أجل السلام.»

كان الردُّ الغاضب: «ذلك هو أحدُ الأسباب التي دفعتني إلى طلب رؤيتك.» وتابع قائلًا: «منذ وقتٍ ليس ببعيد تحدثتُ عن كتاب صغير، دفتر ملاحظات كنت أحتفظ به عن عملي في هذا البلد. لقد وعدتُ أن أُطلعَك عليه. لقد طلبتَ مني ذلك عدة مرات مؤخرًا. سأُطلعُك عليه الآن. لقد أخذتُ أكتب فيه حتى أمس. سيُطلعك على كل جهودي وكيف أُحبِطَت. إنه سردٌ صادق تمامًا لعملي هنا، ولاستجابة الإنجليز له.»

عبَرَ الأمير الغرفة، وفتح إحدى الخزائن الصغيرة، المواجهة لجانب الجدار، وسحب كتابًا مغلفًا بالجلد بحجم حقيبة صغيرة، وعاد إلى دوميني.

قال بجدِّية: «أرجوك أن تقرأ هذا بعنايةٍ فائقة وأن تنتظر تعليماتي فيما يتعلَّق به. يمكنك أن تُخمِّن، بلا شك» تابعَ بقليلٍ من المرارة: «لماذا أعطيك إياه لتحتفظ به. فحتى

السفارة هنا ليست خاليةً من جواسيسنا، ووجود هذه المذكرات معروف. مصيرها مؤكَّد في اللحظة التي أصل فيها إلى ألمانيا. أنا ألمانيٌّ ووطنيٌّ، رغم أن قلبي يشعر بالمرارة تجاه أولئك الذين يجلبون هذه الوصمةَ إلى بلادنا. لهذا السبب، يجب حفظ هذه المذكرات في مكانٍ آمن حتى أرى فائدةً جيدة لها.»

«هل تقصد في حالة تغيير الحزب الحاكم في ألمانيا؟»

«بالضبط! حينها سيَصوغون في الحال مبرِّري، ويُسلِّطون الضوء على الدبلوماسية الإنجليزية أمام القِسم الأكثر تعقُّلًا من مُواطني بلدي؛ بحيث يمكن تحقيقُ سلامٍ مشرِّف. ادرُسْها بعناية، يا فون راجاشتين. فربما حتى ولاؤك للحزب الذي تخدمه قد يتذبذب للحظة وأنت تقرأ.»

قال دوميني بهدوء: «أنا لا أخدم أيَّ حزب؛ فقط بلدي.»

تنهَّد تيرنيلوف.

«وا حسرتاه! لا وقت لدينا للدخول في واحدةٍ من مناقشاتنا القديمة حول أخلاقيات الحكم. يجب أن ترحل يا فون راجاشتين. أمامك مهمةٌ رهيبة. يتعيَّن عليَّ أن أتمنى لك التوفيق. أما أنا فلن أرفعَ رأسي مرةً أخرى حتى أغادر إنجلترا.»

سأل دوميني: «ألا يوجد تكليفٌ آخر؟» وتابع قائلًا: «ألا توجد طريقة أخرى يمكنني من خلالها خدمتك؟»

أجاب تيرنيلوف بحزن: «لا شيء.» وتابع قائلًا: «لقد أُتيح لي ألَّا أُواجه أيَّ عقبات. رُتِّبَت مغادرتي كما لو كنتُ من العائلة الملكية. ومع ذلك، صدِّقني، يا صديقي، كلُّ عملٍ من أعمال اللطف والكرم الذي أتلقَّاه في هذه اللحظات، يعتصر قلبي. وداعًا!»

عثر دوميني على سيارة أجرة في بال مول وعاد إلى ساحة بيركلي. وجد روزاموند مع مجموعة صغيرة من الكلاب، دخلتْ للتوِّ الحدائق، وعبرتْ إلى جانبها.

سألها وهو يُمسك بذراعها: «عزيزتي، هل تُمانعين في الذهاب إلى نورفولك بضعةَ أيام؟»

سألت بسرعة: «معك؟»

«نعم! أريد أن أمكث في مكانٍ هادئٍ مدةً قصيرة. ثَمة أمرٌ أو أمران يجب أن أسوِّيَهما قبل الشروع في بعض الأعمال الجديدة.»

قالت بحماس: «أودُّ ذلك.» وأضافت قائلةً: «الأحداث في لندن تزداد سخونة، والجميع متحمسون للغاية.»

قال لها دوميني: «سأطلب السيارة السياحية في الساعة الثالثة.» وأردف قائلًا: «سنعود إلى المنزل في نحو الساعة التاسعة. يمكن أن يرحل باركنز وخادمتُكِ بالقطار. هل يناسبكِ ذلك؟»

«بسرور!»

أمسك بذراعها وسارا ببطء على الممشى.

قال: «روزاموند يا عزيزتي، لقد حان الوقت الذي كان يخافه الكثيرُ من الناس. نحن في حالة حرب.»

تمتمَت: «أعرف.»

تابع: «لقد قضيتُ أنا وأنت وقتًا سعيدًا معًا، في الأشهر القليلة الماضية، على الرغم من أن تلك السحابة السوداء لا تزال بيننا. لقد حاولتُ أن أعاملكِ بلطف وحنان كما لو كنتُ زوجكِ حقًّا، وأنتِ بالفعل زوجتي.»

صاحت بذهول: «هل سترحل؟» وتابعت قائلةً: «لا يمكنني تحمُّل ذلك! لا يمكن لأحد أن يكون لطيفًا كما كنت.»

قال: «عزيزتي، أريدك أن تُفكري ... بزوجك ... إيفرارد. كان جنديًّا مدةً وجيزة، أليس كذلك؟ ماذا تظنين أنه كان سيفعل الآن بعد أن جاءت هذه الحرب الرهيبة؟»

أجابت بأدنى رِعشةٍ ممكنة في نبرة صوتها: «كان سيفعل ما ستفعله.» وتابعت قائلةً: «كان سيُصبح جنديًّا مرةً أخرى، وكان سيقاتل من أجل بلاده.»

أعلن: «ولذلك يجب أن ... أقاتل من أجل بلدي.» وأضاف قائلًا: «لهذا السبب يجب أن أتركَكِ لمدة ساعة الآن بينما أُجري بعض المكالمات. سأعود على الغداء. بعد ذلك مباشرة يجب أن نتحرك. ولكن لديَّ العديد من الأشياء التي يجب أن أرتِّبها أولًا. لن تكون الحياة سهلةً في الأيام القليلة المقبلة.»

تمسكت بذراعه. بدَت غيرَ راغبة بشكل غريب في تركه يرحل.

وقالت: «إيفرارد، عندما نكون في قصر دوميني، هل سأتمكن من رؤية الدكتور هاريسون؟»

أكَّد لها: «بالطبع.»

قالت: «ثمة شيءٌ أريد أن أقوله له؛ شيء أريد أن أسألك بشأنه أيضًا. هل أنت الشخص ذاته، إيفرارد، عندما تكون في المدينة وعندما تكون في الريف؟»

فوجئ قليلًا بسؤالها — المطروح أيضًا بمثل هذه الجدية الحزينة. بدا الاضطرابُ الذي أوحى به مدحوضًا تمامًا بسبب مظهرها. كانت ترتدي فستانًا قُطنيًّا لونه أسود وأبيض،

وقبعةً سوداء كبيرة، وحذاءً باريسيًّا. اختِيرَت جواربها، وقفازاتها، وجميع التفاصيل البسيطة لزينتها، بعناية، وكانت ملابسها أنيقة وبسيطة. اجتماعيًّا أيضًا، كانت ناجحة بشكل مذهل. قبل أسبوع فقط، كانت كارولين قد أتت إليه وهي في حالة من الشك.

قالت: «لقد كنت أحاول أن أكون لطيفة مع روزاموند، واكتشفتُ بدلًا من ذلك أن هذا غيرُ ضروري على الإطلاق. إنها الأكثرُ شعبيةً بين النساء المتزوجاتِ الأصغرِ سنًّا في مجموعتنا. أنت لا تستحقُّ مثل هذا الحظ، يا إيفرارد.»

أجاب: «هل تعرفين مَثَل الرجل الفاسق العجوز؟»

شرَد ذهنه للحظة. أدرك سؤال روزاموند برجفةٍ خفيفة.

كرَّر: «هل أنا نفس الشخص يا عزيزتي؟» وأضاف قائلًا: «أظن ذلك. ألا أبدو لكِ كذلك؟»

هزَّت رأسها نفيًا.

أجابت بقليلٍ من الغموض: «لستُ متأكدة.» وأردفت قائلةً: «كما ترى، في الريف ما زلت أتذكَّر أحيانًا تلك الليلةَ الفظيعة عندما كدتُ أفقدُ صوابي. لم أرَك أبدًا كما بدَوت في تلك الليلة.»

«لعلكِ تُفضِّلين عدم العودة؟»

أجابت: «هذا هو الجانب الغريب في الأمر.» وأردفت قائلةً: «لا يوجد شيء في العالم أريد أن أفعله أكثرَ من هذا.» أضافت عند وصولهما إلى البوابة: «توجد سيارة أجرة فارغة يا عزيزي.» وأضافت: «سأذهب وأخبِرُ جاستين أن يحزم الحقائب.»

الفصل الثامن والعشرون

في غضون الأيام القليلة التالية، انتشرَت شائعةٌ غريبة في قصر دوميني والمنطقة، من عامل المزرعة إلى المزارع، ومن أطفال المدارس إلى منازلهم، ومن مكتبِ بريد القرية إلى القرى المجاورة. كانت مجموعةٌ من الحطابين من مقاطعةٍ مجاورة، بمحرك وجميع آلات حِرفتهم، قد بدأَت في العمل على اقتلاع كلِّ الأشجار والشجيرات في الطرَف الشمالي من الغابة السوداء. نُسِيَت مسألة الحرب على الفور. قبل اليوم الثاني، كان كلُّ رجل وامرأة وطفل في المكان قد قام بزيارةٍ وَجِلة إلى أطراف الغابة، واستمعوا إلى أزيز الآلات، وحدَّقوا في الجسر الكبير من ألواح الخشب المؤدي إلى الغابة، وألقَوا نظرة، على أملِ اكتشاف شيء غريب في خيام الرجال الذين كانوا يُخيِّمون هناك. كان الرجال أنفسُهم قليلي الكلام، والمرة الأولى التي تحدَّث فيها رئيس العمال كانت عندما سار دوميني إليه لمناقشة التقدُّم المحرَز، في صباح اليوم التالي لوصوله.

قال: «إنه عملٌ قذر يا سيدي.» وأردف: «فلم أصادف غابةً فاسدة تمامًا، بشكل ميئوس منه، مثل هذه. يا إلهي، تنهار الغابة عندما تلمسها، ويجب أن يكون الرجالُ بالقرب من بعضهم البعض طوال الوقت، على الرغم من وجودِ ما يقرب من خَمسمائة لوح في الأسفل هناك.»

«هل صادفت أيَّ شيء غير عادي حتى الآن؟»

«لم نُصادف أيَّ شيء غير عادي حتى الآن، يا سيدي. كل رجالي يرتدون سراويلَ طويلة لمنع تعرُّضهم للدغات الأفاعي، التي يصل طولُ بعضها إلى طول ذراعي. وهناك فِطْر، عندما تلمسه، يبعث رائحةً تكفي لإفقاد رجلٍ وعيه. لقد قتلنا قطةً في اليوم الأول، كبيرة وشرسة مثل نمرةٍ صغيرة. إنها مهمة غريبة يا سيدي.»

«كم من الوقت سيستغرق الأمر؟»

«مسألة ثلاثة أسابيع، يا سيدي، وعندما نحصل على الأخشاب، ننصحك بحرقِها. لا يستحق الأمر أن تزعج نفسك بشأنها. اعذرني يا سيدي» تابع الرجل: «السيدة العجوز هناك تتجوَّل طوال الوقت. بعض رجالي خائفون قليلًا منها.»

استدار دوميني ملتفتًا. على هضبة صغيرة على بُعد مسافة قصيرة في الحديقة، كانت راتشيل أنثانك واقفةً. كان شكلها منفِّرًا حتى في ضوء الصباح بملابسها السوداء عتيقةِ الطراز، التي لم تُلطَّف بأي لونٍ آخر، وخدَّيها الشاحبين وعينَيها الغريبتين. سار دوميني نحوها.

بدأ حديثه قائلًا: «كما ترَين، يا سيدة أنثانك ...»

قاطعتْه. كانت يدها النحيلة ممدودة نحو الغابة.

سألَت: «ماذا يفعل هؤلاء الرجال، يا سير إيفرارد دوميني؟» وأضافت قائلةً: «ماذا تريد من الغابة؟»

أجاب دوميني: «إنني أنفِّذ قرارًا اتخذتُه في الشتاء.» وأردف قائلًا: «هؤلاء الرجال سوف يشقُّون طريقهم من أحد طرَفَي الغابة السوداء إلى الطرف الآخر، حتى لا تبقى شجرةٌ أو شُجيرة منتصبة. وبعد أن يقطعوها، سيُحرقونها. بعد ذلك، سأجفِّف كلَّ المستنقعات. قد نعيش لنرى حقل ذرة هناك، سيدة أنثانك.»

سألت بصوتٍ أجش: «هل ستجرؤ على فعل ذلك؟»

«هل تجرُئين على إخباري بما لا ينبغي عليَّ فعْله، يا سيدة أنثانك؟»

نَكَّسَت رأسها في صمت، ومضى دوميني في طريقه. لكن في تلك الليلة، بينما كانت روزاموند وهو يتناولان الحلوى، مستمتعَين بالهدوء الغريب والنسيم الرائع الذي تسلَّل من النافذة المفتوحة، أعلن باركنز عن قدوم زائر.

أعلن: «السيدة أنثانك في المكتبة، يا سيدي.» وأردف قائلًا: «تسأل إن كان بإمكانك أن تُقابلها لمدة خمس دقائق.»

ارتجفت روزاموند قليلًا، لكنها أومأت برأسها بينما كان دوميني ينظر إليها مستفسرًا.

توسلَت: «لا تدَعْني أراها من فضلك.» وتابعت قائلةً: «يجب أن تذهب، بالطبع. إيفرارد!»

«نعم، عزيزتي؟»

تابعَت بنبرةٍ تنطوي على اضطرابٍ غريب: «أعرف ما تفعله هناك، على الرغم من أنك لم تقُل لي كلمةً واحدة حول هذا الموضوع.» وتابعت قائلةً: «لا تدَعْها تُقنعك بالتوقف. دعهم يقطعون، ويحرقون، ويشقُّون حتى لا يكون هناك مكانٌ لاختباء فأر. هل تعدُني؟»

أجاب: «أعدك.»

كانت السيدة أنثانك تبذل قصارى جهدها للسيطرة على اضطرابها الشديد. نهضت عندما دخل دوميني الغرفة وانحنت انحناءةَ احترام من الطراز القديم.

سأل: «حسنًا، سيدة أنثانك، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلكِ؟»

اعترفت: «الأمر يتعلَّق بالغابة مرةً أخرى يا سيدي.» وتابعت قائلةً: «لا أستطيع تحمُّل ذلك. طوال الليل، يبدو أنني أسمعُ تلك الفئوس، وصياح الرجال.»

سأل دوميني بصراحة: «ما اعتراضُكِ، يا سيدة أنثانك، على تدمير الغابة السوداء؟» وأضاف قائلًا: «إنها ليست سوى حفرةٍ كريهة للحشرات. وجودها هناك، هو تهديد لأعصاب الليدي دوميني بعد كلِّ ما عانته. أنا مصرٌّ على محوها من على وجه الأرض.»

كان الاحترامُ القسريُّ قد بدأ بالفعل في الاختفاء من أسلوبها.

صرَّحت بإصرار: «سيحيق بك شرٌّ إن فعلت ذلك، يا سير إيفرارد.»

قال لها: «لقد حاق بي الكثيرُ من الشر من تلك الغابة وهي على حالها.»

استمرَّت: «هل تقصد إزعاجَ روح مَن رميت جسده هناك؟»

نظر إليها دوميني بهدوء. بدا أن وجهها قد أضاء بنوعٍ من الشر. تقلَّصت شفتاها، مما أظهر اصفرارَ أسنانها. كانت عيناها الضيقتان تلمعان ببريق الكراهية.

قال: «أنا لستُ قاتلًا، يا سيدة أنثانك.» وأضاف قائلًا: «ابنكِ تسلَّل من عتمَة تلك الغابة، وهاجمني بطريقةٍ جبانة، وتقاتلنا. كان غاضبًا عندما هاجمني، وقاتلَ كالمجنون، وعلى الرغم من أنني كنتُ أفوقه قوةً، فإنني كنت سعيدًا بالنجاة حيًّا. لم ألمس جسده قط. إنه موجود حيث سقط. لو زحف إلى الغابة ومات هناك، فإن موته لم يكن على باب منزلي. لقد سعى لقتلي على الرغم من إنني لم أسعَ لقتله قط.»

تمتمَت المرأة: «لقد ظلمتُه.»

قال: «هذا أيضًا غير صحيح.» وأضاف قائلًا: «كان شغَفه بالليدي دوميني غيرَ مرحَّب به وغيرَ متبادل. كان شعورها الوحيد تجاهه هو الخوف؛ وذلك أمرٌ يعرفه كل سكان الريف. كان ابنك رجلًا وحيدًا، كئيبًا ويعيش حياة شريرة، يا سيدة أنثانك. لو كان لدى أيٍّ منا نزعةٌ للقتل في قلبه، فقد كان هو، وليس أنا. أما فيما يتعلق بكِ» تابع دوميني،

بعد توقُّف للحظة: «فأظنُّ أنكِ قد انتقمتِ يا سيدة أنثانك. كنتِ أنتِ مَن جعل زوجتي تصلُ إلى حالةٍ من الجنون. كنتِ أنتِ مَن زرع بداخلها الرعبَ من شبح ابنك المزعوم. أظن أنه لو أنني كنت قد بقيتُ بعيدًا عامَين آخَرين، لكانت الليدي دومينيي في مستشفًى للمجانين اليوم.»

صاحت المرأة: «كم كنتُ أتمنى أن تتعفَّن حتى الموت في أفريقيا!»

أجاب: «أنتِ تُفْرطين في التمسُّك بمشاعرك الشريرة يا سيدة أنثانك.» وأضاف قائلًا: «خذي بنصيحتي. تخلَّيْ عن هذه الفكرة الحمقاء بأن الغابة السوداء لا تزال موطنَ روحِ ابنك. اذهبي وعيشي على راتبكِ السنوي في جزء آخر من البلد وانسَي ما حدث.»

تحرَّك عبر الغرفة ليفتحَ إحدى النوافذ. تبعته عيناها بتساؤل.

قالت ببطء: «لقد سمعت شائعة؛ ثَمة خبرٌ منتشر بشأنك. كانت لديَّ شكوكي في بعض الأحيان. وتعود لي هذه الشكوك في كلِّ مرة تتحدث فيها. هل أنت حقًّا إيفرارد دومينيي؟»

استدار وواجَهها.

وقال: «مَن غيره؟»

استطردَت قائلة: «يوجد شخص واحد لم يُصدِّقك أبدًا، وهو سيادتها. لقد سمعت كلامًا غريبًا من الناس الذين عانَوا أساليبَك المتسلطة. أنت رجل أصعب من إيفرارد دومينيي الذي أتذكَّره. ماذا لو كنتَ محتالًا؟»

أجاب دومينيي: «ليس عليكِ سوى إثباتِ ذلك، يا سيدة أنثانك، وعلى أيِّ حال، قد يظل جزءٌ من الغابة السوداء قائمًا. سوف تجدين الأمرَ صعبًا بعض الشيء. يجب أن تعذريني على قرعي الجرس. فلا أرى أيَّ هدف من مطالبتكِ بالبقاء مدةً أطول.»

نهضَت واقفةً رغم إرادتها. كان أسلوبها متجهمًا وقاسيًا.

حذَّرته: «إنك تطلبُ حدوث شرور.»

أجاب دومينيي: «كوني مطمئنةً إلى أنه إن حدثَت، فسأعرف كيف أتعامل معها.»

عثَر دومينيي على روزاموند والدكتور هاريسون، الذي كان قد قَدِم من القرية، وكان ينتظر في الشرفة. رحَّب بالأخير بحرارة.

وأعلن: «أنت عطيةٌ من الله أيها الطبيب.» وأضاف قائلًا: «لقد اضطُررتُ إلى ترك نبيذ البورت دون تذوُّقه بسبب عدم وجود رفيق. هلا تعذرينا للحظة يا روزاموند؟»

أومأَت برأسها بلطف، وتبع الطبيبُ مضيفه إلى غرفة الطعام وجلس على الطاولة حيث كانت الحلوى لا تزال موجودة.

سأله الأخير بنظرةٍ فاحصة من تحت حاجبَيه الأشعثَين الرماديَّين: «امرأة عجوز تُهدد بأذًى؟»

أجاب دوميني وهو يملأ كأس ضيفه: «أظن أنها تعني ذلك. شخصيًّا» وتابع بعد لحظة من التوقف: «بدأ الوضع الحاليُّ يؤكد شكِّي القديم. أنا رجلٌ مادي صارم وثابت، كما تعلم، أيها الطبيب، في بعض الأمور، وليس لديَّ أدنى إيمان بفكرة الأم المحبة للانتقام، الوَجِلة حتى الموت من أن يتسبَّب اقتلاع غابة ضارة في طردِ روح ابنها الملاك إلى العالم القاسي.»

سأل الطبيب بصراحة: «ماذا تعتقد؟»

أجاب دوميني: «أُفضِّل عدم إخبارك في الوقت الحاضر.» وأضاف قائلًا: «سيبدو الأمر عجيبًا للغاية.»

علَّق الطبيب: «ملاحظتك بعد ظهر هذا اليوم تحدَّثت عن مسألةٍ مُلحَّة.»

«المسألة مُلحَّة بالفعل. أريدك أن تُقدم لي معروفًا عظيمًا — أن تبقى هنا طوال الليل.»

«هل تتوقعُ حدوث شيء ما؟»

«أتمنى، على أي حال، أن أكون مستعدًّا.»

وعد الطبيب: «سأبقى بكل سرور.» وأضاف قائلًا: «يمكنك إقراضي بعضَ الأدوات، على ما أظن؟ وأعطني غرفةً في مكانٍ ما بالقرب من غرفة الليدي دوميني. بالمناسبة» أضاف، ثم تردَّد.

قاطعه دوميني بقليلٍ من الحدة: «لقد اتبعت نصيحتك، أو بالأحرى أوامرك.» وأضاف قائلًا: «لم يكن الأمر سهلًا دائمًا، لا سيما في لندن، حيث إن روزاموند بعيدةٌ عن هذه العلاقات. آمُل في حدوث أمور عظيمة نتيجةً لما قد يحدث الليلة، أو قريبًا جدًّا.»

أومأ الطبيب متعاطفًا.

وقال: «لا ينبغي عليَّ التساؤل بشأنِ ما إذا كنت على الطريق الصحيح.»

دخلَت روزاموند من النافذة إليهما وجلست بجانب دوميني.

وسألت: «لماذا تتهامسان مثل المتآمرين؟»

أجاب بمرح: «لأننا متآمران.» وأضاف قائلًا: «لقد أقنعتُ الدكتور هاريسون بالبقاء الليلة. يريد غرفةً في جَناحنا. هلا تخبرين الخادمات، يا عزيزتي؟»

أومأت برأسها بعد تفكير.

«بالطبع! يوجد العديد من الغرف الجاهزة. ظنَّت السيدة ميدجلي أننا قد نأتي ببعض الضيوف. أنا متأكدة تمامًا من أننا نستطيع أن نوفِّر الراحة للدكتور هاريسون.»

صرَّح الطبيب: «لا شك في ذلك، يا ليدي دوميني.» وأضاف قائلًا: «دعيني أكُن قريبًا من جَناحكِ قدرَ الإمكان.»

كان ثَمة القليل من القلق على وجهها.

سألت: «هل تظن أنَّ شيئًا ما سيحدث الليلة؟»

وافق دوميني: «الليلة، أو ليلة قريبة جدًّا.» وأضاف قائلًا: «من الجيد أيضًا أن تكوني مستعدَّة. لا داعي للخوف يا عزيزتي، حسنًا؟ سأكون أنا والطبيب بجانبكِ.»

أجابت بقليلٍ من الغموض: «إنني أخشى شيئًا واحدًا فقط.» وأردفت قائلةً: «لقد كنت سعيدةً جدًّا مؤخرًا.»

بعدما غيَّر دوميني ملابسه لملابس صباحية عادية، وربط جسده بحبلٍ سميك، ووضع مسدسًا في جيبه، وأمسك عصًا ثقيلة في يده، أمضى بقية الليلة وجزء من الصباح الباكر مختبئًا خلف مجموعة كبيرة من شجيرات الورد، وعيناه مثبتتان على قطعة أرض مظلمةٍ من الحديقة تقع بين المنزل والغابة السوداء. كانت الليلة غير مُقمِرة ولكن صافية، وبمجرد أن اعتادت عيناه الشفقَ الباهتَ الكئيب، كان المنظر الطبيعي كلُّه والأشياء المتحركة فيه مرئيةً بشكلٍ معتم. وبدا وكأنه استعاد عاداتِ سنوات حياته في الأدغال بشكلٍ غريزي، في تلك الساعات القليلة من الانتظار. كل حاسة كانت متوترةً ونشطة؛ كل صوت ليليٍّ — أبرزها صوت نعيق بعض طيور البوم التي أزعجها شيءٌ من مكانها المستتر في الغابة السوداء — كان مسموعًا وموضوعًا في الاعتبار. بعد ذلك، بمجرد أن ألقى نظرة خاطفة على ساعته ووجد أن الوقت كان يقترب من الساعة الثانية، جاء التنبيه الحقيقيُّ الأول بأنَّ شيئًا ما من المحتمل أن يحدث. سمع صوتَ طقطقةٍ خافتةٍ تتحرك عبر الحديقة باتجاهه، بإيقاعٍ غريب وغير منتظم، آتيةٍ من خلف سلسلة من التلال المنخفضة. نهض على يديه وركبتيه ليشاهد. كانت عيناه مثبتتين على بقعةٍ معينة، وهي قطعة أرض ممتدَّة من الحديقة المفتوحة بينه وبين الهضاب. توقَّف صوت الطقطقة ثم بدأ مرةً أخرى. في العراء، ظهر شكلٌ مظلم، واتضح على الفور عدمُ انتظام حركاته. تحرَّك في البداية على أربعٍ، ثم على قدمين، ثم على أربعٍ مرةً أخرى. زحف مقتربًا أكثر فأكثر، ووضع دوميني جانبًا عصاه وهو يراقب. وصل ذلك الشيء إلى الشرفة، وتوقَّف تحت نافذة روزامونده، وكان حينئذٍ على بُعد ما لا يزيد على ستِّ ياردات من المكان الذي كان جاثيًا فيه. انتظر بتأنٍّ ما كان يعرف أنه لا بد أن يأتيَ قريبًا. ثم قُطِعَ الصمت العميق الذي ساد الليلة المثيرة بتلك

الصرخة الغريبة المألوفة. انتظر دوميني حتى تلاشَت أصداؤها. ثم ركض بضع خطوات، وانحنى، ومدَّ يدَيه. مرةً أخرى، وللمرة الأخيرة، قطعت صرخةُ ذلك الشيطان السكونَ العميق لصباح أحد أيام شهر أغسطس، كما لو كانت تنبض بقليلٍ من الخوف الجديد، وتلاشت كما لو أن الأصابع التي كبَتَتها في الحلق المجهَد قد سحَقَت بالفعل آخرَ بريقٍ لحياة شريرة.

عندما ظهر الدكتور هاريسون على عجل، بعد لحظات قليلة، وجد دوميني جالسًا على الشرفة، يدخن سيجارة بغضب. وعلى الأرض، على بُعد أمتارٍ قليلة، يرقد شيءٌ أسود بلا حَراك.

شهق الطبيب قائلًا: «ما هذا؟»

أظهر دوميني لأول مرة بعضَ علامات عدم ضبط النفس. كان صوته مخنوقًا وأجش.

قال: «اذهب وانظر إليه أيها الطبيب.» وتابع قائلًا: «إنه مقيَّد اليدَين والقدمين. يمكنك أن ترى أين أخفت روح روجر أنثانك نفسها.»

أجاب الطبيب بازدراءٍ متجهم: «اللعنة!» وتابع قائلًا: «إنه روجر أنثانك نفسه. الوحش!»

خرج عددٌ قليل من الخدم. أعطى دوميني بعض الأوامر بسرعة.

أمر: «اتَّصلوا بالمرآب، وأريد أن يذهب أحد الرجال إلى المستشفى في نورويتش. دكتور، هل ستصعد وترى الليدي دوميني؟»

تخلَّص باركنز من عاداتٍ التزمَ بها طيلة عمره. وطرح النزيهُ الصامتُ، الإنسانُ الروتينيُّ المثالي، سؤالًا متلهفًا.

«ما الأمر يا سيدي؟»

سُمِع صوت نافذة تُفتح فوقهم. في تلك اللحظة، لم يكن باركنز ليطالب عبثًا بمعاشٍ سنوي. نظر دوميني إلى نصف الدائرة الصغيرة التي شكَّلَها الخدمُ حوله ورفع صوته.

«إنها، كما آمُل، نهايةُ هذه الخرافات الحمقاء حول شبح روجر أنثانك. هناك يرقد روجر أنثانك، نصف وحش ونصف رجل. لسببٍ أو لآخَر — أحد أسباب شخص مجنون بالطبع — اختار إخفاءَ نفسه في الغابة السوداء كلَّ هذه السنوات. أظن أن والدته كانت شريكتَه وكانت تُحضر له الطعام. إنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن في حالةٍ مقرفة.»

سرى القليلُ من الهمهمة المتَّسمة بالشعور بالرهبة. أصبح صوتُ دوميني عمَليًّا جدًّا.

تابع قائلًا: «أفترض أن فكرته الأولى كانت الانتقامَ منَّا ومن أهل هذا المنزل، الذي تخيَّل أنه قد أُسيئت معاملته على يدهم. ومع ذلك، كان الرجل على مشارف الجنون عندما أتى إلى الجوار وتصرَّف كالمجانين منذ ذلك الحين. جونسون» تابع دوميني موجِّهًا كلامه إلى خادمٍ قوي يتمتع بحسٍّ سليم: «استعِدَّ لأخذ هذا المخلوق إلى مستشفى نورويتش. أخبِرهم أنه إذا لم أحضر أثناء النهار، فسأرسل لهم رسالةً توضيحية. أرجو أن يذهب بقيتكم إلى الفراش، باستثناء باركنز.»

بقليلٍ من هتافات التعجُّب بدَءوا يتفرقون. ثم توقَّف أحدهم وأشار عبر الحديقة. جاء جسد راتشيل أنثانك الهزيل متحركًا بسرعةٍ لا تُصدَّق، ومترنحًا أحيانًا، وأصبحت وسطهم قبل أن يتمكَّنوا من إدراك ذلك. سارت مترنحةً إلى الجسد الممدَّد أرضًا وألقت بنفسها على ركبتَيها. استقرَّت يداها على الوجه غير المرئي، وعيناها تُحملقان في دوميني.

قالت لاهثة: «إذن لقد نلت منه أخيرًا!»

قال دوميني بصرامة: «سيدة أنثانك، جئتِ في الوقت المناسب لمرافقة ابنكِ إلى المستشفى في نورويتش. ستكون السيارة هنا في غضون دقيقتَين. ليس لديَّ ما أقوله لكِ. يجب أن يكون شعوركِ بالذنب عقابًا كافيًا على إبقاء هذا المخلوق المسكين على قيد الحياة بهذه الطريقة ومساعدته أثناء غيابي في تحقيق رغبته اللعينة في الانتقام.»

تمتمَت: «كان سيموت لو لم أحضِر له الطعام.» وأضافت قائلةً: «لقد بكيتُ بكاءَ امرأة كسيرة القلب، وتوسَّلت إليه أن يعود إليَّ.»

أصرَّ دوميني: «ومع ذلك، شاركتِ في مؤامرته القذرة للانتقام من امرأةٍ بريئة. وتركتِه يأتي ويُصدر أصواتَ الغيلان، ليلةً بعد ليلة، تحت هذه النوافذ، دون أدنى اعتراض. كنتِ تعرفين تمام المعرفة مصدرَها الملعون — أنتِ، مع امرأة حساسة في مسئوليتك تثق بكِ. أنتما ثنائيٌّ شرير، لكنكِ أسوأ من ابنكِ الأبله.»

لم تُجِب المرأة. كانت لا تزال راكعةً على ركبتيها، تنحني على الجسد الممدَّد على الأرض، الذي خرج من شفتيه الآن أنينٌ خافت. ثم أضاءت أنوار السيارة عندما غادرت المرآب، ومرَّت عبر البوابات الحديدية وتوقَّفت على بُعد أمتار قليلة.

أصدر دوميني أوامرَه قائلًا: «ساعِداه على ركوب السيارة.» وأردف قائلًا: «يمكنك فكُّ وَثاقه، يا جونسون، بمجرد أن تتحرك. فهو لا يتمتع بالكثير من القوة. أخبِرهم في المستشفى أنني سأكون هناك على الأرجح خلال النهار أو غدًا.»

بقليل من الخوف انحنى الرجلان لأداء مهمتهما. تمتم الأسيرُ طوال الوقت، لكنه لم يُقاوم. استدارت راتشيل أنثانك مرةً أخرى إلى دوميني وهي تتقدم لتأخذ مكانها إلى جانبه. كانت امرأة محطَّمة.

وقالت وهي تبكي: «لقد تخلصتَ منا، ربما إلى الأبد. لقد قلتَ أشياءَ قاسية عنا. روجر ليس دائمًا ... سيئًا للغاية. في بعض الأحيان يكون أكثرَ لطفًا من الآخرين. كنت ستعتقد حينها أنه مجرد طفل يعيش هناك حبًّا في الرياح، والأشجار، والطيور. إذا جاء إلى ...»

تبدَّلت نبرة صوتها. كان ردُّ دوميني سريعًا ولطيفًا. أشار إلى النافذة بالأعلى.

«إذا تعافت الليدي دوميني، فسنغفرُ لكِ ولابنكِ. وإذا لم تستردَّ عافيتها أبدًا، أتمنى لكما أن تكونا في الركنِ الأكثرِ سوادًا في الجحيم.»

انطلقَت السيارة. التقى الدكتور هاريسون بدوميني على العتبة وهو يستدير نحو المنزل.

أعلن: «سيادتها فاقدةٌ للوعي الآن.» وأردف قائلًا: «ربما تكون تلك علامةً جيدة. لم أُحبَّ أبدًا ذلك الهدوء غير الطبيعي. أظن أنها ستكون فاقدةً للوعي ساعاتٍ عديدة. بحق الرب، تعالَ واشرب كأسًا من الويسكي والصودا وأعطِني واحدًا!»

سقطت أشعة الشمس في الصباح الباكر على الحديقة عندما افترق الرجلان أخيرًا. وقفا للحظة ينظران إلى الخارج. وجاء من الغابة السوداء صوتُ أزيز منشار. كانت مجموعة الرجال الصغيرة قد تركَت خيامها. وأعلنَ صوتُ تحطُّم شجرة عن عملهم الصباحي.

سأل الطبيب: «هل ما زلت مستمرًّا في ذلك؟»

أجاب دوميني بشغفٍ مفاجئ في نبرة صوته: «إلى آخر جذع شجرة، إلى آخر شُجيرة، إلى آخر مجموعة من الأعشاب.» وأردف قائلًا: «سأسوِّي هذا المكان بالأرض، وسأجفف مستنقعاته السامة. لقد كرهتُ تلك البقعة البغيضة» تابع قائلًا: «منذ أدركتُ مدى المعاناة التي سبَّبتها لها. قد لا يكون عهدي هنا طويلًا يا دكتور — لديَّ مأساتي الخاصة التي يجب أن أتعامل معها — لكن أولئك الذين سيأتون من بعدي لن يشعروا أبدًا بفساد هذا المكان اللعين.»

أصدرَ الطبيب صوتًا منخفضًا. واحتفظ بأفكاره الداخلية لنفسه.

وأقرَّ: «ربما تكون على حق.»

الفصل التاسع والعشرون

دفعَت حرارةُ وقتِ ما بعد الظهيرة الخانقة — التي كان يتناظر بشكلٍ غريب تنبُّؤها بحدوث عاصفة قادمة مع اقتراب حدوث أزمةٍ في شئون دوميني الخاصة — إلى خروج دوميني من مكتبه إلى الشرفة. على كرسيٍّ بجانبه، استرخى إيدي بيلهام، أنيقًا يرتدي بذلةً قطنية بيضاء. كان هذا هو اليوم الخامس منذ حُلَّ لغزُ الغابة السوداء.

قال الشابُّ بلطف، ويده تمتد إلى كأسٍ بجانبه: «رائعٌ منك، يا رفيقي، أن تستضيفَني هنا.» وأردف قائلًا: «فالريف، عندما يتساقط الثلج، يكون جنة في هذا الطقس، خاصة عندما تكون لندن مليئة بالإشاعات المروعة وكل هذا النوع من الأشياء. ما آخر أخبار سيادتها؟»

أجاب دوميني: «ما زالت فاقدةً للوعي. لكن الأطباء يَبْدون مطمئنين تمامًا. كل شيء يعتمد على لحظات استيقاظها.»

ترك الشابُّ الموضوعَ بغمغمةِ تعاطفٍ مفعَمة بالأمل. كانت عيناه مثبتتَين على سحابة صغيرة من الغبار تظهر من بعيد.

سأل: «هل تتوقع زوارًا اليوم؟»

كانت الإجابة المقتضبة إلى حدٍّ ما: «لن أُفاجَأ.»

وقف الشاب، وتثاءب، وتمطى.

قال: «سأغادر سريعًا.» أضاف باستحسانٍ، متباطئًا للحظة: «يا إلهي! تصميمُ سُترة زيِّك الرسمي رائع للغاية، يا دوميني! إذا قررت دولةٌ معرَّضة للخطر أن تتنازل عن مسألة بِنْيتي غير الجيدة وأرسلتني لنجدتها، فسوف أذهب إلى الخياط الخاص بك.»

ابتسم دوميني.

وأجاب: «تلك ليست سوى الزيِّ المحلي لفرسان الحرس الوطني.» وأردف قائلًا: «سيُمسكون بك ويضمونك للحرس الملكي!»

عاد دوميني عبر النوافذ المفتوحةِ إلى حُجرة مكتبه بينما غادر بيلهام. كان جالسًا إلى مكتبه، يتفحَّص بعض الرسائل، وبعد بضع دقائق دخل سيمان إلى الغرفة. للحظة واحدة، شُدَّت عضلاته، وأصبح جسده متوترًا. ثم أدرك أن زائره يمدُّ يدَيه مرحِّبًا وهدأ. كان سيمان يتصبَّب عَرقًا، وصاخبًا، ومتحمسًا.

صاح: «أخيرًا!» وأردف قائلًا: «يا للهول! يا إلهي، دوميني، ما هذا؟»

أوضح دوميني: «قبل ثلاثة عشر عامًا، استقلتُ من تكليفٍ في سلاح فروسية الحرس الوطني بنورفولك. ومع ذلك، فقد عُدِّلَت هذه المسألة الصغيرة. في أزمةٍ مثل هذه ...»

قاطعه سيمان بجدِّية: «صديقي، أنت رائع!» وتابع قائلًا: «نمتلك الآراء ذاتَها؛ فأنت دقيق، ولا تترك شيئًا غيرَ مكتمل. لهذا» أضاف خافضًا صوته قليلًا: «نحن أعظم عِرق في العالم. المشروب قبل كل شيء، يا صديقي» وأضاف قائلًا: «أريد مشروبًا. يا له من يوم! الغيوم التي تُخفي الشمس مليئةٌ بحرارة خانقة.»

دقَّ دوميني الجرس، وطلب نبيذًا ألمانيًّا أبيضَ، ومياهًا غازية، وثلجًا. شرب سيمان وألقى بنفسه على كرسيٍّ مريح.

سأل بقليل من القلق، مشيرًا برأسه إلى زيِّ رفيقه: «آمُل أنه لا خوف من استدعائك خارج البلاد بسبب ذلك؟»

أجاب دوميني: «ليس في الوقت الحاضر.» واستطرد قائلًا: «لقد تجاوزت بقليلٍ السنَّ المطلوبة للذَّهاب مع الدفعة الأولى أو الثانية. أين كنت؟»

قرَّب سيمان كرسيه قليلًا.

وقال: «في أيرلندا.» وأضاف قائلًا: «آسفٌ أنني تخليتُ عنك بهذه الطريقة، لكنك لم تبدأ في الاعتماد علينا بعد. كان ثمَّة شكٌّ ضئيل حولَ ما سيفعلونه حيالَ الاعتقال. لهذا السببِ اضطُررت إلى التوقُّف عن التفكير في الرحلة الأيرلندية.»

«ما الذي تقرَّر؟»

أجاب سيمان بضحكةٍ مكتومة: «الموضوع قيد النظر لدى الحكومة.» وأردف قائلًا: «يمكنني بالتأكيد أن أمنح نفسي ستةَ أشهر قبل أن أحتاج إلى الرحيل. أخبرني الآن، لماذا أنت هنا؟»

أوضح دوميني: «بعد مغادرة تيرنيلوف، شعرتُ أنني أريد أن أبتعد. طُلب مني بدء بعض أعمال التجنيد هنا.»

«تيرنيلوف! هل ترك كتابه الصغير معك؟»

«نعم!»

«أين هو؟»

أجاب دوميني: «بأمانٍ.»

مسح سيمان جبهته.

وتمتم: «يجب أن يكون كذلك.» وتابع قائلًا: «لديَّ أوامرُ بتدميره. يمكننا الحديث عن ذلك بعد قليل. أحيانًا، عندما أكون بعيدًا عنك، أشعر بالخوف. قد يبدو هذا حماقة، ولكنْ لديك شيئان — تلك الخريطة ومذكرات فون تيرنيلوف — من شأنهما أن يُدمِّرا دعايتنا في كل بلدان العالم.»

أكَّد له دوميني: «كِلاهما في أمان.» واستطرد قائلًا: «بالمناسبة، يا صديقي، هل تعلم أنك نفسك تنسى حذرَك المعتاد؟»

سأل سيمان بسرعة: «كيف؟»

«بينما كنت تنحني للجلوس الآن، رأيت بوضوح شكلَ مسدسك في جيبك. أنت تعرف جيدًا كما أعلم أنه مع اسمك وحقيقةِ أنك إنجليزي الجنسية فحسب، فمن الغباءِ غيرِ المبرَّر أن تحمل أسلحةً نارية في الوقت الحالي.»

دفع سيمان يده في جيبه وألقى بالمسدس على الطاولة.

واعترف: «أنت محقٌّ تمامًا.» واستطرد قائلًا: «اعتنِ به من أجلي. أخذتُه معي إلى أيرلندا؛ لأن المرء لا يعرف أبدًا ما قد يحدث في هذا البلد الرائع.»

ألقاه دوميني بلا مبالاةٍ في دُرج المكتب الذي كان يجلس إليه.

تابع سيمان: «أسلحتنا، من الآن فصاعدًا، يجب أن تكون أسلحةَ المكر والخديعة. سيكون علينا أنا وأنت، للأسف، أن نُقلِّل من رؤية أحدنا للآخر، يا دوميني. ومن المؤسف، من نواحٍ كثيرة، أننا لم نتمكَّن من إبعاد إنجلترا عن هذا الأمر لبضعة أشهر أخرى. ومع ذلك، يجب التعامل مع الوضع كما هو قائم. بقدرِ ما تشعر بالقلق، فقد أمَّنتَ نفسك عمَليًّا من الشك. ستحتفظ بمكان رائع ومعزول بين أولئك الذين يخدمون لورد الحرب العظيم. عندما أقترب منك، سيكون ذلك من أجل التعاطفِ والمساعدة ضدَّ شكوك هؤلاء الإنجليز أصحاب الرؤى البعيدة!»

أومأ دوميني.

سأل: «هل ستبقى الليلة؟»

أقر سيمان: «إذا سمحتَ لي.» وأضاف قائلًا: «هذه هي المرة الأخيرة لعدة أشهر التي يكون فيها من الحكمة أن نلتقيَ بهذه الحميمية. ربما سيُسجل صديقنا العزيز باركنز هذه المناسبة في ملاحظاته عن الكحول.»

قال دوميني: «بعبارة أخرى، أنت تقترح أن نشربَ نبيذ دوميني الألماني الأبيض الفاخر الخاص، ونبيذَ البورت الخاص بآل دوميني في صحة مجد بلادنا.»

ردَّد سيمان: «في صحة مجد بلادنا.» وأردف قائلًا: «فليكن يا صديقي. اسمع.»

كانت سيارةٌ قد مرَّت في الشارع أمام المنزل. كانت ثَمة أصواتٌ في القاعة، وطرْقٌ على الباب، وحفيفُ ملابس امرأة. أعلن باركنز، منزعجًا قليلًا، عن مجيء الزوار.

«أميرة إيدرستروم و... سيد محترم. قالت الأميرة إن رسالتها لك عاجلةٌ يا سيدي»، أضاف وهو يستدير معتذرًا لسيده.

كانت الأميرة بالفعل في الغرفة، يتبعها رجلٌ قصير يرتدي بذلةً سوداء قاتمة، وربطةَ عنقٍ بيضاء، ويحمل قبعةً سوداء مستديرة. ألقى نظرة خاطفة على الغرفة عبر نظارته السميكة، وعرَف دوميني أن النهاية قد حانت. أُغلقَ البابُ وراءهم. مضت الأميرة قليلًا إلى داخل الغرفة. كانت يدُها ممدودةً نحو دوميني، ولكن ليس لتحيته. أشار أصبعها الأبيض مباشرةً إليه. التفتت إلى رفيقها.

وسألت: «مَن هذا أيها الدكتور شميدت؟»

أجاب شميدت: «الرجل الإنجليزي، بحق الرب!»

كان الصمت الذي ساد عدةَ ثوانٍ عميقًا ومتسمًا بالانفعال. ربما كان دوميني أهدأ شخص في الأربعة. كانت الأميرة شاحبةً ومتَّسمة باضطرابٍ بدا وكأن كلماتها تفيض به.

صاحت: «إيفرارد دوميني، ماذا فعلتَ بحبيبي؟ ماذا فعلت بليوبولد فون راجاشتين؟»

أجاب دوميني: «لقي المصيرَ الذي كان قد أعَدَّه لي. تقاتلنا وانتصرت.»

«هل قتلته؟»

ردَّد دوميني: «قتلتُه. كانت مسألة ضرورة. جسده يرقد في قاع النهر الأزرق.»

«وحياتك هنا كانت كذبة!»

اعترض دوميني قائلًا: «على العكس من ذلك، كانت هي الحقيقة.» وتابع قائلًا: «لقد أكَّدتُ لكِ في فندق كارلتون، عندما تحدثتِ معي لأول مرة، وأكدتُ لكِ عشرات المرات منذ ذلك الحين، أنني إيفرارد دوميني. هذا اسمي. هذا أنا.»

بدا صوت سيمان وكأنه يأتي من مسافة بعيدة. في الوقت الحالي، لم يكن الرجلُ يمتلك الشجاعةَ ولا روحَ المبادرة. بدا وكأنه قد أُصيب بنوعٍ من السكتة الدماغية. كان عقله يعمل في الاتجاه العكسي.

تمتم: «جئتَ إليَّ في كيب تاون؛ كان لديك كلُّ رسائل فون راجاشتين، كنتَ تعرف تاريخه، وكان لديك التفويض الإمبراطوري.»

قال دوميني: «لقد تبادلنا أنا وفون راجاشتين الأسرارَ الأكثرَ حميمية في معسكره، كما يعلم الدكتور شميدت. أخبرته بتاريخي، وأخبرني بتاريخه. أما الرسائل والأوراق فأخذتها منه.»

غطَّى شميدت وجهَه بيدَيه للحظة. كانت كتفاه ترتفعان وتنخفضان.

قال منتحبًا: «رئيسي الحبيب!» واستطرد قائلًا: «سيدي العزيز المخلص! قتله ذلك الرجلُ الإنجليزي المخمور!»

قال دوميني بهدوء: «لم يكن مخمورًا كما تصورته، ولم يُسرف في الشرب، ولكنه كان قادرًا على انتشال نفسه عندما جاء الحافز العظيم.»

أخذَتِ الأميرة تنتقلُ بناظِرَيها من أحد الرجلين إلى الآخَر. كان سيمان لا يزال يبدو وكأنه رجلٌ يكافح من أجل تخليص نفسه من كابوسٍ ما.

قال متلعثِمًا: «شكِّي الأول والوحيد كان في تلك الليلة التي اختفى فيها وولف!»

اعترف دوميني: «مجيء وولف كان بالأحرى مأساة.» وأضاف قائلًا: «لحسن الحظ، كان لديَّ في المنزل رجل من الخدمة السرية كان قادرًا على التخلص منه.»

شهق سيمان: «هل كنت أنت مَن خطَّط لاختفائه؟»

أجاب دوميني: «بالطبع.» وأردف قائلًا: «لقد عرَف الحقيقة وكان يُحاول طَوال الوقت التواصل معك.»

تابع سيمان، وهو يرمش بعينيه بسرعة: «وماذا عن المال؟» وتابع قائلًا: «مائة ألف جنيه، وأكثر؟»

أجاب دوميني: «لقد فهمت أنها كانت هدية.» واستطرد قائلًا: «ومع ذلك، إن كانت المخابرات السرية الألمانية تهتمُّ برفع دعوى ومقاضاتي ...»

قاطعَته الأميرة فجأة. بدت عيناها متقدتَين.

صاحت، وهي تمدُّ يدَيها نحو شميدت وسيمان: «ماذا بكما أنتما الاثنان؟» وأضافت قائلةً: «هل أنتما مخلوقان من كُتَل من التراب — من غبار — مخلوقان بلا شجاعةٍ وذكاء؟

هل بوُسعكما أن تدَعاه يقف هناك ... الرجل الإنجليزي الذي قتل حبيبي، الذي خدعَكما؟ تدَعانه يقف هناك ويسخر منكما، دون أن تفعلا أو تقولا شيئًا! هل حياته شيء مقدَّس؟ ألديه أيٌّ من أسراركما في عُهدته؟»

تأوَّه سيمان وعلا وجهَه رعبٌ شاحب مفاجئ: «يا إلهي! لديه مذكرات الأمير! لديه خريطة القيصر!»

أجاب دوميني: «على العكس، كلاهما مودَع في وزارة الخارجية. نأمُل أن نجدهما مفيدتين جدًّا في وقتٍ لاحق.»

وثب سيمان إلى الأمام مثل النَّمر وسقط متكومًا على الأرض؛ إذ قُوبلت وثبته بقبضة دوميني المندفِعة. انسلَّ شميدت عبر الغرفة، ومن تحت ثَنْية ساق بنطلونه كان شيء يلمع.

صاحت الأميرة بغضب، عندما تردَّد كِلا المهاجمَين: «أنتما اثنان في مواجهة واحد!» وأردفت قائلةً: «ليت كان معي سلاح، أو كنتُ رجلًا!»

علَّق صوتٌ جزل من النافذة: «أميرتي العزيزة، أظن من ناحيةٍ أخرى أننا أربعة في مواجهة اثنين، أليس كذلك؟»

وقف إيدي بيلهام، ويداه في جيبَيه، عند الممرِّ ذي النافذة، وعلى وجهه الذي يخلو عادةً من أي تعبير، بريقُ تأهُّب. من ورائه، تسلَّل رجلان بهيئةٍ مخيفة إلى الغرفة. لم يحدث قتالٌ ولا حتى صراع. في لحظةٍ قُيِّدَت يدا سيمان، الذي لم يكن قد تعافى مطلقًا من صدمةِ دهشته، وكان حينئذٍ فاقدًا أعصابَه تمامًا، وجُرِّد شميدت من سلاحه. كان الأخير أولَ مَن كسر حاجز الصمت الغريب.

سأل: «ما الذي فعلتُه؟» وتابع قائلًا: «لماذا أُعامَلُ على هذا النحو؟»

سأل إيدي بسرور: «أنت الدكتور شميدت؟»

كان الرد العنيف: «هذا اسمي يا سيدي.» واستطرد قائلًا: «لقد أتيتُ للتو من شرق أفريقيا. لم نكن نعرف شيئًا عن الحرب عندما انطلقنا في رحلتنا. جئت لفضحِ ذلك الرجل. إنه محتال، قاتل! لقد قتل رجلًا ألمانيًّا نبيلًا.»

شهق سيمان: «لقد عاب في الذات الملَكية!» وأضاف قائلًا: «لقد خدع القيصر! لقد تجرأ على الجلوس في حضرته بصفته البارون فون راجاشتين!»

نظر الشابُّ الذي يرتدي البذلة البيضاء إلى دوميني وابتسم.

قال: «أنتما الاثنان لا تقصدان أن تكونا مضحِكَين، ولكنكما كذلك.» وأردف قائلًا: «أولًا، لدينا الدكتور شميدت يتَّهم السير إيفرارد هنا بأنه محتالٌ لأنه انتحل اسمَه هو

نفسه؛ ويتَّهمه بقتل رجلٍ خطَّط بدمٍ بارد — وأنت مشاركٌ في ذلك، بالمناسبة، يا شميدت — لقتله؛ ثم لدينا صديقُنا هنا، سكرتير الجمعية التي تروِّج لتحسين العلاقات بين رجال الأعمال في إنجلترا وألمانيا، يشتكي لأنَّ السير إيفرارد نفَّذ في ألمانيا، من أجل إنجلترا، بالضبط ما كان يعتقد أن البارون فون راجاشتين كان يُنفِّذه هنا ... من أجل ألمانيا. أنتم عِرق غريب بطيء الفهم، أيها الألمان.»

صاح شميدت: «أطالب مجددًا بأن أعرف بأيِّ حقٍّ أعامَل كمجرم؟»

أجاب إيدي ببرود: «لأنك مجرم.» وتابع قائلًا: «لقد خطَّطتَ أنت وفون راجاشتين معًا لمقتل السير إيفرارد دوميني في شرق أفريقيا، وأمسكت بك للتو تتسلَّل وبيدك سكين. ذلك كافٍ لك. هل لديك أيُّ أسئلة، يا سيمان؟»

كان الرد الشرس: «لا.»

علَّق الشاب بهدوء: «كم أنت حكيم.» واستطرد قائلًا: «خلال اليومين الماضيَين، جرى تفتيش منزلك في فورست هيل ومكاتبك في لندن وول.»

قال سيمان: «لقد قُلتَ ما فيه الكفاية.» واستطرد قائلًا: «انقلبت الأقدارُ ضدي. أشكر الرب على أن سيدي لديه خدمٌ أكثر قدرةً مني، ولديه القوة لسحق جزيرة المتغطرسين والأغبياء هذه!»

غمغم إيدي بنبرةٍ قاسية: «متغطرسين ... يبدو هذا قاسيًا.» وأضاف قائلًا: «ومع ذلك، لنستكمل هذه المسألة الصغيرة» أضاف، مستديرًا إلى أحد مرءوسيه. «ستجد سيارةً عسكرية في الخارج. اصطحب هذَين الرجلين إلى غرفة الحراسة في ثكنات نورويتش. لقد رتبتُ حراسةً لاصطحابهم إلى المدينة. أخبِر العقيد بأنني سأنتهي في وقتٍ لاحقٍ اليوم.»

نهضت الأميرةُ من الكرسي الذي كانت قد هوَتْ عليه قبل لحظات قليلة. استدار دوميني نحوها.

وقال: «أيتها الأميرة، يمكن أن يكون ثمة محادثةٌ قصيرة بيننا. ومع ذلك، سأطلب منكِ أن تتذكري هذا. لقد خطَّط فون راجاشتين لموتي بدم بارد. كان بإمكاني قتلُه مثل سفاح، دون أدنى مخاطرة، لكنني فضَّلت مواجهتَه وجهًا لوجه، هذه هي الحقيقة. كانت حياته مقابل حياتي. قاتلتُ من أجل بلدي، كما فعل من أجل بلده.»

نظرَت إليه الأميرة بعينين متألقتين.

قالت: «سأكرهُك حتى نهاية حياتي؛ لأنك قتلتَ الرجل الذي أحبُّه، لكن رغم أنني امرأة، فأنا أعرفُ العدل. كنتَ شهمًا معي. لقد عاملتَ ليوبولد ربما أفضلَ مما كان

سيُعاملك. أدعو الربَّ ألا أرى وجهك مرةً أخرى. تفضَّل واتركني أغادر هذا المنزل في الحال دون حراسة.»

فتح دوميني النوافذَ التي تؤدي إلى الشرفة وتنحَّى جانبًا. مرت به دون أن تُلقي نظرةً عليه واختفت. جاء إيدي يتمشَّى على الشرفة بعد لحظات قليلة.

وقال: «يا لهما من عجوزَين لطيفَين هذان الاثنان، يا عزيزي.» وأردف قائلًا: «عرَض سيمان للتو على فورسيث، تابِعي القويِّ البِنية الذي كان يرتدي بذلة زرقاء من الصوف، مائةَ جنيه لإطلاق النار عليه بحجةِ أنه كان يهرب.»

«وماذا عن شميدت؟»

«أصرَّ على حقوقه كضابط وطالبَ بالجلوس في المقعد الأمامي والحصول على سيجارٍ قبل التحرك بالسيارة! عمل رائع، يا دوميني، ومرتَّب بدقة.»

كان دوميني يُراقب الغبار الناجم عن السيارتين اللتين كانتا تختفيان في الشارع.

سأل: «أخبرني، يا إيدي، ثَمة شيء واحد لطالما كنتُ أشعر بالفضول بشأنه. كيف تمكنتَ من حبس هذا الرجل وولف عندما لم تكن ثَمة حربٌ دائرة، ولم يكن يخالف القانون؟»

ابتسم الشاب.

واعترف: «كان علينا أن نتصرف في هذا الشأن، يا عزيزي.» وتابع قائلًا: «مخطَّطات حصن، حسنًا؟»

سأل دوميني: «هل تقصد أن تقول إنه كان معه مخططات لحصن؟»

قال الشابُّ: «صورة بطاقة بريدية لقلعة نورويتش، ولكن أبقِ الأمر سرًّا. هل يمكنني تناول مشروب قبل أن أستقل السيارة؟»

انتهَت اضطرابات اليوم، ووجد دوميني، بعد فورةٍ صامتة ولكن عاطفية من الامتنان على انتهاء هذا التحفُّظ غير الطبيعي من حياته، أن كل أفكاره كانت متعلقةً بالصراع الذي كان يدور في حجرة النوم أعلاه. نزل الطبيب العجوز وانضمَّ إليه وقت العشاء. قابل نظرةَ دوميني المتلهفة بإيماءة صغيرة.

وأعلن: «إنها بخير.»

«هل أُصيبت بحُمى أو أي شيء؟»

«يا إلهي، لا! ستكون في صحة جيدة جسديًّا في أقربِ وقت ممكن. يمكنني أن أقول لك إنها ستصبح امرأة مختلفة عما كانت عليه في هذا الوقت من العام الماضي. عندما تستيقظ، إما أن تكون على طبيعتها مرة أخرى، دون أي وهمٍ من أي نوع، أو أن ...»

توقَّف الطبيب، وارتشف نبيذه، وأفرغ كأسه ووضعها باستحسان.

ألحَّ دوميني: «أو ماذا؟»

«أو أن هذا الجزء من دماغها سوف يتأثر تأثرًا دائمًا نوعًا ما. ومع ذلك، آمُل في حدوث الأفضل. حمدًا للرب أنك موجود!»

انتهيا من عَشائهما في صمت تقريبًا. وبعد ذلك، دخَّنا السيجار لبضع دقائق في الشرفة. ثم شقَّا طريقهما بهدوء إلى الطابق العلوي. ترك الطبيب دوميني عند باب غرفة الأخير.

قال: «سأبقى معها لمدة ساعة أو نحو ذلك.» واستطرد قائلًا: «بعد ذلك سأتركها بمفردها تمامًا. هل ستكون هنا في حالة حدوثِ تغيير؟»

وعد دوميني: «سأكون هنا.»

مرَّت دقائقُ وساعات، غير معدودة، دون أن يشعر بها. جلس دوميني على كرسيِّه المريح، تكتنفُه موجةٌ مضطربة من المشاعر العاطفية. عادت إليه ذِكرى تلك الأيام الأولى من عودته بكل شوقها المؤلم. شعر مرةً أخرى بالتمزُّق ذاتِه في أوتار القلب، نفس الرقة الغريبة والمثيرة للأعصاب. بدَت مأساة العالم العظيمة، التي كان يعلم أنه أيضًا، بالتأكيد، سيستمرُّ في لعب دوره فيها، وكأنها شيءٌ بعيد جدًّا، وكأنها شأنُ عِرقٍ آخَر من الرجال. بدَت كل ذرةٍ فيه منسجمة مع سحرِ وموسيقى أملٍ وحيد جامح. ومع ذلك، عندما جاء ما كان يستمع إليه مدةً طويلة، بدا أن الأمل قد تجمَّد وصار خوفًا. جلس منحنيًا قليلًا إلى الأمام على كرسيه المريح، ويداه ممسكتان بجانبَيه، وعيناه مثبتتان على الشق الذي أخذ يتَّسع ببطء في اللوح. صار كما كان من قبل. انحنت إلى أسفل، وانتصبَت مرةً أخرى، وتوجَّهت نحوه. من الخلف، أغلقت يدٌ خفيةٌ اللوح. أتت إليه وذراعاها ممدودتان وعيناها اللامعتان بهما كلُّ روعة الحياة والحب. اختفى ذلك الأثر البسيط للسير أثناء النوم. جاءت إليه كما لم تأتِ من قبل. كانت امرأةً حقيقية وحيوية للغاية.

صاحت: «إيفرارد!»

أخذها بين ذراعَيه. في أول قُبلة لهما، شعرت بسعادة غامرة تعتريها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. وضعت رأسها على كتفه للحظة.

واعترفَت: «أوه، لقد كنتُ سخيفة جدًّا!» وأضافت قائلةً: «مرت عليَّ أوقاتٌ لم أصدِّق فيها أنك أنت إيفرارد؛ زوجي! والآن أنا أعلم.»

مرةً أخرى قبَّلَت شفتيه؛ شفتيه الظمآنتَين برغبةِ سنين. عبر الرَّدهة، توجَّه الطبيب العجوز بهدوء إلى غرفته وابتسامةٌ سعيدة تعلو وجهَه.

هنـــداوي